مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (٨١)

مختصر تفسير الفاتحة والعشر الأخير

من كتاب

فتح الرب الوهاب ببيان معاني آي الكتاب

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (٨١)

مختصر تفسير الفاتحة والعشر الأخير

من كتاب

فتح الرب الوهاب ببيان معاني آي الكتاب

ويليه:

مختصر في التوحيد الحق وأذكار الصباح والمساء وجوامع الدعاء من الصحيحين

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له إلٰه الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله أشرف الأنبياء والمرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين، **أما بعد**:

فإن كلام الله ﷻ أشرف كلام وهو أفضل الذكر، أنزله الله تبيانًا لكل شيء، وتفصيلًا لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، آيات بينات لقوم يعقلون، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، أنزله الله شفاء لما في الصدور وهدى وموعظة للمؤمنين، وذكرى وبشرى لمن آمن به وقَبِلَه.

وقد بيَّن النبي ﷺ معانيه، كما بيَّن ألفاظه، فجدير بالمسلم أن يكون له عناية بمعرفة معاني القرآن حتى يتعبَّد لله بما أراده الله من عباده من العلم والعمل.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن آمَن بالقرآن وقَبِلَه، وعَلِمَه وعَمِلَ به، وآمَن بمتشابهه، وتلاه حقَّ تلاوته، ونفَّذ أحكامه، ونسأله أن يجعلنا ممن قاده القرآن إلى رضوان الله والجنة، ونسأله أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، ونسأله أن يجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده.

وهذه خلاصة مما تحرَّر من النظر في التفسير والتأمل في كلام المفسرين، جمعتها تذكرة لنفسي ولمن شاء الله من إخواني المسلمين، وسميته: **(فتح الرب الوهاب ببيان معاني آي الكتاب)، وهذا الجمع مشتمل على ما يلي**:

- **أولًا**: المعنى المختار للآية الكريمة.
- **ثانيًا**: إثبات الاعتقاد الصحيح في توحيد الله ﷻ الذي دلت عليه النصوص، والذي عليه الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون في الله وألوهيته وربوبيته وفي أسمائه وصفاته.
- **ثالثًا**: رد المعاني الباطلة التي يتوهَّمها أهل البدع في ألوهية الله أو في ربوبيته أو في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله.
- **رابعًا**: ذكر سبب النزول في الآيات، مع الترجيح إن تعدَّد سبب النزول.
- **خامسًا**: ذكر الأقوال الواردة في تفسير الآية مع الترجيح، وذكر الأسباب المرجِّحة.
- **سادسًا**: الإشارة إلى التوفيق بين الآيات التي قد يُتوهَّم فيها التعارض.
- **سابعًا**: إثبات الأحكام الشرعية والفقهية الظاهرة من الآيات من غير استطراد.
- **ثامنًا**: استنباط الفوائد والهدايات من الآيات.

ثم كان بعدُ اختصار التفسير ليكون أقرب للوصول لمعنى الآية، وما يلزم تالي كتاب الله من علمٍ بمعنى ما تضمَّنته، **وهذا الذي بين يديك أيها القارئ الكريم تفسير الفاتحة والعُشر الأخير منه**، فمن أراد الاستزادة فليرجع للأصل.

هذا وأسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به مَن شاء من عباده، وأن يجعله سببًا للزلفى بين يديه، وأن يُجزل المثوبة لكل مَن أعان على مدارسة كُتُب التفسير، وجَمْعِ هذا التفسير وإعداده وترتيبه ومراجعته وطباعته.

كما أسأله جَلَّ وَعَلَا أن يُوفِّق الجميع للهدى، وأن يُثبِّتَنا على دينه القويم، وصراطه المستقيم، وأن يوفقنا للعمل بكتابه المبين، وسنةِ نبيِّه محمد خاتم النبيين، وصلى الله وسلم على محمدٍ وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وكتبه: **عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن الراجحي**

فَصل

القرآن الكريم هو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وقد تعبَّدنا الله فيه بعبادات متنوعة، منها: تلاوته، وتعلُّمه وتعليمه، وتدبُّره وفهم معانيه، والعمل بما فيه.

فضل تلاوة القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البَقَرَة: ١٢١].

والتلاوة نوعان:

» **النوع الأول**: تلاوة لفظية؛ وهي تلاوة القرآن بتلاوة حروفه، وهذه التلاوة عبادة من العبادات، وفِيهَا أجر وثواب من الله، وبكل حرف يتلوه اَلْمُسْلِم أجر وثواب محدَّد، كما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[١]. فهذا الحديث فيه: أَنَّ مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وهَذَا فِيهِ فضل تلاوة الْقُرْآن، وأن تلاوة الْقُرْآن عبادة مستقلة، وهذه التلاوة اللفظية وسيلة للعمل به.

» **النوع الثاني**: التلاوة الحُكْمية؛ وهي تصديق أخباره، وتنفيذ أحكامه، فيصدِّق الله في أخباره، ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، وينفِّذ أوامره، ويستجيب لله ولرسوله ﷺ، وينتهي عما حرَّم الله، ويُحكِّمَ شرعَ الله في أرض الله، وهذه هي التلاوة التي عليها مدار السعادة أو الشقاوة.

فضل تعلُّم القرآن وتعليمه:

جاء عند البخاري من حديث عثمان ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٢]، فهذا الحديث فِيهِ: أن خير الْمُؤْمِنِينَ هم الَّذِينَ يتعلمون الْقُرْآن ويعلِّمونه، وكذلك يعملون بِهِ، فيصدِّقون أخباره، وينفِّذون أحكامه، ويمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، فهؤلاء هم خير النَّاس. أَمَّا مَن لا يعمل بعلمه فَلَيْسَ له هذه الخيرية؛ بَلْ هُوَ في شر المنازل، ومن الغاوين، نسأل الله السلامة والعافية.

الحث على تدبُّر كتاب الله وفهم معانيه:

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النِّسَاء: ٨٢]. وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [مُحَمَّد: ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٦٨].

ذمُّ مَن أعرض عن تدبُّر القرآن الكريم وفهم معانيه:

ذمَّ الله تعالى مَن أعرض عن تدبُّر القرآن، وفهم معانيه، في مواضع كثيرة من كتابه، قال الله تعالى في وصف الكفار: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الإِسْرَاء: ٤٦] أي: أغلفةً معنوية تمنعهم من فهم الْقُرْآن، والشاهد من الآية: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإنسان أن يتعلم الْقُرْآن، وألَّا يتشبه بالكفار الَّذِينَ لا يتعلمون الْقُرْآن، وفي قلوبهم وفي آذانهم حُجُبٌ لا يصل إليها الْحَق.

وقال الله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفُرْقَان: ٣٠]، وقد ذكر ابن القيم ﷺ[٣] أَنَّ هَجْرَ القرآن عدة أنواع:

» **الأول**: هجر تلاوته.

» **الثاني**: هجر تدبُّره.

» **الثالث**: هجر العمل به.

» **الرابع**: هجر الاستشفاء به.

» **الخامس**: هجر تحكيمه والتحاكم إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).
(٣) الفوائد لابن القيم (ص:٨٢).

فضل علم التفسير:

التفسير من أهم العلوم التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها؛ لأنه من أشرف العلوم؛ ولهذا قال ابن عبد البر رحمه الله: «أول العلم: حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه»(١)، فعلم التفسير من فروض الكفاية(٢). والصحابة كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا معانيها ويعملوا بها(٣).

أوجه التفسير:

التفسير على أربعة أوجه، كما ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما:

» **الأول**: تفسير تعرفه العرب من كلامها؛ وهو معرفة معاني المفردات اللُّغوية؛ مثل: كهف، وسماء، ونحو ذلك.

» **الثاني**: تفسير لا يُعذر أحد بجهله؛ وهو معرفة ما أوجب الله على العبد مما يتعلق بالأمور التكليفية كأحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج.

» **الثالث**: تفسير لا يعلمه إلا العلماء؛ مثل: معرفة المحكم والمتشابه، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك؛ مما يعلمه العلماء خاصَّة.

» **الرابع**: تفسير استأثر الله بعلمه فلا يعلمه إلا الله تعالى؛ وهو معرفة حقائق أسماء الله وصفاته، ومعرفة حقائق الآخرة، ونحو ذلك مما استأثر الله بعلمه.

الطريقة المنهجية في تفسير القرآن الكريم:

تعلُّم القرآن وتعليمه والكشف عن معانيه لا يكون بالرأي، وإنما يكون بالعلم، والعلم هنا يكون على أنواع:

» **أولًا**: تفسير القرآن بالقرآن، فإذا وُجِدَ تفسير آية في آية أخرى فإنها تُفسَّر به، كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ٤]، يُفسِّره ما بعده من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٥]. فالقرآن يُفسَّر بالقرآن، وخيرُ ما يُفسَّر به القرآن: كلامُ الله تعالى.

» **ثانيًا**: تفسير القرآن بالسُّنة؛ وذلك أن السُّنة شارحة للقرآن، ومُوضِّحة له، والسُّنة وحي ثانٍ. ومثال تفسير القرآن بالسُّنة: تفسير النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]. فإن الصحابة أشكل عليهم تفسير هذه الآية، وظنوا أن المراد بالظلم فيها: ظلم المعصية فيما دون الشرك، ولهذا قالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟! فقال لهم النبي ﷺ: ليسَ كما تقولون، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إلى قَوْلِ العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣](٤). فبيَّنَ النبيُّ ﷺ أن المراد بالظلم: ظلم الشرك.

» **ثالثًا**: تفسير القرآن بأقوال الصحابة؛ وذلك أن الصحابة رضوان الله عنهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، وهم أهل لغة وفصاحة، وقد شاهدوا التنزيل، ويعرفون مقاصده، وهم رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم كانوا الفقهاء والعلماء؛ يتعلمون الألفاظ والمعاني، وقد عاشروا النبي ﷺ وكان بين أظهرهم؛ يسألونه عما أشكل عليهم فيوضِّحه لهم.

» **رابعًا**: تفسير القرآن بأقوال التابعين: وذلك إذا لم يوجد من القرآن والسُّنة وأقوال الصحابة ما يُفسِّر الآية.

» **خامسًا**: تفسير القرآن باللغة العربية؛ فإن القرآن نزل بلسان قريش والعرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]، وقال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، وهذا صريح بأن القرآن نزل بلغة العرب، فبها يُفسّر بضوابط مذكورة في مظانِّها.

مسألة: حكم تفسير القرآن بالرأي:

التفسير بالرأي المجرَّد حرام، فلا يجوز لأحد أن يُفسِّر القرآن الكريم بالرأي والهوى، وقد ورد وعيد شديد لمن فسَّر القرآن برأيه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال في القرآن برأيه؛ فليتبوأ مقعده من النار»(٥). ولما سئل أبو بكر رضي الله عنه عن قوله: ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١]، قال: «أيُّ أرْضٍ تُقِلُّنِي، وأيُّ سَماءٍ تُظِلُّنِي، إذا قُلْتُ عَلَى الله ما لاَ أعْلَمُ»(٦).

مسألة: حكم الإسرائيليات:

أخبار بني إسرائيل تذكر للاستشهاد لا للاعتماد عليها، وهي أقسام ثلاثة:

» **القسم الأول**: ما جاء موافقًا لما في شرعنا؛ فهذا مقبول.

» **القسم الثاني**: ما جاء في شرعنا تكذيبه وردُّه؛ فهذا مردود.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١١٢٩/٢).
(٢) «الإتقان» (٤٦٥/٢).
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٢).
(٤) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، وأحمد (٢٠٦٩).
(٦) أخرجه مالك كما في رواية أبي مصعب الزهري (١٦٦/٢)، والطبري (٧٢/١).

» **القسم الثالث**: ما سكت عنه شرعنا، ولم يأتِ فيه تكذيبه أو تصديقه؛ فهذا لا نُصدِّقه ولا نُكذِّبه؛ لقول النبي ﷺ: «إذا حدَّثكم أهل الكتاب؛ فلا تُصدِّقوهم، ولا تُكذِّبوهم»[1]. فهذا محمول على هذا النوع؛ ولنا أن نُحدِّث به للعبرة والاتعاظ؛ لقول النبي ﷺ: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[2].

جمع القرآن الكريم

القرآن الكريم كان له جمعان:

» **الجمع الأول**: كان في عهد أبي بكر ﵁؛ حيث إنه لم يكن مجموعًا في عهد النبي ﷺ في مكان واحد؛ بل كان متفرقًا في اللِّخاف والحجارة وغيرها؛ لأن الوحي كان ينزل في عهد النبي ﷺ، ولا يُعْلَم متى ينتهي نزول القرآن، فلما توفي النبي ﷺ انقطع الوحي، واحتاج الناس إلى جمع القرآن؛ خاصة لما قتل جمع غفير من القراء في وقعة اليمامة[3].

وهذا الجمع الأول جمعٌ عام بالحروف السبعة كلها، وبقيت المصاحف عند أبي بكر﵁ ثم عند عمر ﵁ ثم عند ابنته حفصة ﵂.

» **الجمع الثاني**: كان في زمن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفَّان ﵁؛ وكان ذلك بإشارة من حُذيفة بن اليمان ﵁ [4]؛ فإنه رأى اختلاف الناس في القراءة حين كان في المغازي في أذربيجان؛ فأتى عثمان ﵁ وقال له: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ والنَّصارى». فأخذ بذلك؛ وجمعه على حرفٍ واحدٍ، وهو الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة التي دارس فيها جبريل النبي ﷺ.

ترتيب سور القرآن الكريم وآياته:

ترتيب آيات القرآن هكذا بالنص، كما رتبها النبي ﷺ، أما ترتيب السُّوَر ففيه خلاف؛ فجمهور العلماء على أنه اجتهاد من الصحابة، وقال آخرون من أهل العلم: إن ترتيب السُّوَر بالنص على ما هو عليه في المصحف؛ ولهذا يستحب ترتيب السور في الصلاة، مثال ذلك: إذا قرأ في الركعة الأولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]؛ فإنه يقرأ في الركعة الثانية بـ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية: ١]. فيُكرَه أن يخالف ترتيب السُّور - كأن يقرأ في الركعة الأولى سورة العاديات، ثم يقرأ في الركعة الثانية سورة الزلزلة.

المكي والمدني من السُّور:

السُّور إما مكية، وإما مدنية، والمختار أنَّ المكيَّ منها: ما نزل قبل الهجرة ولو لم ينزل في مكة، سواء نزل في البرية أو في أماكن أخرى. والمدني: ما نزل بعد الهجرة ولو نزل في مكة، أو في أي مكان آخر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٤)، وأحمد (١٧٢٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١).
(٣) أخرجه أحمد (٢١٦٤٤)، وأبوداود الطيالسي (٦٠٩).
(٤) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سورة الفاتحة: وتسمى: (أمَّ القرآن)؛ لأنها تجمع معاني القرآن، وتسمى: (فاتحة الكتاب)؛ لأنه يُبدأ بها في أول المصحف، وتسمى: «السبع المثاني»؛ لأنها تُثنَّى في كل ركعة، وعدد آياتها سبع، ولها أسماء أخرى غير هذه. وهي أعظم سورة في القرآن، لم ينزل في الكتب السماوية أفضل منها؛ وذلك لما تضمَّنته من إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، وما فيها من إخلاص العبادة لله، وسؤال الله الهداية، وبيان أقسام الناس؛ فهي جامعة لمعاني القرآن كلِّه.

«أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» أي: ألوذ وألتجئ وأعتصم بك يا الله من شرِّ هذا الشيطان العدو اللَّدود الذي يريد أن يضلني في ديني ودنياي. والاستعاذة: طهارة يُطهِّر الإنسان بها فمه من اللغو والرفث استعدادًا للقراءة، وهي التجاء واحتماء بالله، فالقارئ يلتجئ ويعتصم بالله؛ اعترافًا بربوبيته وقدرته، واعترافًا بضعف العبد وعجزه، فلا ينبغي للإنسان أن يُخِلَّ بها.

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١﴾: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: «أقرأ بسم الله» أو «بسم الله قراءتي». و﴿اللَّهِ﴾ هو أعرف المعارف، عَلَمٌ على المعبود بحق؛ لأن غيره معبود بالباطل، ولا يُسمَّى به أحد غيره، و﴿اللَّهِ﴾: من التألُّه والتعبُّد أي: هو المألوه المعبود بحقٍ الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا، و﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله، فـ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دالٌّ على الرحمة الصفة القائمة به سبحانه، فالرحمة صفته و﴿الرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على تعلُّقِها بالمرحوم، أي: أنه يرحم خلقه برحمته.

وفي البسملة: إثبات ثلاثة أسماء لله: هي «الله»، و«الرحمن»، و«الرحيم»، وفيها: إثبات صفة الألوهية، وصفة الرحمة.

والصواب من قولي العلماء: أن «البسملة» ليست آية من الفاتحة.

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء من الله تعالى على نفسه، وفيه: إرشاد

وأمرٌ من الله تعالى لعباده أن يثنوا عليه. و﴿ال﴾ في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لاستغراق جميع أجناس وصنوف المحامد، فجميع أنواع المحامد كلها لله تعالى ملكًا واستحقاقًا، و﴿رَبِّ﴾ أي: المالك والمتصرف الذي يربِّي جميع خلقه بنعمه، ويربِّي عباده المؤمنين خاصة بالإيمان، ويُوفِّقهم لطاعته وذكره وشكره وحسن عبادته. و﴿الْعَالَمِينَ﴾: جميع ما سوى الله، فأنا وأنت وكلُّ المخلوقات كلنا من ذلك العالَم، والله ربُّ الجميع.

(٣) ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٣﴾: تقدم في تفسير البسملة الكلام على معنى هذين الاسمين الكريمين.

(٤) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤﴾: قرئ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقرئ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وهما من أسماء الله؛ فالله تعالى له الملك التام في الدنيا والآخرة، و﴿الدِّينِ﴾ أي: الجزاء والحساب؛ فالله تعالى يجازي عباده؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وخصَّ الله تعالى يوم الدِّين بالملك؛ لأنه في يوم الدِّين -أي: يوم القيامة- تنتهي الأملاك، فليس لأحدٍ ملك، وليس لأحد تصرف إلا لله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: ١٩].

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي: نخصُّك يا الله بالعبادة، ولا نعبد غيرك. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾: أي: نطلب العون منك يا الله وحدك، والاستعانة داخلة في «العبادة»، فهي فرد من أفرادها؛ لكن خصَّها الله بالذِّكر لأنها وسيلة لأداء «العبادة». وقدَّم الله «العبادة» على «الاستعانة»؛ لأنها هي المقصودة من خلق الجن والإنس، ولأنها الأهم. وفي هذه الآية العظيمة: وجوب إخلاص العبادة لله، والاستعانة به سبحانه، فمَن عبد غير الله أو صرف نوعًا من أنواع «العبادة» لغير الله؛ كالدعاء أو الذبح أو النذر أو الطواف أو غير ذلك؛ فإنه مشرك.

(٦) ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾: أي: دلَّنا وأرشدنا يا الله إلى صراطك المستقيم، وثبِّتنا عليه، و﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أي: الذي لا عوج فيه؛ وهو دين الإسلام.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بدلٌ من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: هذا الصراط المستقيم هو صراط الذين أنعم الله عليهم بالعلم والعمل، وهم أربعة أصناف: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، كما بيَّن تعالى ذلك في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود؛ وذلك أنهم علموا ولم يعملوا، فيدخل في ذلك من شابههم، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾ وهم النصارى ذلك أنهم عملوا بلا علم، ففقدوا العلم، وتخبطوا في دياجير الضلال، فهم يتعبدون على جهل وضلال، فيدخل في ذلك من شابههم من هذه الأمة من الصوفية والزهَّاد الذين يعملون على غير هدى.

وفي هاتين الآيتين: سؤال الله الهداية، وهذا السؤال أعظم سؤال وأنفعه وأجمعه، وليس هناك أفضل منه، ولو كان هناك أفضل منه لأوجبه الله، فقد فرض الله على كل مسلم أن يدعو به في كل ركعة من ركعات الصلاة؛ وذلك لأن حاجة الإنسان إلى «الهداية» أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنَّفَس الذي يتردد بين جنبيه؛ لأن موت القلب والروح أعظم من موت الجسد.[1]

(١) تنبيه: يُستَحَبُّ للقارئ بعد فراغه من قراءة سورة الفاتحة سواء في الصلاة أو خارجها أن يقول: «آمِين» بالتخفيف، ومعناها: «اللَّهُمَّ استجب».

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ
مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي
وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

يقال: المُجادِلة؛ أي: المرأة التي جاءت تجادل النبي ﷺ. ويقال: المُجادَلة: مصدر: جادَل يُجادِل مُجادَلةً.

(١) افتتح الله تعالى هذه السورة بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾: و﴿قَدْ﴾ للتحقيق، ﴿قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهي خَولَة بنت ثَعْلَبَة حين ظاهر منها زوجها أوس بن الصَّامِت؛ وذلك أنه كان قد كَبُر سِنُّه، وساء خُلُقه، فراجعته يومًا فغضب عليها، وقال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وحرَّمها على نفسه، وكان الظِّهَار في الجاهلية طلاقًا، فجاءت تجادل النبي ﷺ في ذلك، وتقول: يا رسول الله، أكَلَ مالي، وَأَفْنَى شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَى إِذَا كَبِرتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي. فهل تجد لي من رخصة؟ فقال النبي ﷺ: «ما أراك إلا حَرُمْتِ عليه». فجعلت تراجع النبي ﷺ، وتقول: إني أشكو إلى الله صبية؛ إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ①﴾: وهذا يدل على سعة سَمْعِه تعالى، وأنه لا يخفى عليه شيء من أقوال عباده، وأن سَمْعه لا يُماثِل سَمْع المخلوقين، بل هو سمعٌ كما يليق بجلاله وعَظَمته، ولهذا قالت عائشة: «سبحان مَنْ وَسِع سَمْعه الأصوات»[(١)].

(٢) أنكر الله على الذين يظاهرون من نسائهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، والظِّهار هو: قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي؛ يريد بذلك تشبيهها بأمِّه في الحُرْمة، وأنها حرامٌ عليه كحُرْمَة أمِّه. والظِّهَار يثبت بكل لفظ يدل على تحريم الرجل لزوجته، كقوله: «أنتِ حرام عليَّ»، أو «حَرَّمتُكِ»، أو «أنتِ عليَّ كظهر أمي، أو أختي، أو ابنتي». وقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾: ﴿مَّا﴾: هنا تعمل عَمَل «ليس»، أي: ليست الزوجات هُنَّ الأمهات، والمعنى: أن الزوجة لا تكون أُمًّا له بمجرد أن شَبَّهها بأمِّه، وإنما أُمُّه هي التي ولدته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾، وهذا يدل على تحريم الظِّهار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: قولًا شنيعًا فاحشًا، ﴿وَزُورًاۚ﴾: أي: كذبًا وباطلًا، فكونه يجعل زوجته كأُمِّه هذا أمر يكرهه الله ﷻ، وهو ذنب أوجب الله على مَنْ فَعَله الكفَّارة. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ②﴾: أي: أنه سبحانه يعفو عمَّا سلف في الجاهلية، ويعفو عن المسلم إذا تاب وأَتَى بالكفَّارة، ويغفر له ما كان منه.

(٣-٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾: اختلف العلماء في معنى «الْعَوْد» على أقوال؛ أقربها: أنه العزم على إتيانها وغشيانها، وأنه بمجرد عَزْمه تجب عليه الكفَّارة، وكفَّارة الظِّهَار تجب على المظاهر بشرط العود لما قال على الصحيح، لا بمجرد الظِّهار وإن لم يَعُد؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾. ثم بيَّن الله كفَّارة الظِّهار فقال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: أي: فيجب تحرير رقبة؛ أي: أن يُعتقها من الرِّق، فتكون حُرَّة. ويُجْزِئ في الرقبة الصغيرة والكبيرة، والذكر والأنثى؛ لإطلاق الآية؛ لكن يشترط أن تكون مؤمنة على الصحيح؛ للتقييد في آية القتل. وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾: أي: أن عتق الرقبة يجب أن يكون قبل أن يَمَس المظاهر زوجته أي: قبل أن يطأها. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: أي: الحكم، ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾: أي: تزجرون به، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③﴾: فهو خبير بأعمالكم، وسيجازي كل عامل بعمله. ثم قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾: أي: لم يجد رقبة، أو لم يجد ثمنها، وهذا يدل على أن كفَّارة الظِّهار على الترتيب، وليست على التخيير، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾: أي: فيجب عليه أن يصوم شهرين متتابعين، لا يفصل بينهما إلا بعذر شرعي؛ كمرض أو سفر. ثم إن صام من أول الشهر؛ فهو على حسب تمام الشهر ونقصانه، وإن صام في أثناء الشهر فإنه يصوم ستين يومًا. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾: أي: أنه يصوم شهرين متتابعين قبل أن يَمَس زوجته بالجماع، فإذا انتهى من صيام الشهرين؛ فإنه يعود إلى زوجته. ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾: أي: صيام شهرين متتابعين؛ لكبر سِنِّه أو لمرضٍ لا يرجى برؤه، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾: أي: فيجب عليه إطعام ستين مسكينًا، ونصَّ على ستين مسكينًا، فلو جَمَع طعام ستين مسكينًا ودَفعه لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين لم يُجْزِ ذلك. ومقدار الإطعام: نصف صاع من قوت البلد لكل مسكين، فإن لم يستطع الإطعام بقيت الكفَّارة في ذمته؛ حتى ييسر الله له. ولم ينص الله تعالى في كفَّارة الإطعام أن تكون قبل المسيس؛ كما في تحرير الرقبة، وصيام شهرين متتابعين؛ وعليه فيجوز المسيس والوطء في أثناء كفَّارة الإطعام. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾: يعود إلى الكفَّارة، والمعنى: شَرعنا هذه الأحكام لتؤمنوا بالله ورسوله، وهذه الأحكام لا يقوم بها إلا مَن كان مؤمنًا بالله ورسوله. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ أي: محارمه، والمعنى: لا تتجاوزوها، ولا تعتدوها. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④﴾: هذا وعيد شديد للكافرين الذين جَحدوا توحيد الله، وعَبَدوا غيره، لهم عذاب أليم أي: مُوجِع؛ وهو عذاب النار، والخلود فيها.

(٥-٦) بيَّن الله في هذه الآيات الوعيد الشديد على مَنْ حادَّ الله ورسوله، وعاند أحكام الله، ولم يؤمن بشرع الله ودينه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ أي: أهينوا وأخزوا، كما فُعِل بأشباههم ممَّن قبلهم ممَّنْ عَمِلَ مثل عملهم، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾: لا يخالفها ولا يعاندها إلا كافر، فَمَنْ لم يؤمن بهذه الآيات البينات؛ فإنه رادّ الله في حُكمه، فَلَه العذاب والإهانة والطرد والإبعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑤﴾: وهو عذاب النار، يُهينهم ويُخزيهم ويُؤلمهم؛ لكفرهم وعنادهم. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يوم القيامة للحساب والجزاء، فيبعثهم سبحانه ويخبرهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي: في هذه الدنيا، ثم يجازيهم على ذلك، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ أي: أنه تعالى أحصى أعمال العباد، وضَبَطها، وإن كان العباد قد نسوها، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑥﴾: فكل شيء حاضر وموجود عند الله ﷻ، ولا يخفى عليه سبحانه شيء من أعمال عباده، وهذا فيه تهديد ووعيد لهم إن استمروا على كُفْرهم وعنادهم.

---

(١) رواه البخاري معلقا (٩/ ١١٧)، ووصله الإمام أحمد (٢٤١٩٥)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨).

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١

(٧) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: هذه الآية تدل على إحاطة عِلْم الله تعالى بكل ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾: النجوى: اسم للكلام السر الذي يُناجي به الإنسان نفسه، أو يناجي به غيره سِرًّا لا يسمعه أحد، والمعنى: أن الكلام الذي يكون بين ثلاثة لا يطَّلع عليه غيرهم، فهُم يُسِرُّون به، إلا كان الله رابعهم، يسمع كلامهم، ويعلم بحالهم.

﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾: ولا تكون النجوى بين خمسة إلا كان الله سادسهم، ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾: أي: أقل من الثلاثة. ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ أي: من الخمسة. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ﴾: أي: معهم بعلمه واطِّلاعه وإحاطته، ونفوذ قُدرته ومشيئته، وسَمْعه لكلامهم، وبصره لهم، وهو فوق العرش سبحانه، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾: أي: يُخبرهم بما عملوا، وبما أَسَرُّوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾: فكل ما يسمى شيئًا؛ فإن الله يعلمه. والمعية في الآية: معية عامَّة، أي: معية علم وإحاطة واطِّلاع؛ وعلى هذا أجمع أهل السُّنة والجماعة.

(٨) يبين تعالى في هذه الآية حال اليهود والمنافقين، وشِدَّة عداوتهم للمؤمنين، وأنهم يتمنون لهم الضُّر والشرَّ؛ فإن الله نهاهم عن النجوى؛ لأنهم قد يتناجون بالكلام فيما بينهم بما فيه مضرة على المسلمين، فنهاهم الله عن ذلك، فلم ينتهِ هؤلاء عن ذلك؛ عصياناً لله ولرسوله، واستمروا في تلك الخصلة الذميمة، فأنكر الله عليهم فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ﴾: أي: بما فيه إثم ومعصية مما يخصُّهم، ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: أي: وبما فيه عدوان على المسلمين في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، وهذا يتعلَّق بغيرهم، ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ﴾: أي: معصية الرسول في هذا التناجي؛ لأن النبي ﷺ نَهَى عن ذلك، فمعصية الرسول هنا خاصة بالنجوى، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾: الخطاب للرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ﴿حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: وهذا في المنافقين من اليهود؛ فإنهم إذا جاءوا إلى النبي ﷺ أظهروا أنهم يُسَلِّمون عليه، وهم يقولون: السام عليك، فيحذفون اللام، والسام هو الموت. ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾: أي: أنهم يقولون فيما بينهم: لو كان نبيًّا لعذَّبنا الله على مقولتنا له، فأنزل الله: ﴿حَسۡبُهُمۡ﴾: أي: كافيهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ إذا دخلوها، ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾: أي: مصيرهم، وبئس المقام مقامهم.

(٩) أرشد الله في هذه الآية عباده المؤمنين إلى آداب النجوى؛ فناهم تعالى عن التناجي بالإثم فيما يخصُّهم، والتناجي بالعدوان على غيرهم، والتناجي بمعصية الرسول، وأرشدهم إلى التناجي بالبر والتقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾: أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب معاصيه، فإنه سبحانه الذي إليه مرجعكم ومعادكم، فيجازيكم على أعمالكم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(١٠) بيَّن تعالى في هذه الآية أن النجوى من الشيطان؛ ليَحْزُن بها الذين آمنوا؛ وذلك أنه إذا تناجى اثنان ومعهم ثالث ليس معه أحد، فقد يلقي الشيطان في صدره، ويُخَيِّل له: أنهم يتكلمون فيه، أو في عِرْضه، أو أنهم يَسبُّونه، فيحزنه ذلك. وذلك مراعاة لبقاء الأخوة، والبعد عما يكدرها، وهذا من محاسن الإسلام.

وقوله: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: أي: أن الشيطان قد يُحزِن المؤمن بالنجوى، ولكن ذلك لا يضره إلا بإذن الله أي: بإذن الله الكوني القدري، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾: قدَّم الجار والمجرور لإفادة الحصر، أي: على الله توكَّلُوا لا على غيره. وفيه: أن التوكُّل شرط في صِحَّة الإيمان.

(١١) في هذه الآية الكريمة أدَّب الله عباده المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: وخاطبهم باسم الإيمان؛ ليكون ذلك أدعى للقبول، ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾: أي: توسَّعوا في المجالس، وقرئ: ﴿ٱلۡمَجۡلِسِ﴾ بالإفراد؛ والمراد به: الجنس، والمعنى واحد. وقد قيل: إن هذا خاصٌّ بمجلس النبي ﷺ، وقيل: بمجلس القتال، والصواب: أنه عامٌّ في كل مجلس من مجالس الخير، وهذا فيه: إرشاد من الله ﷻ للمؤمنين إلى ما يكون سببًا في تأليف قلوبهم، واجتماع كلمتهم، وزوال ما في أنفسهم من الحَرَج.

وقوله: ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾: فالجزاء من جنس العمل، فَمَنْ فَسَح؛ فَسَحَ الله له، وهذا فَسْح عام؛ يفسح الله لمن امتثل الأمر في الدنيا وفي قبره، ويفسح الله له في منازله في الجنة.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾: أي: ارتفِعوا وقوموا من مجالسكم لمصلحة؛ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾: أي: فبادروا للقيام لتحصيل المصلحة هذه. ثم قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾؛ وهذا فيه: فَضْل العلماء، والمراد: العلماء العاملون بشرع الله ودينه، أهل الإيمان والبصيرة، ولا علماء الضلال؛ كعلماء اليهود الذين يعلمون ولا يعملون؛ فهؤلاء العلماء العاملون بشرع الله ودينه؛ يرفعهم الله تعالى درجات في الدنيا وفي

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ
صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ
تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ
قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ
وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ
عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ
عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي
ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾

الآخرة، ففي الدنيا: رَفَعَهم الله بالعلم، وأعطاهم من البصيرة التي يعلمون بها حُكْم الله، ويعبدون الله على بصيرة، ويُعَلّمون غيرهم. وفي الآخرة: الرفعة العظيمة، والدرجات العالية في الجنة.

١٢-١٣ سبب نزول هذه الآيات الكريمة: أن المسائل كَثُرَتْ على النبي ﷺ، وكَثُر السائلون والمستفتون والمُسِرُّون إليه؛ فَشَقَّ ذلك على النبي ﷺ، فكرَّم الله تعالى نبيَّه، وخَفَّف عليه؛ بأن أوجب على مَنْ أراد أن يُسارّه أن يتصدق قبل ذلك، حتى تكون الصدقة مُطَهِّرةً له، ومُزَكِّيةً لها، ومُؤَهِّلَةً له؛ للاستفتاء والإسرار والمناجاة، وهذه الصدقة كانت بقدر ما يجد في ذلك الوقت، وهي واجبة على القادر، أما العاجز فمعفو عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾: فمَنْ كان فقيرًا لا يجد ما يتصدَّق به؛ فله أن يُناجي النبي ﷺ بدون صدقة. وهذه الآية قيل: إنها نُسِخَت قَبْلَ أن يُعمل بها، أي: أن النسخ وقع قبل التمكُّن من الفعل، وهذا مثل: نسخ الصلاة من خمسين صلاة في اليوم والليلة إلى خمس صلوات. وقيل: إن هذه الآية لم يعمل بها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والأقرب والله أعلم: أنه عَمِل بها الصحابة فترة، فصاروا بعد ذلك تبدو لأحدهم الحاجة، فيريد أن يسأل النبي ﷺ، وهو لم يَتَصَدّق؛ فيُحجِم حتى يتصدَّق، ويتأخر الثاني والثالث، ثم نسخها الله بقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾: أي: أخِفْتم من تقديم صدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ؟ ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: إذا لم تتصدقوا، وتاب الله عليكم وعفا عنكم، فلكم مُسارَّة النبي ﷺ بدون صدقة، لكن ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾: أي: عليكم أن تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وأن تطيعوا الله ورسوله، فأباح لهم مسارة النبي ﷺ بدون صدقة؛ لكن مع الأدب والاحترام للنبي ﷺ، وعدم إيذائه بالمسائل أو الإلحاح فيها.

١٤-١٩ هذه الآيات الكريمة في بيان أوصاف المنافقين على الصحيح، فيقول تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾ وهم المنافقون، ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾: وهم اليهود؛ غضب الله عليهم؛ بسبب انحرافهم، وتركهم الحق، وعدلوهم عنه بعد معرفته ووضوحه، والمعنى: أن هؤلاء المنافقين يتولون اليهود من دون المؤمنين، ويحبونهم وينصرونهم ويؤيدونهم؛ وموالاة الكفار ومحبتهم لدينهم كفر وردة. ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ﴾: أي: أن المنافقين ليسوا من المؤمنين، ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾: أي: وليسوا من اليهود، بل هم صنف ثالث، فهم لهم باطنٌ، ولهم ظاهر، فظاهرهم مع المؤمنين، وباطنهم مع اليهود، أما اليهود فظاهرهم وباطنهم الكفر، والمؤمنون ظاهرهم وباطنهم الإيمان، فهؤلاء المنافقون ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء.

وقوله: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾: أي: يحلفون على الكذب وهم يعلمون في باطنهم أنهم كاذبون. ثم توعَّدهم الله بالعذاب الشديد بسبب هذه الأعمال السيئة؛ فقال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾: من موالاة اليهود، وحلفهم على الكذب مع علمهم بكذبهم فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾: أي: جعلوا أيمانهم جُنَّة وسترة يتسترون بها؛ لإخفاء كذبهم وكفرهم ونفاقهم، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: بذلك، ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾﴾: لأنهم لما امتهنوا اسم الله العظيم في أيمانهم الكاذبة؛ جازاهم الله بالعذاب المهين، فالجزاء من جنس العمل.

وقوله: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي: لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة، بل سيخلدون في النار. وقوله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾: أي: أنهم يوم القيامة إذا بعثوا؛ فإنهم يبقون على كذبهم وخداعهم، فيحلفون أمام الله ﷻ أنهم صادقون، كما كانوا يحلفون للمؤمنين في الدنيا، ويظنُّون أن هذا الحَلِف سينفعهم. ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: المستغرقون في الكذب، فـ ﴿ٱلۡ﴾ للاستغراق.

وقوله: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: أي: زيَّن لهم ما هم فيه من الباطل، ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾: أي: توحيده وطاعته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾: أي: الذين استغرقوا الخسران، ووصلوا إلى الكفر. وفي هذه الآيات الكريمة: التحذير من صفات المنافقين، فالله تعالى بيَّن لنا أوصافهم لنحذرها.

٢٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: أي: مَن يكونون في حدٍّ وناحية، والله ورسوله في حدٍ وناحية، فهم بعيدون عن الحق، وليسوا معه، بل هم في شِقٍّ، والله ورسوله في شِق، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾: الذين يُذلُّهم الله في الدنيا والآخرة.

٢١ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: أي: قضاءً وقدرًا، وفيه: إثبات صفة الكتابة لله تعالى، وهي من الصفات الفعلية، ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾: أي: أن الغلبة له سبحانه ولأنبيائه ورسله، وإن حصل لهم ما حصل في أول الأمر، إلا أن العاقبة لهم قضاءً وقدرًا، فهذا قضاءٌ مبرم، وهذا القضاء يدلُّ على قوَّته وعزَّته تعالى؛ ولهذا ناسب ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾﴾.

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

٢٢ بيَّن الله في هذه الآية أنه لا يجتمع الإيمان بالله تعالى، ومودَّة مَن حادَّ الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾: وهذا نفي، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾: أي: يُحِبّون محبة دينية، ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي: مَن كان في حدٍّ وناحية، والله ورسوله في حدٍّ وناحية، ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾، وهذا يدل على صفاء المؤمنين، وإخلاصهم لله ﷻ، وأنهم لا يُحِبّون محبة دينية مَن حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا أثابهم على ذلك فقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾: أي: أثبته في قلوبهم، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾: أي: قواهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: عوَّضهم الله بهذه الكرامة؛ لما فاصلوا مَن حادَّ الله ورسوله، وابتعدوا عنهم، ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾: لا يرحلون عنها ولا يظعنون، ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾: فيه: إثبات صفة الرضا لله ﷻ، وهي من الصفات الفعلية، وفيه: الرد على مَن أنكرها من الأشاعرة والمعتزلة، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾: حصر فيهم الحزب، فهم حزب الله، ومَن عداهم حزب الشيطان، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾: حصر الفلاح فيهم، وأكَّد بـ ﴿إِنَّ﴾، و ﴿ٱلْ﴾ للاستغراق؛ فهم أهل الفلاح في الحقيقة، ومَن عداهم هو الخاسر.

سُورَةُ الحَشْرِ

١ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: نزَّه الله تعالى ومجَّده كلُّ ما في السماوات والأرض من المخلوقات على تسبيحه تعالى، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾: في شرعه وقدَره.

٢-٣ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾؛ وهم يهود بني النَّضِير؛ وذلك أن الرسول ﷺ عاهدهم، فنقضوا العهد؛ فحاصَرهم ﷺ في حصونهم عِدَّة أيام، ثم قذف الله في قلوبهم الرُّعب؛ فنزلوا على حُكْمِه ﷺ؛ فحكَم عليهم بالجلاء والخروج من ديارهم، فمنهم مَنْ ذَهب إلى الشام، ومنهم مَنْ ذَهب إلى خيبر، ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾: وهو حشر خاصٌ ببني النضير؛ فإنهم حُشِروا وأُخرجوا من ديارهم. ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْۖ﴾: أي: من ديارهم حين حاصرتموهم؛ لقُوَّتهم، وعَدَدهم، وعُددهم، ومكانتهم، وكانت مُدَّة حصارهم ستة أيام، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: وظَنَّ يهود بني النَّضِير أن حصونهم ستمنعهم؛ لأنها قوية حصينة منيعة؛ كما أنَّ عندهم جميع متطلبات الحياة من طعام ومياه ونحو ذلك. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ﴾؛ فلم يكن في حسبانهم تَرْكُ حصونهم وأموالهم التي تمكَّنوا منها مُدَّة طويلة، لكن جاءهم الله من حيث لم يحتسبوا، فنقضوا العهد فكان سببًا في جلائهم، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾: أي: الرُّعب من رسول الله ﷺ ومن المؤمنين؛ والرُّعب جند من جنود الله؛ ينصر الله تعالى به مَن يشاء مِن عباده، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وذلك أنهم كانوا يَنْقُضون من بيوتهم ما استحسنوه من الأمتعة والأبواب وغيرها مما تحمله الإبل فيأخذونه، وأما ما لا يستطيعون أخذه فيُخَرِّبونه؛ حسدًا منهم لأنه سيؤول إلى المسلمين، فهم الآن يُخَربونها، وفي الأمس كانوا يحرصون عليها! وفي هذا عبرة وعِظَة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾: أي: اعتبروا بمآل الكفَّار ومصيرهم، كيف حَصَل لهم في الدنيا الخزي والذِّلَّة! وانتقلوا من حصونهم التي تمكَّنوا منها في وقتٍ وجيز؛ ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَاۖ﴾: أي: لَحَلَّ عليهم العذاب في الدنيا محلَّ الجلاء، ولكن الله رَفَع عنهم عذاب الدنيا بالجلاء، وعذاب الآخرة ينتظرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾.

٤ ثم بَيَّن الله سبب ما حلَّ ببني النضير فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾: أي: أنهم كانوا في شِقٍ، والله ورسوله في شِقٍ، والمعنى: أنهم عَادَوا الله ورسوله، وحاربوا دينه؛ ولهذا توعَّدهم الله فقال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

٥ لما حاصر المسلمون بني النضير؛ جعل بعض الصحابة يقطع نخيلهم ويُحرِّقها، وبعضهم لا يقطع ولا يُحرِّق، وكلٌّ له وجه؛ فمَن قطع النخيل؛ رأى أن في ذلك إغاظة لليهود، ومَن تركها رأى أنها مال سيؤول للمسلمين، وينتفعون به؛ فلهذا أقرَّهم الله ﷻ، وصوَّب الفريقين شرعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾: أي: نخلة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: بإذن الله الشرعي والقَدَري جميعًا، فالإذن الشرعي: أنه أباح

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

للمسلمين أن يقطعوا ويُحَرِّقوا، وأباح لهم أن يتركوا. والإذن القدري: أنَّه قدَّر ذلك فوقع كما قدَّر. ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾: أي: الخارجين عن طاعة الله، والفسق هنا: فسوقٌ أكبر مُخْرِجٌ من المِلَّة.

(٦-٧) يُبيِّن الله تعالى في هذه الآيات حكم مال الفيء ومصارفه، والفيء هو: ما أُخِذَ من أموال المشركين بدون قتال، ولما كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله؛ وأخذها النبي ﷺ بدون قتال؛ جعلها الله تعالى للنبي ﷺ خاصَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾: أي: ما أعطى الله رسولَه من أموال بني النَّضِير، ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾: الوَجْف: السَّيْر والمشي، والرِّكاب: الإبل. وقد كانت الخيل والإبل هي وسيلة الحرب والقتال في ذلك الوقت، والمعنى: أنكم ما سِرْتم ولا ذهبتم للقتال على خيل ولا إبل، ولا تعبتم في ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ وإنما جاءت غنيمة من الله بدون قتال وتعب؛ وما حصل بدون قتال؛ فإنه يكون للنبي ﷺ خاصَّة؛ وقد كان النبي ﷺ يُنفق منه على أهله نفقة سنة، والباقي يجعله في السلاح والكُراع عُدةً في سبيل الله[1]. وهذا شأن كل البلدان التي تُفتح بدون قتال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي: التي تُفتح من غير قتال، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾: وهو سهمٌ واحد، ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أي: قرابة الرسول ﷺ، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب على الصحيح، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم؛ وهو مَنْ فَقَد أباه قبل الحُلُم، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: الفقراء الذين أسكنتهم الحاجة، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: الغريب المنقطع به الطريق. فهذه مصارف الفيء، بَيَّنها الله ﷻ، ولم يَكِلها إلى أحد: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ﴾: أي: حتى لا يكون المال متداولًا بين الأغنياء يتصرَّفون فيه على حسب آرائهم وشهواتهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، والأمر للوجوب، فيجب على المسلم أن يمتثل الأوامر، ويجتنب النواهي، فما نَهَى عنه الرسول ﷺ وَجَب عليه اجتنابه، وأما الأوامر فإنه يفعل ما استطاع؛ وفي هذا: دليل على وجوب العمل بالسُّنة؛ وأن السُّنة جاء بها القرآن، وأرشد إليها، وأَمَر بالأخذ بها. وفيه: الرد على مَن لا يعمل بالسُّنة. وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾: فيه: وعيد لِمَنْ خَالَف أَمْر الله ورسوله، وأن الله شديد العقاب لِمَنْ تَجَرَّأ على محارمه، وتَرَك أوامره؛ فاتقوه تعالى، واحذروا سخطه وغضبه.

(٨-٩) يبيّن الله تعالى في هذه الآيات طوائف الفقراء المستحقين لمال الفيء؛ وهم ثلاث طوائف؛ وقد ابتدأ الله تعالى بذكر المهاجرين؛ لأنهم أعلى هذه الطوائف فضلًا ومنزلة؛ لأنهم هاجروا من مكة إلى المدينة قبل فتح مكة، مُقدِّمين محبة الله على محبة أولادهم وأهليهم ووطنهم، وصاروا غرباء في بلدٍ ليس لهم فيه مال ولا أهل، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾؛ فلم يهاجروا لأجل الدنيا، وإنما لينصروا الله ﷻ ورسوله ﷺ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾: أي: في أقوالهم وأعمالهم؛ وهم صادقون في هجرتهم إلى الله ورسوله ﷺ. ثم يليهم في الرتبة والمنزلة: الأنصار؛ وهم سُكَّان المدينة من الأوس والخزرج؛ وهم وإن كانوا قد نصروا الله ورسوله، لكنهم لم يتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم، لذا كانوا في المرتبة الثانية؛ ولهذا ثنَّى الله تعالى بذكرهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. ثم وصفهم تعالى بأنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: ومن حُبِّهم للمهاجرين: أنهم كانوا يقاسمونهم أموالهم، ويواسونهم بها، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾: أي: أنهم لا يجدون في أنفسهم حسدًا؛ مما أُعطي إخوانهم المهاجرون، ولا يكون لهم تعلّق به، وأيضًا فإنهم يعرفون أن المهاجرين أفضل منهم رتبة، ومع ذلك لم يكن في صدورهم شيء من الحسد لهم، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾: أي: ويؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كان بهم مجاعة وحاجة إلى ما أنفقوا، وربما قدَّم أحدُهم غيرَه على نفسه، ويبقى هو طاويًا. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾؛ والشُّحُّ: بخل مع حِرصٍ؛ أي: بخل بإمساك الواجب، مع الحرص على جمع المال من حلال أو من حرام؛ وهو داء عظيم؛ فمن وقاه الله شح نفسه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾؛ والفلاح: الحصول على المطلوب، والنجاة من المرهوب.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٥).

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

(١٠) ثم ذكر الله الطائفة الثالثة ممن يستحق مال الفيء فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: أي: الصحابة من المهاجرين والأنصار، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾. وقد استدل العلماء بهذه الآيات على كُفْر الرافضة؛ لأن الله تعالى جَعَل الفيء لثلاثة أصناف من المسلمين: المهاجرين، والأنصار، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، والرافضة ليسوا من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين يستغفرون لهم، وإنما يَسُبُّونهم ويشتمونهم، فَدَلّ ذلك على أنهم ليسوا منهم، وليس لهم من الفيء شيء؛ كما هو مروي عن مالك وغيره من أهل العلم.

(١١-١٦) يُبيِّن الله في هذه الآيات حال المنافقين مع إخوانهم من اليهود؛ وذلك أن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وغيرَه من المنافقين؛ جاؤوا إلى اليهود، وحرَّضوهم على نقض العهد، وجَعَلوا يُمَنُّونهم النصرة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾: أي: لو أخرجكم محمد من المدينة خرجنا معكم، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا﴾: يَعْنُون النبي ﷺ، أي: لن نُسْلِمكم إليه، ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾، فكَذَّبهم الله تعالى فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾؛ فهم أجبن من ذلك، وإنما قالوا هذا الكلام: إما لأن في نيّتهم ألا يَفُوا به، أو لأنه لا يمكن أن يقع منهم هذا أبدًا، ولهذا فإنه لما أُخْرِجَ اليهود لم يخرجوا معهم، ولما حاصر النبي ﷺ اليهود لم ينصروهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾: بل يُسلِّمونهم للمسلمين، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾: أي: قاتلوا معهم على الفرض والتقدير، ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾. وهذه بشارة للمؤمنين بِنَصْرهم على الكفَّار، وأنهم إذا قاتلوهم فَسَيُوَلُّون الأدبار منهزمين.

وقوله: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾: هذا وصف للمنافقين؛ وأنهم يخشون المؤمنين ويخافونهم أشد من خوفهم من الله؛ لخلوّهم من الإيمان، ولو كان لهم إيمان لخافوا الله، ولكنهم يخافون من المؤمنين أن يطَّلعوا على ما في نفوسهم من النفاق فيقتلوهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾: فليس عندهم فقه ولا بصيرة، وما سَلَكوا سبيل النجاة، بل أوردوا أنفسهم موارد الهلاك. ثم بَيّن الله جُبْن اليهود فقال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ﴾: أي: أنهم من هَلَعهم وجُبنهم لا يقابلون المسلمين، ولا يُقاتلونهم وجهًا لوجه، وإنما يُقاتلونهم متحصنين بالحصون، أو من وراء جُدُر، لأنهم لا يؤمنون، ولا يرجون الشهادة. ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾: أي: أن الخلاف والنزاع شديد فيما بينهم؛ فهم متناحرون فيما بينهم، ويكَفِّر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ولكنهم يجتمعون على حرب المسلمين، فعدوُّهم اللدود هو الإسلام، فإذا جاءت حربهم مع الإسلام اتَّحدوا، وإذا ابتعدوا عن حرب المسلمين تناحروا واختلفوا فيما بينهم. ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ﴾؛ وهم يهود بني قَيْنُقَاع؛ الذين أُجْلُوا قبلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾﴾: أي: ذاقوا عاقبة أمرهم ولهم عذابٌ مُوجِع؛ وهو عذاب النار.

ثم ضرب الله مثلًا لحال المنافقين مع إخوانهم اليهود في تحريضهم على نقض العهد، ووعدهم لهم بالنصرة، فلما نقضوه تركوهم دون نصرة، وأنَّ مثلهم هذا كمثل الشيطان الذي يأمر الإنسان بالكُفْر، ويَعِده ويُمَنِّيه، فإذا كَفَر تَبَرَّأ منه، وقال له: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾: وهو لا يخاف خوفًا ينفعه، فلو كان يخاف الله لآمن.

(١٧) ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: أي: مَن يأمر بالكفر، ومَن يفعل الكفر، ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾: أي: كلاهما في النار، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾: الذين تَعَدَّوا الحدود، ووضعوا الأشياء في غير موضعها، وأعظم الظلم: وَضْع العبادة في غير موضعها؛ بأن يُعبد غير الله تعالى.

(١٨) يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين واعظًا لهم فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: اجعلوا بينكم وبين غَضَب الله وَسَخَطه وقاية تقيكم؛ وذلك بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وبالعمل الصالح، والتوبة النصوح. ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾: أي: ما قدَّمته من العمل الصالح الذي ينجيها من عذاب الله يوم القيامة. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾: كَرَّر

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩
لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ
عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ
وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١
هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ
ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ
ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤

الأمر بالتقوى لأهميتها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾: أي: أنَّه تعالى خبيرٌ بأعمالكم ونياتكم، وسيجازيكم على ذلك.

١٩ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: نسوا ذِكْر الله؛ وذِكْر الله يشمل فعل الأوامر، واجتناب النواهي، فمَنْ لم يفعل الأوامر، ولم يجتنب النواهي؛ فقد نسي ذِكْر الله، ومَن نَسي ذِكْر الله عاقبه وجازاه من جنس عَمله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ بأن ينسيهم العمل لِمَا يُصلحهم في دنياهم وآخرتهم؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الذين نسوا الله، ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾: أي: الذين خرجوا عن طاعة الله. وهذا تحذيرٌ من الله تعالى لنا أن نكون من هؤلاء؛ فيصيبنا ما أصابهم.

٢٠ ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: الذين يَتقلَّبون في الجحيم والعذاب والنكال أَبَد الآباد؛ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾: الْمُنَعَّمون الْمُكرَّمون، هل يستوي هؤلاء وهؤلاء؟ الجواب: لا يستوون، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾: الذين فازوا برضوان الله تعالى، وفازوا بدار كرامته، وسَلِموا من العذاب والخُسران، وهذا هو الفوز الحقيقي.

٢٠-٢١ ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ وفهمه كما يَفْهم الآدمي؛ ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾: أي: لخَشَع وتَصدَّع من خشية الله ﷻ، مع أنه جبلٌ قاسٍ صلب، فكيف لا تتأثر به القلوب التي هي مُضَغُ لحم وليست حجارة؟! ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾: أي: هذه أمثال يضربها الله؛ للتفكُّر والاعتبار. وفي الآية: الحث على تدبُّر القرآن، والتأثُّر بمواعظه وزواجره.

٢٢ يقول تعالى مُبيِّنًا عظمته جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾: أي: المألوه المعبود الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا، وتخضع له، وتذل له، و ﴿ٱللَّهُ﴾: عَلَمٌ على المعبود بحق؛ لأن غيره معبود بالباطل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾: أي: لا معبود بحق إلا هو، ولا يستحق العبادة غيره، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾: أي: يعلم ما يغيب عن الناس، وما يكون مُشاهَدًا وحاضرًا، فالغيب والشهادة عنده سواء. ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾: اسمان من أسماء الله تعالى، يشتملان على صفة «الرحمة». لكن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أبلغ من ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: ذو الرحمة الشاملة الواسعة العظيمة، التي وسعت وعمَّت الخلق أجمعين. وأما ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: فهو خاص بالمؤمنين؛ حيث هداهم ووفَّقهم للإيمان.

٢٣-٢٤ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ﴾: أي: الذي له الملك التام في الدنيا والآخرة، المتصرف في خلقه بما يشاء، ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾: أي: الطاهر المتبارك المنزَّه عن كل نقص وعيب. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: أي: السالمُ في نفسه من كل نقص وعيب، المسلِّمُ عبادَه من الآفات، والذي سَلِمَ المؤمنون حقا من عقوبته. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾: أي: الذي صدَّق نفسه، وصدَّق أولياءه في إيمانهم به، وصدَّق رسله بالآيات الدالة على صدقهم. وقيل: المؤمن الذي أَمِنَ المؤمنون حقا من عقوبته، وأَمِنَ خَلْقُه من أن يظلمهم، ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾: أي: الرقيب على كل شيء الحافظ له، والهيمنة: القيام على الشيء، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾: أي: العالي على خلقه، والذي قَهَر الجبابرة، والذي يَجْبُرُ المستضعفين والمنكسرين. ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾: أي: المتعاظم عن كل سوء، والمنفرد عن مخلوقاته فلا يماثله أحد من خلقه، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾: نزَّه الله نفسه عن كل ما وصفه به مَن أشرك به وعانده. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾: أي: المنشئ والمخترع والْمُقدِّر، والخلق يطلق على الاختراع والإنشاء من العدم؛ وهذا خاص بالله تعالى، لا يَقْدِرُ عليه غيره، ويطلق على التقدير والتصوير، وهذا مشترَك؛ ومنه قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]: أي: تُصَوِّر وتُقَدِّر. ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾: أي: الذي يَفْرِي ويُنَفِّذ ويُبْرِزُ ما خلقه إلى الوجود، فالله ﷻ يُقَدِّر ثم يُنَفِّذ، وليس كل مَنْ قَدَّر شيئًا نَفَّذَه. ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾: أي: الذي صَوّر المخلوقات كلها وطَبَعها في أيِّ صورة شاء سبحانه، ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: أي: بالغة الكمال في الحُسن، وكل أسماء الله حسنى. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: إما تسخيرًا، وإما اختيارًا، فالمؤمنون يُسبِّحون اختيارًا، والكفار يسبحون تسخيرًا، وكذا الحيوانات والجمادات، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: القوي الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾: في خلقه وقضائه وقَدَرِه وشرعه وأمره ونهيه.

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

«سورة الممتحَنة» -بفتح الحاء- مشهورة بهذه التسمية، وقد تُكسَر، وعلى الأول -بالفتح الممتحَنة-: فهي صفة المرأة التي نزلت السورة بسببها، وعلى الثاني -بالكسر الممتحِنة-: صفة للسورة.

١-٣ أنزل تعالى صدر هذه السورة في شأن حَاطِب بن أبي بَلْتَعة ﷺ؛ وهو أحد المهاجرين من أهل غزوة بدر؛ وذلك: أن النبي ﷺ عَزَم على فتح مكة؛ لَـمَّا نقضُوا العهد؛ وتَجهَّز لِغَزْوِهم، وسأل ربَّه ﷺ أن يُعمِّي خَبَرَهم على المشركين حتى يبغتوهم؛ فكتب حَاطِبٌ كتابًا إلى أناسٍ من قريش؛ يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، وأعطى الكتاب امرأة من المشركين، فجاء الوحي من السماء إلى النبي ﷺ بأن حاطبًا كتب كتابًا، فبعث النبي ﷺ مَن أحضر الكتاب من المرأة، فأتي به النبي ﷺ، وأَنْكَر على حَاطِبٍ، فاعتذر حاطبٌ وقال: يا رسول الله، لا تَعْجَل عَلَيَّ، إني كنت امرأً مُلصَقًا في قريش -أي: حَلِيفًا- ولم أكن من أَنْفُسِها، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم؛ أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فصدَّقه النبي ﷺ. فأنزل الله هذه السورة[1]، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: وهذا يدل على عدم كفر حاطب؛ لأن الله تعالى خاطبه باسم الإيمان في أول السورة وفي آخرها؛ فدلَّ على أنه لم يكفر، ولم يرتد؛ ولكنه فَعَلَ هذه المعصية مُتأوِّلًا. وفيه: الرد على مَن زَعَم رِدَّته. ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: أصدقاء وأخِلَّاء تعاشرونهم وتفضون إليهم بالأسرار، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾. وإذا كان حالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق؛ فكيف تتخذونهم أولياء وأصدقاء؟! وكيف تُلقون إليهم بالمودة؟! ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: أي: أنهم أخرجوا الرسول ﷺ، وأخرجوكم من دياركم؛ ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾: أي: أن سبب إخراجهم لكم من دياركم أنكم آمنتم، كما قال تعالى في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البُرُوج: ٨]. وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾: أي: إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي، وابتغاء مرضاتي، فلا تتخذوهم أولياء وأصدقاء، ولا تُلقوا إليهم بالمودة. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾: وإذا كان تعالى يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم؛ فكيف تُسِرُّون إليهم بالمودة؟! ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾: أي: أن مَنْ أفضى إلى الكفار وأَسَرَّ إليهم بالمودة فقد ضَلَّ عن الصراط المستقيم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾: أي: لو قدروا عليكم وغلبوكم؛ ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾: فيعاملونكم معاملة العدو، ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: بالقتل والأذى، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾: كالسب والشتم، فهم لا يألون جهدًا في إيصال الشر إليكم قولًا وفعلًا، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾: أي: تمنوا أن تكونوا كُفَّارًا مثلهم، ولو كفرتم فاتكم كل خير. فكيف تتخذونهم أولياء، وتُسِرُّون إليهم بالمودة؛ بعد هذا كلِّه! وهذا تهييج من الله تعالى بعداوتهم. ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾: أي: أنَّ أرحامكم وأولادكم وأقاربكم لن ينفعوكم يوم القيامة إن أراد الله بكم سوءًا، وإن أرضيتموهم بسَخَط الله فلن ينفعوكم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾: وعيد لمن والى الكافرين من الأرحام والأولاد والأقربين، ووعدٌ لمن والى الله ورسوله والمؤمنين.

٤ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أي: قُدوة حسنة ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: فالقدوة الحسنة هو إبراهيم، والذين آمنوا معه واتبعوا طريقته، تتأسون وتقتدون بهم ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: إننا مبتعدون وتاركون ومُنكرون لِمَا أنتم عليه من الشرك، ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أي: أنكرنا وجحدنا عبادتكم وشِرْكَكم، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾: أي: أظهرنا العداوة والبغضاء لكم، وهذا هو الكفر بالطاغوت، والبراءة من الشرك وأهله، وهذا هو الجزء الأول من كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)؛ ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾: أي: إلى أن تؤمنوا بالله وحده، فإذا آمنتم كنتم إخواننا. وهذا هو الجزء الثاني من كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)؛ فـ(لا إله): براء، و(إلا الله): ولاء. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: أي: اقتدوا بإبراهيم وتأسوا به إلا في خصلة واحدة فلا تتأسوا به؛ وهي دعاؤه واستغفاره لأبيه، فإن إبراهيم دعا لأبيه واستغفر له وهو مُشرك؛ وذلك لأنه وعَده بذلك، فأوفى بوعده، ثم لَمّا تبيّن له أنه عدو لله تبَرَّأ منه بعد ذلك؛ كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التَّوبَة: ١١٤]. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾: أي: اعتمدنا وفوّضنا أمورنا إليك، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾: أي: رجعنا إليك، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ أي: المرجع والمآل، فأنت الذي تُحاسب الخلائق يوم القيامة.

٥ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: سألوا الله ألا يفتنهم الكفار ويعذبوهم فيفتنوهم عن دينهم، وألا يجعلهم فتنة للذين كفروا؛ بأن يَظهَروا ويتسلطوا عليهم؛ فيفتنوا بذلك ويظنوا أنهم على الحق، فيقولوا: لولا أنهم على الباطل لَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤).

لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١

انتصرنا عليهم. ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾: سألوا ربَّهم تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم، ويقيهم شرَّها في الدنيا والآخرة؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾: في شَرْعك وقَدَرك وأَمْرك ونَهْيك.

٦ كرَّر الله في هذه الآية الحثَّ على الاقتداء بإبراهيم ومَن معه تأكيدًا لذلك؛ فقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾: أي: إنّما يتأسى بهم مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: أي: يُعرض عما أمر الله به، ومن ذلك: الإعراض عن التأسي برسله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾: أي: بذاته وصفاته؛ الذي له الغنى المطلق، ﴿ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾: أي: المحمود الذي حَمِدَ نفسه، ويحمَدُه عبادُه على ما له من صفات الكمال، وعلى إنعامه وإحسانه عليهم.

٧ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾: أي: بإسلامهم وتوبتهم؛ فالمراد بالمودة هنا: المودة الدينية؛ والمعنى: أنهم إذا تابوا وأسلموا جعل الله بينكم وبينهم مودة، فزالت العداوة، وحلَّ محلَّها المحبة. وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وغيرهم. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ﴾: أي: على كل شيء، ومن ذلك: تأليفه القلوب بعد العداوة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾: أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه، ويغفر لكل مَن تاب إليه من أي ذنب كان، ﴿رَّحِيمٞ ٧﴾: أي: رحيم بهم؛ إذْ لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم، ومنَّ عليهم بالتوبة.

٨ بيَّن تعالى في هذه الآية: أنه لا ينهى عن الإحسان إلى الكُفَّار غير المحاربين، والبِرِّ بهم، والعدل معهم، وصلتهم بالنفقة والهدية، ما داموا غير محاربين، ولعلَّ هذا يكون سببًا في هداية القريب غير المسلم.

٩ نهى سبحانه في هذه الآية عن تولِّي الكفار الذين قاتلوا المسلمين، وظاهروا على إخراجهم، وأخرجوهم من ديارهم، فهؤلاء هم الذين يأمر الله بمقاطعتهم، وينهى عن البر والإحسان إليهم؛ لأنهم محاربون؛ دماؤهم وأموالهم حلال، وليس لهم إلا السيف. وبرُّهم والإحسان إليهم من التولي؛ وهو ظلم وعدوان؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾.

١٠ سبب نزول هذه الآيات: أن النبي ﷺ لما صالح قريشًا يوم الحديبية، اشترط الكفار على المسلمين شروطًا، ومن ذلك: أن مَن أتى من قريش إلى المسلمين فإنه يرد إليهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية مخصصة لمن هاجر من النساء من هذه الشروط، وأن مَن جاء من النساء المؤمنات فإنها لا ترد إلى الكفار؛ وذلك بعد امتحانهن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾؛ وذلك بالتحقُّق من أن سبب مجيئها هو الإيمان بالله ورسوله، لا لمقصدٍ آخر من مقاصد الدنيا، كأن تقصد فراق زوجها، أو نحو ذلك. ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ﴾: أي: بعد الامتحان، ومفهومه: وإن لم تعلموهن مؤمنات فأرجعوهن إلى الكفار. وذكر الله سبحانه (العلم)؛ للدلالة على التحقق في ذلك، ولا يكفي الشك فيه؛ لأنها قد تأتي للتجسس أو فرارًا من زوجها أو لغير ذلك. ﴿ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾: أي: لا المسلمات حلٌّ للمشركين، ولا المشركون يَحِلُّون للمسلمات، وهذا فيه: تحريم تزوُّج المؤمنة من الكافر. ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾: أي: أنَّه يُدفع إلى زوج مَن هاجرت من الكفار وهي مؤمنة: ما دفع لها من صداق، ولا تُرد إليه بعد الامتحان والتحقق من إيمانها. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾: أي: لا جناح عليكم أيها المؤمنون في نكاح مَن هاجرن من النساء المؤمنات؛ بعد أن تنقضي عدتهن، وبشروط النكاح من الصداق، والولي، وغير ذلك. ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾: العِصَم: جمع عصمة، والكوافر: جمع كافرة. وهذا أمر لأصحاب النبي ﷺ وللمؤمنين أن يفارقوا النساء الكافرات بمكة، وأن يخلوا سبيلهن، ولهذا طلَّق عمرُ امرأتين له مشركتين بمكة. وفيه: تحريم تزوُّج المسلم من الكافرة الوثنية. ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾: أي: مَن ذهبت من النساء إلى المشركين، فاسألوهم أيها المؤمنون ما أنفقتم عليهن من الصَّدَاق، والأقرب: أنه لم يقع ذلك؛ وأنه لم تذهب مسلمة إلى الكفار، ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾: أي: إذا جاءت امرأةٌ إلى المسلمين؛ فللمشركين أن يسألوا صداقهن، وهذا من العهد الذي بينهم. ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾: الإشارة إلى ما تقدَّم من الأحكام التي تتعلق بموالاة الكفار، وبصلح الحديبية، وما شرع بعد ذلك من الأحكام؛ وأنَّ ذلك حكم الله الذي يحكم به بين عباده بشرعه ودينه؛ لأنه عليمٌ بأحوال عباده وبما يصلحهم في الدنيا والآخرة، حكيم فيما يشرعه ويقدره.

١١ هذه الآية في معناها قولان: الأول: أنه إذا فرَّت امرأة من المسلمين إلى الكفَّار، ولم يدفعوا لزوجها شيئًا من صداقها؛ ففي المقابل إذا جاءت امرأة من المشركين فلا يُدفع لزوجها شيءٌ؛ حتى يدفعوا صداق مَن ذهبت إليهم. والثاني: أنه إذا فرَّت امرأةُ أحدٍ من المسلمين إلى الكفَّار، وفاتت عليه؛ فإنه يعطى مثل ما أنفق عليها من الغنيمة التي يأخذونها من الكفَّار. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه إن حصل الأول؛ وإلا فيُعطى من الغنيمة. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾: أمرٌ بتقوى الله والخوف منه؛ فإنَّ الإيمان يدعو إلى تقوى الله والخوف منه، والحذر من سخطه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

١٢ في هذه الآية أمر الله نبيَّه ﷺ بمبايعة النساء على ستة بنود؛ وهي: عدم الشرك بالله شيئًا، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل أولادهن، وألّا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن أي: بإدخالهنَّ على أزواجهنَّ أولادًا ليسوا منهم، وعدم عصيان النبي ﷺ في المعروف، وتقييد طاعة النبي ﷺ بالمعروف؛ للتأكيد ولبيان الواقع؛ وإلا فهو ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف. وإذا قُيِّدت طاعة النبي ﷺ بالمعروف؛ فكيف بغيره؟! لا شك أنه من باب أولى، فطاعة ولاة الأمور، وطاعة المرأة لزوجها، وطاعة العبد لسيده، وطاعة الولد لوالده، لابد أن تكون طاعتهم بالمعروف، فإذا أمروا بالمعصية فلا يطاعون. وكان النبي ﷺ يبايع الرجال باليد مصافحة، وأما النساء فكان يبايعهن بالكلام، ولم تمس يدُه يدَ امرأة قط. كما قالت عائشة: والله ما مسَّت يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»[1].

١٣ ختم الله تعالى هذه السورة بما بُدئت به؛ وهو النهي عن تولِّي الكفَّار؛ فقال تعالى مخاطبًا عبادَه المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: لا توالوهم ولا تحبوهم ولا تنصروهم، والموالاة نوعان: موالاة عن محبة ونُصرة لدينهم؛ وهذه ردَّة عن الإسلام، وموالاة بمعنى: المعاشرة والمصادقة دون المحبة والنصرة لدينهم، وهذه كبيرة من كبائر الذنوب. وقوله: ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: سواءً كانوا من الوثنيين أو من أهل الكتاب، فكلهم غضب الله عليهم؛ لأنهم أشركوا به سبحانه. وقوله: ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: قد يئسوا من ثواب الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بها، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾: أي: كما يئس الكفَّار الأحياء من أن يجتمعوا بقراباتهم الذين في القبور؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ويرون أن مَن مات لا يُبعث، فيئسوا من الاجتماع بهم. وقيل: إنَّ ﴿مِنۡ﴾ بيانية، والمعنى: أن الكفَّار الذين في القبور يئسوا من ثواب الآخرة؛ لأنهم لما عاينوا الآخرة فعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم.

(١) أخرجه البخاري (٢٧١١).

سُورَةُ الصَّفِّ

١ هذه السورة المباركة افتتحها الله بتمجيد نفسه فقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ فكل ما في السماوات والأرض من مخلوقات تُسبِّح الله وتُنزِّهه، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١﴾: في شرعه وقَدَره.

٢-٣ وجَّه الله تعالى في هذه الآيات الخِطاب للمؤمنين؛ منكرًا على مَن يخالف قولُه فِعْلَه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾: وهذا استفهام إنكاري، والمعنى: كيف تقولون قولًا ولا تفعلونه. وسبب نزول هذه الآيات -على الصحيح-: أن جماعة من الصحابة تمنَّوا فرضية الجهاد؛ فلما فَرَضَه الله؛ كَرِهَ ذلك ناسٌ منهم، وشقَّ عليهم أمره، فأنزل الله تعالى هذه الآيات إنكارًا عليهم؛ وتوبيخًا لهم، ولهذا شدَّد الله في الإنكار على ذلك فقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿كَبُرَ﴾: أي: عَظُم، والمقت: أشد البغض، والمعنى: كَبُرَ وعَظُم مَقْتُ الله وبغضه، ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾: فالله تعالى يمقت أشد المقت؛ أن يقول الإنسان قولًا ولا يفعله.

٤ يُبيِّن تعالى في هذه الآية: أنَّه يحب المتراصين في الصفوف في القتال في سبيل الله ﷻ؛ بأن تكون الصفوف متراصة منتظمة ليس بينها خلل، ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾: أي: مُلصق بعضه ببعض؛ فهو مُثبَّت لا يزول.

٥ ذكر الله تعالى في هذه الآية: ما جرى لنبيِّه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، وأنه نهى قومه عن أذيته؛ وقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾: أي: علم يقين، ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾: فكيف تؤذونني وأنا رسول الله إليكم؛ وكان الواجب عليهم أن يعاملوه معاملة حسنة؛ لأن الله تعالى أرسله لهدايتهم، ولينقذهم به من النار؟! ولكنهم زاغوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾: أي: فلما عدلوا عن الحق، وتركوه مع علمهم به؛ عوقبوا بزيغ القلب، والعقوبة والجزاء من جنس العمل. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾: أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى. وفي هذه الآية: تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلك بني إسرائيل في أذيتها لنبيها، وأن تعدل عن الحق؛ فيُزيغها الله، فمن عدل عن الحق بعد علمه به أزاغ الله قلبه -والعياذ بالله-.

٦ يخبر الله تعالى في هذه الآية: أنَّ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال لبني إسرائيل: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾: أي: لما أمامي، ﴿مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾: التي سبقت، فهو يُصدِّق ما في التوراة، ويؤمن بما في التوراة وبموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ وهو نبينا محمد ﷺ، ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾: أحمد من أسمائه ﷺ؛ وله ﷺ أسماء كثيرة؛ وكثرة أسماء الشيء تدل على عظيم قدره ومنزلته. ﴿فَلَمَّا

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿جَآءَهُم﴾: أي: أحمد المبشَّر به؛ وقيل: عيسى؛ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: الواضحات والحجج والبراهين والمعجزات، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾: أي: بيِّنٌ واضح؛ فكفروا به.

٧ يُبيِّن الله تعالى في هذه الآية: أنَّ أظلم الناس مَن يفتري على الله الكذب؛ وهو مَن يجعل لله أندادًا وشركاء؛ لأنه حين أشرك بالله ادَّعى أن هذه الآلهة تستحق العبادة، وهذا أعظم الافتراء والكذب على الله. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: أي: أنه يُدعى للإسلام والتوحيد، وهو يفتري على الله الكذب، فيجعل هذه الأنداد شريكًا مع الله، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾: أي: الذين أشركوا بالله، واستمروا على عنادهم وكفرهم؛ فالظلم هنا: الظلم الأكبر؛ وهو ظلم الشرك.

٨ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: أي: يريد الكفَّار طمس نور الإسلام، والقضاء عليه بأقوالهم؛ ولكنهم لا يستطيعون ذلك؛ لأن دين الإسلام ثابت ثبوت الجبال الرواسي، لا يتأثر بأقوال الكفار وكلامهم، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾: هذا وعد من الله بأن يتم نوره، وفيه: بشارة من الله تعالى ببقاء الإسلام، وبقاء الحق، وأن الدِّين لن يزال قائمًا.

٩ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: أي: محمدًا ﷺ؛ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: أي: بالعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: العمل الصالح؛ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: أي: على جميع الأديان، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾: فالمشركون كارهون، ولكن دين الله منصور، ودين الله ظاهر مع كراهتهم. وهذه بشارة عظيمة بانتشار دين الإسلام، وظهوره على جميع الأديان.

١٠-١٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾: الاستفهام للتشويق؛ فهو سبحانه يُشوِّقهم إلى التجارة الرابحة التي تنجيهم من عذاب الله ﷻ، ويفوزون فيها بالثواب والجزاء العظيم. ثم بيَّن تعالى أن هذه التجارة تتضمن أمرين: أولهما: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: والإيمان بالله ورسوله إذا أطلق شمل جميع أركان الإيمان الستة؛ فمن لم يؤمن بهذه الأركان؛ فلا يصحُّ إيمانه بالله ورسوله. ثم ذكر تعالى الأمر الثاني فقال: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: الجهاد في قتال الكفار، وهو أعلى أنواع الجهاد؛ ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: والجهاد بالنفس أعلى من الجهاد بالمال؛ لأن أغلى ما يملك الإنسان نفسه التي بين جنبيه، فهو يبذلها لله تعالى؛ لكن قدَّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس؛ لأنَّ الجهاد بالمال أوسع من الجهاد بالنفس؛ فالجهاد بالمال يساعد في شراء الأسلحة والعتاد، والإنفاق على المجاهدين وعلى أسرهم؛ وربما احتاج المجاهدون للمال أكثر من حاجتهم إلى العَدَد. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: أي: هذه التجارة الرابحة المتضمنة للإيمان بالله ورسوله، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾. ثم بيَّن تعالى جزاء هذه التجارة وثوابها فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وإذا غفر الله الذنوب للعبد سَلِمَ من شرِّها في الدنيا والآخرة؛ لأن الذنوب والمعاصي سبب للشرور والابتلاءات والمصائب في الدنيا والآخرة. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾: أي: التي هي دار الخلد، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ وهي أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل. ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: وصف هذه المساكن بأنها طيبة، فما ظنُّكم بمسكن وصفه الرب العظيم بأنه طيب، لا شك أن فيه نهاية الطيب، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾: وصف الله هذا الجزاء بأنه فوز عظيم، وهذا هو الفوز الحقيقي؛ يوم لقاء الله تعالى، ودخول الجنات، والسلامة من النار، ولا الفوز بأمور من متاع الدنيا وشهواتها الفانية. ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾: وهم يحبون جميع الثواب والجزاء، لكن هذا الثواب والجزاء مُعجَّل لهم في الدنيا وهو: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ بأن ينصرَهم الله، ويُعِزَّهم، ويرفعَ عنهم الذلَّ، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فيفتحون البلدان، وينتشر الإسلام في أرض الله.

١٤ وجَّه الله تعالى في هذه الآية الخطاب للمؤمنين؛ يأمرهم فيها بأن يكونوا أنصارًا له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصارًا لدينه، فمن نصر دين الله؛ فقد نصر الله تعالى، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: وهم أصحاب عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، المخلصون له، الذين آمنوا به. ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: من يقوم معي في نصرة دين الله، ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: فهؤلاء الحواريون استجابوا لله ولرسوله، ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: وهم الحواريون، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾: وهذه الطائفة قسمان: قسم جفوا في حقِّه، وقصروا فيه؛ حتى أنكروا رسالته ونبوته، ورموه وأمَّه بالعظائم. وقسم غلوا فيه حتى رفعوه إلى مقام الألوهية؛ وهؤلاء انقسموا إلى أقسام؛ فمنهم من غَلا في عيسى وقال: إنه الله، ومنهم مَن قال: إنه ابن الله، ومنهم مَن قال: إنه ثالث ثلاثة؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾: هذه عادة الله تعالى في تأييد المؤمنين ونصرهم؛ وهو وعد من الله تعالى بظهور أهل الحقِّ ونصرهم.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

(١) افتتح الله هذه السورة العظيمة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: وهذا خبر من الله سبحانه بأن كل ما في السماوات وما في الأرض يُسبِّحون له تعالى، أي: يُنزِّهونه سبحانه، وفي علمه تعالى بتسبيح المخلوقات عامَّة مع كثرتها واختلافها وتنوُّعِها دليلٌ على عظمة الله جَلَّ وَعَلَا؛ ولهذا ختم تعالى هذه الآية ببعض أسمائه فقال: ﴿الْمَلِكِ﴾: أي: مالك السماوات والأرض، والمتصرف فيهما بحكمه القَدَري، ﴿الْقُدُّوسِ﴾: أي: الطاهر المتبارك المعظَّم المنزَّه عن كل نقص وعيب، ﴿الْعَزِيزِ﴾: الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿الْحَكِيمِ ①﴾: في خلقه وشرعه وقَدَرِه وأمره ونهيه.

(٢) ذكر الله في هذه الآية مِنَّته ببعثة نبينا محمد ﷺ؛ فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، والأُمِّيُّون: هم العرب؛ خصَّهم الله بالذِّكر؛ لأن المنَّة عليهم أكبر، ولبيان فضلهم ومنزلتهم؛ فإنهم أول الناس إيمانًا به، وهم الذين نصروه، وقام الإسلام على أكتافهم. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: أي: آيات الله تعالى المُنزَّلة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: يُطهِّر نفوسهم من أدران الشرك والبدع والمعاصي والخرافات، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: الكتاب هو القرآن، والحكمة هي السُّنَّة، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾: أي: في الجاهلية قبل بعثته، ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ②﴾: أي: في بُعدٍ عن الحق، وضلالٍ بيِّنٍ لكل أحد، فمنَّ الله تعالى عليهم ببعثته ﷺ، وهداهم الله به.

(٣) ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾: أي: من غير العرب كأهل فارس؛ ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: أي: لم يلحقوا بهم بعد، والمعنى: ممن سيلحق بهم؛ وفي هذا دليل على أنَّ الرسالة عامة لجميع الناس. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي له العِزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، ﴿الْحَكِيمُ ③﴾: أي: فيما يفعله ويُقدِّره.

(٤) بيَّن تعالى في هذه الآية: أن بِعْثَة هذا النبي الكريم في بلاد العرب لما كانت في هذا الظلام الدامس؛ كان ذلك من فضله سبحانه على هذه الأمَّة، ونعمة الله تعالى عليهم ببعثة رسوله؛ أفضل من نعمته عليهم بصحة الأبدان، وسعة الأرزاق؛ فعلى المؤمنين أن يشكروا الله على هذه النعمة، وأن يحافظوا على دينهم، وأن يستقيموا على طاعة الله.

(٥) ذكر في هذه الآية اليهود الذين حمَّلهم التوراة؛ بأن يتعلموها، ويعملوا بما فيها من أحكامٍ، لكنهم لم يتعلموها، ولم يمتثلوا ما فيها، وإنما قرؤوا ألفاظها، وحرَّفوا وأوَّلوا معانيها، وقد بيَّن تعالى أن مَثَلَهم في ذلك: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾: أي: يحمل الكتب على ظهره، وهو لا يفقه شيئًا منها، فهؤلاء اليهود حُمِّلوا التوراة، وحفظوها لفظًا؛ لكنهم لم يتفهموا معانيها، ولم يعملوا بأحكامها، فهم كالحمار، بل هم أسوأُ حالًا من الحمار؛ لأن الحمار لا فَهْم له، وهؤلاء لهم فُهوم، ولهذا ذمَّهم سبحانه فقال: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥﴾.

(٦-٨) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾: أمر تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لليهود: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾: أي: إن كنتم على الحق والهدى، وأنكم أولياء الله، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥﴾: أي: إن كنتم صادقين في ذلك فادعوا على أنفسكم بالموت، حتى تصلوا إلى ما تحبون من الجنة والكرامة، ولو تمنوا الموت لماتوا عن آخرهم، وما بقي يهودي، ولكنهم يعلمون أنهم كَذَبة، وأنهم على ضلال وباطل، وكفر وعصيان؛ ولهذا امتنعوا ورفضوا، وتبيَّن بذلك كذبهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: الباء سببية أي: لا يمكن أن يتمنوه بسبب ما قدَّمت أيديهم من الكفر والمعاصي، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ⑦﴾: أي: عليم بظلمهم، وظلمهم ظلم كفر؛ وهو أعظم أنواع الظلم. ثم بيَّن تعالى أن فرارهم من الموت لا ينجيهم منه فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾: فالموت لا بد منه، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾: أي: بعد الموت، ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: أي: الذي يعلم ما يغيب عن الناس، وما يكون مُشاهَدًا وحاضرًا، فالغيب والشهادة عنده سواء، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧﴾: أي: يخبركم بأعمالكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليها.

(٩-١٠) يُوجِّه الله تعالى الخطاب في هذه الآية لعباده المؤمنين فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾: المراد بالنداء هنا: النداء الذي ينادي به المؤذِّن عند صعود الخطيب المنبر يوم الجمعة، ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: المراد بالسعي هنا: المضي؛ أي: امضوا، والأمر للوجوب، وهو يدل على فرضية الجمعة،

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤

وأنه يجب السعي لها، وأنَّه يأثم مَن لم يَسْعَ لها. ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾: أي: اتركوا البيع، وهذا نهي، والأصل في النهي: التحريم، وهذا يدل على تحريم البيع بعد أذان المؤذن يوم الجمعة حين دخول الخطيب، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: أي: سعيكم إلى الجمعة ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾: أي: خير لكم في الدنيا والآخرة من البيع والشراء الذي يلهيكم عن الصلاة وعن ذكر الله. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾: أي: صلاة الجمعة، ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾: ويدخل في الابتغاء من فضل الله: التكسُّب بالبيع والشراء والتجارة، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾: أي: لكي تفلحوا، فالإكثار من ذكر الله سببٌ في الفلاح، والفلاح: هو الحصول على المطلوب، والنجاة من المرهوب.

(١١) سبب نزول هذه الآية: أنَّ النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فجاءت عيرٌ فانفضَّ الناس إليها، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، وكان خروجهم وانفضاضهم إلى العير التي جاءت بسبب شدة حاجتهم إلى الطعام؛ لما أصابهم من شدةٍ، وهذا كان في أول الإسلام، قيل: لم يأت بعدُ ما يدل على أنه يجب عليهم البقاء، وقيل: إنَّ هذا كان قبل أن تكون الخطبة قبل الصلاة؛ فلهذا خرجوا، فعاتبهم الله وأنزل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾: وفي الآية: دليل على أنَّ الإمام يخطب قائمًا. ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: من ثواب وعطاء؛ ﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾: الذي يشغلكم عن ذكر الله، ﴿وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾: أي: وخير من التجارة التي تبتغون من ورائها الكسب المادي، والمنافع العاجلة، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾؛ لأنه سبحانه وحده الذي يُقسِّم الأرزاق، والرزق رزقان: رزق القلوب، ورزق الأبـدان، وهو الذي يعطي ويمنع، فهو موجِد الأرزاق ومعطيها كما وكيفا بلا عوض، بل بفضل وإحسان.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾: أي: يقولون ذلك بألسنتهم، أما قلوبهم فمكذِّبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾: أي: بقلوبهم، فقلوبهم مُكذِّبة، وألسنتهم تتكلم بما ليس في القلوب. وأتى بالجملة المعترضة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ لبيان أن نبي الله تعالى هو رسول الله حقًّا، ولكن هؤلاء المنافقون كَذَبة في دعواهم الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾: أي: اتخذوا أيمانهم الكاذبة وقاية يتَّقون بها العقوبات التي تصيبهم في الدنيا، فكلما فعلوا شيئاً حلفوا أيماناً كاذبة أنهم ما فعلوا؛ ليسلموا من العقاب. ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾: أي: بأعمالهم الخبيثة؛ لأنهم لـمَّا ادَّعوا الإسلام صاروا محسوبين عليه، وقد يظن الناس أنهم من المسلمين مع أن أعمالهم خبيثة؛ فيكونوا بذلك قد صدُّوا الناس عن سبيل الله، وبئسما صنعوا، ولهذا ذمَّ الله تعالى أعمالهم الخبيثة هذه فقال: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾: أي: قَبُحَ عملهم حيث ادَّعوا الإسلام في الظاهر، وخالفوا ذلك في الباطن.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾: أي: عرفوا الحق، ووضح لهم، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾: أي: عن علم وإصرار واستكبار، وليس عن جهل، فلما كفروا بعد وضوح الحق؛ عوقبوا بأن طبع الله على قلوبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾: أي: جعل عليها غلافاً كالطابع؛ بسبب تركهم الحق بعد وضوحه لهم؛ فالجزاء من جنس العمل.

(٤) ذكر تعالى في هذه الآية أن من أوصاف المنافقين: أنهم يتمتعون بجمال الهيئة، وقوة الأجسام، وحلاوة المنطق، لكن القلوب خراب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾: أي: يعجبك منظرهم؛ لجمال هيئتهم، وقوة أجسامهم، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾: لحلاوة منطقهم، وفصاحة كلامهم، ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾: أي: لا ثمرة لها، فهي خاوية جوفاء ليس فيها شيء. ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: أي: يظنون كلَّ أمرٍ وبلاء نازلًا بهم، ويرون أنَّ كل حادثة هي عليهم؛ بسبب ما في قلوبهم من الهلع والخوف؛ فهم يخافون أن يطَّلع المؤمنون على نفاقهم، فإذا سمعوا شيئًا ظنوا أنهم قد كُشفوا وعُرِفَ حالهم. ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾: أي: هم العدو الحقيقي اللَّدود، لأنهم عدوٌّ في الباطِن، فهم يتربَّصون بالمُسلمين الدوائِر، ويُدبِّرون المكائِد للقضاء على الإسلام، مع أنهم يعيشون بين المُسلمين، فلهذا كانوا أشدَّ خطرًا على المُسلمين، وأشدَّ عداوة لهم. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾: أي: لعنهم الله كيف يُصْرَفُون عن دين الإسلام بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١

٥-٦ يذكر تعالى في هذه الآية: أن من صفات المنافقين: أنهم إذا دعوا إلى أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ، ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾: أي: حرَّكوها استهزاء بالنبي ﷺ وسُخْرِيةً؛ كأنهم لا يحتاجون إلى ذلك؛ وهذا لِـمَا في قلوبهم من العناد والإعراض والكِبْر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾: أي: يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾؛ فالكبر منعهم، ولهذا نفى الله تعالى عنهم المغفرة.

فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾: أي: ما داموا على كفرهم ونفاقهم؛ فلن يجدوا المغفرة، حتى لو استغفر لهم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾: أي: الخارجين عن طاعة الله، وهذا فسوق أكبر مخرج من الملة.

٧ يبين تعالى في هذه الآية: أن من أوصاف المنافقين: أنهم يقول بعضهم لبعض: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: أي: من الصحابة؛ ولا تبذلوا أموالكم لهم، بل اتركوهم في حاجتهم وفقرهم، حتى ينفضُّوا عن النبي ﷺ ويتركوه، فلا يبقى عنده أحد، وهذا من ظنهم السيء أن الإسلام سينتهي، ولهذا قال الله رادًّا عليهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: إذا منعتم النفقة أنتم؛ فإن الله له خزائن السماوات والأرض، والرزق بيده ﷻ؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧﴾.

٨ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾: هذه الكلمة قالها عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا في غزوة -وهي غزوة المريسيع- «فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ» أي: ضربه في دُبُره بيده أو برجله؛ فشق ذلك عليه، «فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ... دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ»[1]. يقصد بالأعز: نفسه، وبالأذل: الرسول ﷺ وأصحابه. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لهم العزة أبداً ودائماً رغم أنوف الكافرين والمنافقين، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾: أي: لا يعلمون أنَّ العزة باقية لله ولرسوله وللمؤمنين.

٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: خاطبهم باسم الإيمان؛ ليكون أدعى للقبول، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾: أي: لا تلتهوا عن ذكر الله بالأموال والأولاد، والنهي عن الالتهاء عن ذكر الله؛ يتضمن الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: بأن التهى عن ذكر الله بالأموال والأولاد؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾: والخسارة إما خسارة تامَّة؛ وهي خسارة الكافر الذي ألهاه ماله وولده عن الإيمان والتوحيد. وإما خسارة أقل من ذلك؛ وهي خسارة المسلم العاصي الذي ألهاه ماله وولده عن بعض الطاعات، وقاده إلى فعل بعض المحرَّمات.

١٠-١١ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: أي: بادروا بالإنفاق من قبل مجيء الأجل، وأنفقوا من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيندم ويقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾: أي: هلَّا أخرتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾: أي: فأتصدَّق من مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾: أي: فأعمل الصالحات من أداء الواجبات، وترك المحرمات، حتى أكون صالحًا.

فقال الله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾: أي: لا يمكن أن تؤخَّر نفس وقد حضر أجلها، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾: أي: خبير بأعمالكم ونيَّاتكم، وسيجازيكم على ذلك كلِّه.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

١ افتتح الله هذه السورة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾: أي: يُنزِّه الله ويقدِّسه ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾: أي: كل ما في السماوات من ملائكة وكواكب ونجوم سيَّارة وغيرها، وكل ما في الأرض من آدميين وحيوانات وجمادات وغيرها، فكلها تُسبِّح الله تعالى، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: أي: له سبحانه

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٠٥)، ومسلم برقم (٢٥٨٤).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

الملك الكامل الدائم الشامل لكل شيء، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾: أي: جميع أنواع المحامد لله تعالى ملكًا واستحقاقًا، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾: فلا يستعصي عليه شيء.

٢ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾: أي: أنه تعالى هو خلقكم أيها الناس، وأراد إرادة كونية قدرية أن يكون منكم مؤمن وكافر لحكمة بالغة؛ بأن يبتلي الكفار بالمؤمنين، ويتبين الصادق من الكاذب، وتحصل عبوديات متنوعة، كعبودية الحب والبغض في الله، والولاء والبراء، والجهاد في سبيل الله، والدعوة إليه، ولو كان الناس كلهم أمةً واحدة؛ فاتت هذه العبوديات. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾: أي: بصيرٌ بأعمال عباده، وسيجازيهم عليها.

٣ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بالعدل والقسط، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ فهو تعالى الذي صوَّر العباد فأحسن صورهم، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ أي: المرجع والمآل يوم القيامة؛ للحساب والجزاء.

٤ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فهو سبحانه عالم بما في السماوات والأرض، ولا يخفى عليه شيء، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: أي: يعلم ما يسر العباد وما يظهرونه، والسر والعلانية عنده سواء، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾: أي: عليم بما تخفيه خلجات الصدور، والخطرات التي تَرِدُ على النفس.

٥-٦ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: أي: ألم يبلغكم خبرهم، وما حلَّ بهم من العقوبة والنكال؟ والاستفهام تقريري، فهو تعالى يُقرِّر كفارَ قريش بأنَّه قد بلغهم خبر الذين كفروا من قبلهم، ورأوا آثار الأمم السابقة التي أهلكها الله، ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾: أي: ذاقوا عقوبة كفرهم وعنادهم وتكذيبهم، وهذا عذاب معجَّل في الدنيا، ثم ماتوا فاتصل عذاب الآخرة بعذاب الدنيا. ثم بيَّن الله سبب ما حلَّ بهم من العذاب والنكال فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالحجج الواضحات، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾: فاستبعدوا أن تكون الهداية على يد بشرٍ، وطلبوا أن ينزل عليهم ملك من الملائكة، وقد أخبر سبحانه بأنهم لا يستطيعون أن يخاطبوا الملائكة على الصورة التي خُلقوا عليها، ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾: أي: جحدوا بآيات الله، وأعرضوا عن اتباع رسله، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾: أي: استغنى الله عنهم، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾: له الغنى المطلق، ﴿حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾: له المحامد بجميع أنواعها.

٧ يُنكِرُ الله على مَن أنكر البعث فيقول تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾: الزعم هنا بمعنى: الادّعاء الكاذب، والمعنى: أنهم ادَّعوا ادِّعاءً كاذباً أنهم لن يُبْعثوا للحساب والجزاء؛ ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾: أمر تعالى نبيَّه الكريم ﷺ أن يُقْسِم على وقوع البعث وقيام الساعة، ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾: أي: لتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾: أي: بعثكم ومجازاتكم.

٨ ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾: وهو القرآن الكريم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾: أي: خبير بأعمالكم ونيَّاتكم، وصدقكم وإخلاصكم، وسيجازيكم على ذلك كلِّه.

٩ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾: وهو يوم القيامة، سُمِّي بيوم الجمع؛ لأنَّ الله يجمع الناس فيه للحساب والجزاء، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾: حيث يغبن أهلُ الجنة أهلَ النار، فيُذهب بالإنسان الشريف الكبير الوسيم الذي قد يكون أميرًا أو وزيرًا أو وجيهًا أو غير ذلك إلى النار، ويُذهب بخادمه أو بمَن يعمل عنده إلى الجنة، فيفوز أهل الجنة بالنعيم، ويبوء أهل النار بالخزي والخسران والبوار والعذاب، وهذا هو الغبن العظيم. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: أي: يغفرها له، ويَسْلَم من شرِّها وآثارها في الدنيا والآخرة، ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: أي: لا يرحلون عنها ولا يظعنون منها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾: الذي لا فوز أعظم منه؛ وهو السلامة من النار، ودخول دار الكرامة، والتمتع بالنظر إلى ربِّ العِزَّة جَلَّ وَعَلَا.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

١٠ ثنَّى الله جَلَّ وَعَلَا بما أعدَّه للكافرين من الوعيد؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾. وهؤلاء دخلوا النار بسبب الكفر والجحود والاستكبار، فهو ﷺ لا يُعذِّب أحدًا بغير جُرم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: ٤٤].

١١ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾: أي: بإذن الله القدري الكوني؛ وهذا يدل على أنَّه يجب على الإنسان أن يؤمن بقضاء الله وقدره، وأن يصبر ويحتسب الأجر والثواب، ولا يتسخط. ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾: أي: مَن يعلم أنَّ ما أصابه بقضاء الله وقدره، ويسلِّم لله؛ يَهْدِ الله قلبه ويعوِّضه هدًى ونورًا وبصيرة ويقينًا. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾: ومن ذلك: أنه عليم بنياتكم وأعمالكم، وسيجازيكم على ذلك.

١٢ بعد أن أمر تعالى بالتسليم لقضاء الله وقدَره؛ أمر بطاعة الله ورسوله في الأوامر والنواهي فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾، وهذا هو تمام الانقياد والتسليم والإيمان. ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: أي: إن نكلتم وأعرضتم عن اتِّباع الشرع، ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾: فالرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه البلاغ، وعلينا الحساب.

١٣ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾: هذه كلمة التوحيد، ومعناها: لا معبود بحقٍ إلا الله، وهذا خبر معناه الأمر، أي: وحِّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ أي: عليه وحده توكلوا، وإليه وحده فوِّضوا أمركم؛ فإنه الخالق المدبِّر، وهو أعلم بأحوالكم وشؤونكم، وبما يكون سببًا في سعادتكم ونجاتكم.

١٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾: ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، فليس كل الأزواج والأولاد عدو، وإنما البعض منهم. وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن رجالًا أسلموا بمكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدَعُوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناسَ قد فقهوا في الدِّين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾؛ فأمر بالعفو والصفح، وعدم المعاقبة، وأن يستقبل أمره في المسارعة إلى الخيرات، وترك المحرَّمات، وعدم الالتهاء عن ذكر الله تعالى.

١٥ يبين تعالى في هذه الآية أن الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وامتحان وابتلاء من الله ﷻ، فكما أن الإنسان يُبْتَلَى بالصحة والمرض، وبالفقر والغنى، فكذلك يُبتلى بالأموال والأولاد، فيبتلى بالأموال: هل يكسبها من وجوهها المشروعة أم يكسبها من المتشابه والحرام؟ ويُبْتَلَى هل يؤدي ما أوجب الله عليه فيها أم يبخل ويمسك؟ وكذلك يبتلى بالولد هل يُحسنُ تربيته أم يُهمله ويُضيِّعه؟ فإذا أحسن تربيته وأصلحه الله صار خيرًا له، وإذا أهمله وضيَّعه كان سببًا في إثمه.

١٦ سبب نزول هذه الآية: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]: وذلك بأن يُطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يكفر، أي: باستمرار، شقَّ على الصحابة، فأنزل قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾: فبيَّن أنَّ الواجب على الإنسان ما يستطيعه، وهذا من فضل الله تعالى، وتيسيره على عباده. ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾: أي: اسمعوا لأوامر الله ورسوله، وأطيعوا الله ورسوله على حسب الاستطاعة. ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾: فمن أنفق فهو خير له، ومَن أمسك فهو شرٌّ له. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾: فمَن وُقِي البخل حصل له الفلاح.

١٧-١٨ ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾: أي: إن تقرضوا الله بأن تنفقوا من أموالكم وتتصدقوا منها؛ فإن الله تعالى يضاعف لكم الأجور، وأيضًا يغفر لكم ذنوبكم، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾: يجزي على القليل كثيرًا، ويضاعف الأجور، ﴿حَلِيمٌ ١٧﴾: يصفح عن عباده ما زلَّت أقدامهم، ويقبل توبتهم إن رجعوا إليه، فهما اسمان من أسماء الله متضمنان لصفتي: الشكر والحلم. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: يعلم ما غاب، وما كان حاضرًا مشاهَدًا، فالغيبُ والشهادة سواء عند الله سبحانه، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالب القوي الممتنع من خلقه فلا يضره أحد من خلقه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾: في خلقه وشرعه وأمره ونهيه وقضائه وقدَره.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

(١) في هذه الآية وجّه الله تعالى الخطاب للنبي ﷺ تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا له، ثم خاطب المؤمنين جميعًا؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: أي: لوقت عدتهن؛ والعدة التي أمر الله أن تُطلّق لها النساء هي أن يُطَلِّقها طلقة واحدة في طُهْر لم يَمسّها فيه، أو يُطلِّقها حاملًا قد استبان حَمْلها. ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾: أي: احفظوها؛ بأن يُعلم وقت بَدئها وانتهائها؛ حتى لا يكون هناك خلاف، وحتى لا تطول الْمُدّة على المرأة فتتضرر. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾: بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك: امتثال ما ورد من الأوامر في هذه السورة، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: وهذا في حق المطلَّقة الرجعية؛ فلا يجوز إخراجها من البيت؛ بل تعتد في بيت زوجها؛ لأنها ما زالت زوجة له. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾: فيه: تحريم خروجهن حرم راجهن، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾: أي: لا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، والفاحشة الْمُبيِّنة تشمل: الزنا، أو أنها تؤذي أهل زوجها بلسانها وفِعالها، ولا يمكن الصبر عليها، فهي التي تسبَّبت في إخراج نفسها، وإلا فلا تُخرج ما بقيت في العِدَّة. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: أي: أحكام الله وشرعه، وهذا خبر معناه الأمر؛ أي: الْزَمُوا حدوده، واعْمَلوا بها، ونَفِّذوها. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: بأن طَلَّقها لغير العِدَّة، أو أخرج المطلقة الرجعية من بيتها، أو خرجت هي بنفسها؛ ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾: بمعصية الله ورسوله، ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾: أي: لا تدري إذا بقيت عند زوجها؛ لعل الله أن يُحدِث أمرًا يكون سببًا في إرجاعها؛ كأن يُحدِث في قلب زوجها محبة الرجوع إليها فيُراجعها، وتعود الحال كما كانت، والشارع يَتَشَوَّف إلى بقاء الزوجية؛ بخلاف ما إذا خرجت إلى أهلها ثم أراد أن يراجعها فقد تمتنع، وقد يمنعها أهلها.

(٢-٣) في هذه الآية إرشادٌ من الله ﷻ للمطلِّق طلاقًا رجعيًا؛ أنه إذا قاربت عدة مَن طلَّقها على الانتهاء، فعليه أن يختار أحد أمرين: أن يُمسكها بمعروف، أو يُفارقها بمعروف، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: أي: قاربن بلوغ انتهاء العدة، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: بأن يراجعها ويردَّها إلى عصمته، ويعاشرها بالمعروف، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: بأن يفارقها دون إساءة لها لا بالقول ولا بالفعل. ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: أمر بالإشهاد على الطلاق والرجعة أيضًا، واشترط العدالة في الشاهدين. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾: فيه: الأمر بإقامة الشهادة بالعدل، بأن يكون المقصود منها: امتثال أمر الله ورسوله، واحتساب الأجر فيها. ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾: أي: هذا الحُكم الشرعي؛ يُوعَظ به ويمتثله مَن كان يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر؛ لأن إيمانه يحمله على الامتثال. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ وأصل التقوى: توحيد الله تعالى، وإخلاص الدِّين له، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ومن ذلك: تقوى الله في أحكام الطلاق؛ لأن الآية في الطلاق؛ بأن يُطلِّق لِلسُّنَّة، وَيُراجع لِلسُّنَّةِ، فيكون بهذا قد اتقى الله؛ ثم ذكر ثمرة هذه التقوى فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ فهو موعود بأن يفرِّج الله كربته، ويُزيل هَمّه، ويجعل له مخرجًا. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه فلا مطمع لأحد فيه. والتوكل على الله: هو تفويض الأمر إلى الله، والاعتماد عليه سبحانه، مع فعل الأسباب المشروعة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾: أي: إذا أراد الله شيئًا فلا بد من وقوع ما أراده سبحانه، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾: أي: جعل لكل شيء وقتًا محدَّدًا.

(٤-٥) بيَّن الله تعالى في هذه الآيات عِدّة ثلاثة أنواع من النسوة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾: أي: المرأة اليائسة التي انقطع عنها دم الحيض؛ لكبر سِنِّها، ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: أي: إن شككتم في الدم الذي نزل عليها هل هو دم حيض أو استحاضة، وقيل: إن شككتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه؛ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾: فالمرأة اليائسة التي انقطع عنها الدم؛ لكبر سنها؛ عِدَّتها ثلاثة أشهر. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾: أي: لصغر سنهنَّ، فكذلك عدتهن ثلاثة أشهر، فالصغيرة التي لم تَحِض، ولم تصل إلى سِنّ الحيض؛ عِدّتها ثلاثة أشهر. ثم قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: وهذا عام في جميع الزوجات سواء كانت رجعية أو مبتوتة أو متوفى عنها زوجها؛ عدتها وضع الحمل؛ لعموم هذه الآية، ولحديث سُبيعة الأسلمية[1]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ أي: أن المتقي موعود بأن ييسر الله أمره، بخلاف العاصي الذي لا يتقي الله فقد تُعَسَّر عليه أموره. ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾: أي: هذا حُكمه وشَرْعه الذي أنزله عليكم، فاعْمَلوا بشرعه وحُكمه، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: أي: يغفر سيئاته ويسترها، ويَسْلَم من شرِّها في الدنيا والآخرة، ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾: أي: يضاعف له الأجر والحسنات.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩٩١)، ومسلم برقم (١٤٨٤).

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟
عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ
أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن
قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ
لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ
ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ
بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

(٦) في هذه الآية الكريمة أوجب الله تعالى للمطلقة الرجعية السُّكنى فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾: أي: على قدر الاستطاعة، وعلى قدر الوسع الذي آتاه الله للإنسان، وأما البائن فليس لها نفقة ولا سُكنى، إلا إذا كانت حاملًا كما سيأتي في الآية؛ فإنه يُنفَق عليها من أجل الحمل. ثم نَهَى الله عن مضارة المرأة فقال: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾: حتى يضطرها إلى أن تخرج من البيت، أو تفتدي منه بمال. وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: فيه قولان: قيل: إنها في البائن؛ لأنه نصَّ على النفقة على الحامل، فينفق عليها من أجل الحمل؛ لأن الولد وَلَد الزوج، فيجب عليه أن ينفق عليها من أجل الولد، وأما الرجعية فإن لها النفقة سواءً كانت حاملًا أم لا. وقيل: إنها في الرجعية؛ ولكن نصَّ عليها لطول المدة، ويكون السياق كله في الرجعيات. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: أي: أُجرة الرضاع؛ لأنها صارت أجنبية عنه بعد أن وضعت حملها؛ سواء كانت رجعية أم بائنة؛ لأن عدة الحامل وضع الحمل. وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾: أي: أن تكون الْمُفاهمة بين الزوج والمطلقة بالمعروف، والكلام الطيب، والمشاورة فيما فيه مصلحة الطفل وأم الولد. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾: أي: إن حصل بينهم شقاق ونزاع في الإرضاع وامتنعت -كأن تطلب المرأة أُجرة مرتفعة فيمتنع الأب، وقد يُعطي الأب نفقة قليلة فتمتنع الأم- فإنه يطلب غيرَها لإرضاع ولده، ولكن بعد أن تُسقيه أمه اللِّبأ -وهو أول لبن الرضاع-؛ حتى تُنعشه، ثم بعد ذلك يطلب له مُرضعة أخرى. أما إذا وُجِدت أجنبية تُرضعه، وقبِلَت الأم بهذه الأُجرة؛ فإن الأم تُقَدَّم على غيرها، وكذلك إذا لم يقبل ثديًا غير ثدي أمِّه؛ فتتعين في هذه الحالة، ويجب على الأم أن تُرضعه؛ لأنه لم يقبل ثديَ غيرها، وتركها للصبي قد يكون سببًا في هلاكه، ويُحدَّد أُجرة المثل عند النزاع. والآن قد وُجِد البديل عن طريق الحليب الصناعي، ولكن لا شك أن رضاع الأم مُقدَّم، والأطباء يُقرِّرون أن رَضاع الحليب الطبيعي لا يعدله شيء.

(٧) في هذه الآية: أَمْرٌ من الله تعالى للزوج أن ينفق على أهله وأولاده، فمَنْ وَسّع الله عليه فليُوسِّع، ومَنْ ضُيِّق عليه رِزقه فلينفق على قدر استطاعته، فالفقير له نفقة، والغني له نفقة، والمتوسط له نفقة، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾: هذا وَعْد كريم من الله، وَوَعْدُه حق؛ بأن العسر يعقبه يُسْر، ففيه: وَعْد بتفريج الكروب، وإزالة العُسر.

(٨-١١) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: ﴿كَأَيِّن﴾ تفيد التكثير، و﴿قَرْيَةٍ﴾ اسم جنس، والمعنى: وكثير من القُرى، ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾: أي: تمرَّدت على أمر الله ورسله واستكبرت، وخالفت الرسل ولم تؤمن بهم، ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ أي: فَعَاقَبَها الله بالحساب الشديد، والعذاب المنكر الفظيع، ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾: أي: ذاقت العذاب والوبال في الدنيا، وكان عاقبة عِصيانها لله ولرسله الخسارة والهلاك والعذاب في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي: في الآخرة. وهذا فيه تحذير لهذه الأُمّة أن تسلك مسالك القُرى التي عتت عن أمر ربِّها، وكذّبت رسله وعَصَتهم؛ لئلا يصيبها ما أصابها إذا عملوا كعملهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وسخطه وبأسه وقاية؛ وذلك بتوحيده وإخلاص العبادة له، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وخَصَّ أولي الألباب أي: أصحاب العقول؛ لأن عقولهم السليمة تُرشدهم إلى امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإلا فالتقوى يُؤمَر بها كل أحد. ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾: الذِّكر هو الوحي، وهو يشمل الكتاب والسُّنة، فالسُّنة وحي ثانٍ. ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾: ﴿رَّسُولًا﴾ بالنصب؛ لأن الرسول بدل من الذِّكر، أي: بدل اشتمال وملابسة؛ لأن القرآن إنما بلَّغه هذا الرسول؛ فقد أنزل الله إليكم الذِّكر على الرسول الكريم، والرسول يتلو عليكم آيات واضحات، تُبيّن الحق وتُوَضّحه، وتمحو لَبْس الباطل وظُلمتَه؛ ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: الذين وَحّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، وصَدّقوا إيمانهم واعتقادهم بالعمل الصالح؛ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والشرك والكفر إلى نور العلم والإيمان واليقين. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: أي: ومَن يؤمن بالله بقلبه، ويعمل صالحًا بجوارحه، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: بساتين تجري من تحتها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يرحلون عنها ولا يظعنون منها، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾: أي: قد أحسن الله لِمَنْ يؤمن به ويعمل صالحًا رزقًا؛ وهو الجنة والكرامة والثواب العظيم.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: فالسماوات سبع، والأرضون سبع، وليس المراد بالأرضين السبع: الأقاليم؛ فهذا باطل لا وجه له. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾: أي: يتنزل الأمر من عند الله ﷻ بين السماوات والأرضين. ثم بَيّن الحِكمة من ذلك فقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾: وهذا من الحكمة في خَلْقه ﷻ الجن والإنس، فالله خَلَقهم ليعبدوه وليُوَحِّدوه ﷻ، وليعرفوه بأسمائه وصفاته، وليعلموا أنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء عِلْمًا، فهو المعبود بحق، ولا يستحق العبادة غيره. وفي هذه الآية: إثبات قُدرة الله الواسعة، وأن كل شيء داخل تحت قُدرة الله. وفيها: إحاطة عِلْم الله بكل شيء.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

(١) في هذه الآية خاطب الله نبيّه الكريم ﷺ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ولم يُخاطبه باسمه؛ لِشَرفه وعلو منزلته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بخلاف غيره من الأنبياء؛ فإن الله يناديهم بأسمائهم، ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾: هذا عتاب من الله لنبيّه ﷺ لتحريمه على نفسه العسل أو سُرّيته مارية، أو كليهما؛ إذ يجوز تعدد سبب النزول، ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾: أي: لأجل مرضاة أزواجك، وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مغفور له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾.

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾: أي: قد جعَل الله تعالى تحريم الشيء الحلال يمينًا مُكَفَّرة، فمَنْ حَرَّم على نفسه طعامًا أو شرابًا؛ فإنه يُكَفِّر كفارة يمين، ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾: يتولى أمور دينكم ودنياكم، فلذلك فَرَض لكم تَحِلّة أيمانكم لِتَبْرَأ ذِممكم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾: أحاط عِلْمه بظواهركم وبواطنكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾: في جميع ما خَلَق وحَكَم.

(٣) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾: جاء في الأحاديث: أنه ﷺ أَسَرَّ إلى حفصة حديثًا، وأمَرها ألا تُخبِر به أحدًا، فأخبرت به عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾: أي: أطلع الله نبيَّه ﷺ على ذلك الخبر الذي أذاعته، ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾: أي: أخبرها ببعضه، ولم يخبرها بالبعض الآخر، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾: أي: مَنْ الذي أخبرك؟ فهذا سر بيني وبينها! ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾: وهو الله ﷻ.

(٤) ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: الخطاب لحفصة وعائشة، لهاتين الزوجتين الكريمتين، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾: أي: مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله ﷺ، فعليكما التوبة، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾: أي: وإن تتعاونا عليه وعلى إيذائه والمشقة عليه حيث منعتماه من العسل أو من سُرّيته، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾؛ فالجميع أعوانٌ للرسول ﷺ، فهو المنصور، وغيره ممَّنْ يُناوئه مخذول. وفي ذلك: بيان عُلُو النبي ﷺ، وأن مكانته رفيعة عند الله ﷻ.

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾: هذا من باب التعليق بالشرط المُقدَّر، والشرط المُقدَّر لا يكون، أي: فلو طَلَّقكن - على الفرض والتقدير - فسوف يُبدله الله أزواجًا خيرًا منكن؛ ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾: أي: عاملات بالأعمال الظاهرة، ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: أي: عاملات بالأعمال الباطنة. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: القنوت: دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: أي: راجعات إلى الله ﷻ، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾: من العبودية، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: أي: صائمات، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾: أي: بعضهن ثَيّبات، وبعضهن أبكارًا، من باب التنويع. فلو طَلّقكن لأبدله الله أزواجًا خيرًا منكن؛ متصفات بهذه الصفات. فلمّا وَعَظهن الله بهذه المواعظ تُبْنَ إلى الله ﷻ، ورجعن عمَّا كُنَّ عليه إلى حالة أكمل من الحالة السابقة، فكُنَّ هُنَّ الأزواج الراضيات المرضيات، وصارت هذه الأوصاف منطبقة عليهن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: أي: اجعلوا لكم وقاية تقي أنفسكم وتقي أهليكم من النار؛ وهذه الوقاية هي توحيد الله، وإخلاص الدِّين له، وأداء حقه، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. ثم بيَّن تعالى وقود هذه النار العظيمة فقال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾: والـ﴿وَقُودُ﴾ ما توقد به النار، و﴿ٱلْحِجَارَةُ﴾ قيل: إنها الكبريت، وقيل: الأصنام التي يعبدونها، وقيل: حجارة عظيمة؛ أعظم من جبال الدنيا، وأنتن من الجيفة. والظاهر العموم. ثم بيَّن الله صفة خزنة النار فقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾: وهُم الزبانية، ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾: أي: غلاظٌ في طباعهم على الكفرة وأعداء الله، شدادٌ في خلقهم وتركيبهم، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾: أي: يبادرون إلى فعل ما أمرهم الله به، ولا يعصون أمر الله، فهم مستجيبون لأمر الله، ممتثلون له.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَۖ﴾: أي: يوم القيامة، والمعنى: أنه لا يُقبل اعتذارهم يوم القيامة، لأنَّه الآخرة ليست دار اعتذار، وإنما دار حساب وجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾: أي: تجزون بأعمالكم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾: وهي: التوبة الصادقة التي استجمعت الشروط التي دلَّت عليها النصوص؛ وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم في القلب على ما مضى من المعصية، والعزم الصادق الجازم على عدم العود إلى المعصية مرةً أخرى، وأن تكون التوبة خالصةً لله -لأن التوبة عبادة، فلا بد أن تكون لله-، وردُّ المظلمة إلى أهلها -إذا كانت المعصية فيما بينه وبين الناس-، وأن تكون التوبة في وقت قبولها -وهي ثلاثة أوقات: قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها في آخر الزمان، وقبل نزول العذاب-، فهذه الشروط إذا وُجِدَت تكون التوبة نصوحًا. والتوبة واجبة على كل أحدٍ في كل وقت. ثم ذكر سبحانه ثمرات التوبة فقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾: و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة، ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: ومَن كُفِّرت سيئاته سَلِمَ من شرِّها في الدنيا والآخرة، ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: من تحت بيوتها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل. وهذا فضل عظيم للتائبين. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: فنفَى الله تعالى الخزي يوم القيامة عن النبي ﷺ والذين آمنوا معه، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: نورهم يكون أمامهم، ويكون عن أيمانهم، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: يسألون الله أن يُتِمّ لهم نورهم حين رأوا انطفاء نور المنافقين، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾. وهذا وَصْف المؤمنين الأخيار الذين اجتباهم الله واصطفاهم، -نسأل الله أن يجعلنا منهم-.

٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: أي: بالقتال والسلاح، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: أي: بالبيان والحجة وإقامة الحدِّ عليهم؛ لأن المنافقين يعيشون بين المسلمين، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: في الدنيا، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: أي: في الآخرة، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾: هذا ذمٌّ لمرجعهم الذي يصيرون إليه.

١٠-١٢ في هذه الآيات ضَرَب الله تعالى مثلين: مَثَلًا للكافرين، ومَثَلًا للمؤمنين فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾: فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت نبيين كريمين، ومع ذلك لم تنتفعا بقُرْبهما من هذين النبيَّيْن الكريمين؛ لخيانتهما أي: خيانة الدِّين، لا خيانة العِرْض؛ لأن الله تعالى صَانَ فُرُش الأنبياء، فلا يمكن أن تكون امرأة نبي بَغِيًّا، وإنما هذه الخيانة في الدِّين، كما ذَكَر بعض السلف أن امرأة نوح كانت تُخبِر قومها إذا آمن به أحدٌ، فيعذِّبونه ويُؤذّبونه، وأن امرأة لوط كانت تُخبِر قومها بمجيء ضيوف للوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فلم تنتفعا بقُربهما من النبيَّيْن، ولم ينفع واحدة منهما كونها زوجة نبي، لَمّا حصلت منهما الخيانة في الدِّين، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: أي: ما نفعهما عند الله، ولا أغنى عنهما - لَمّا استمرتا على كُفرهما - كون كل واحدة منهما تحت نبي، ﴿وَقِيلَ﴾: لهاتين المرأتين: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾. وكذلك كل كافر إذا كان له قريبٌ مؤمن؛ فلا ينتفع بإيمانه، إذا لم يؤمن بالله وبرسوله. ثم ضَرَب الله تعالى مثلًا للمؤمنين فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾: ووجه هذا المثل: أن المؤمن لا يضره كُفْر الكافر ولو كان قريبًا له يخالطه، فهذا الاختلاط لا يضره ما دام مؤمنًا بالله ورسوله؛ لأنه مضطر للخلطة، مع أنه لا يتخذه وليًّا من دون الله، فهذه امرأة فرعون: آسية بنت مزاحم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، كانت تحت هذا الطاغية الذي كان مِنْ أَكْفر خَلْق الله، فهي امرأته، ولكنها تبرَّأت منه ومن عمله، وسألت ربَّها أن يبني لها عنده بيتًا في الجنة، فلم يضرها قُرْبها منه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾: وهي: أم عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: أي: حفظت فَرْجها وصانته، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: أي: أَمَر الله تعالى جبريل؛ فتمَثَّل لها بَشَرًا قائمًا؛ فَنَفَخ في جَيْب دِرْعها بأَمْر الله، فَوَجَدت هذه النفخة في فَرْجها فَحَملت بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾: أي: بكلماته الكونية وهي ما قَدّره الله، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: بكلماته الشرعية؛ وهي الكتب الْمُنَزّلة. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾: أي: العابدين لله ﷻ، وفي هذا ثناء عظيم، ومَنقبة كبيرة لمريم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

سُورَةُ المُلْكِ

١ يُمجِّد الله تعالى نفسه في مطلع هذه السورة فيقول سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ﴾: أي: تَعاظم وكَثُر خيرُه، وعَمَّ بِرُّه وإحسانه، وتعاظم سبحانه في كمال صفاته، ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: فهو مالك كُلّ شيء، وكلُّ ما يسمى شيئًا فهو تحت قبضتِه وتصرُّفِه ﷻ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾؛ فكل ما يسمى شيئًا فالله قادر عليه.

سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)

(٢) يبين تعالى الحكمة من خلق الموت والحياة فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أي: ليختبركم أيكم أحسن عملًا، ولم يقل: أكثر عملًا، فالعبرة بالحُسْن والصواب، لا بالكثرة. والعمل الحسن الصواب: ما كان خالصًا لوجه الله تعالى، وموافقًا لهدي رسول الله ﷺ. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: فله سبحانه عزة القوة والقهر والامتناع، ﴿الْغَفُورُ ②﴾: الذي يغفر ذنوب عباده إذا تابوا إليه واستغفروه، ويقيهم شرَّها في الدنيا والآخرة.

(٣-٤) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾: أي: بعضها فوق بعض، والصواب: أنهن غير متلاصقات، وإنما بينهن خلاء وفضاء؛ لحديث الإسراء والمعراج[1]. ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾: أي: من اختلاف أو خلل أو نقص أو عيب، بل فيه التمام والكمال، والإتقان والإحكام، ولهذا قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③﴾: أي: ارجع البصر بالنظر إلى السماء: هل ترى فيها من شقوق؟ ما ترى ولن ترى، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾: أي: أعِدِ الرؤية مرةً بعد مرة، فإذا أعدته مرة بعد مرة لينظر هل يجد خللًا أو عيبًا، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾: أي: يرجع إليك ﴿خَاسِئًا﴾: أي: ذليلًا، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ④﴾: أي: كليلٌ مُتعب من كثرة نظره مهما كرَّر، ولو كرَّر ألوفًا مؤلفة فلن يجد عيبًا ولا خللًا ولا شقوقًا في السماء.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾؛ وهي النجوم. وفيه: دليل على أن السماء الدنيا خُصَّت من بين السماوات السَّبع بأنها زُيِّنت بالنجوم؛ وهذه إحدى الحِكَم من خَلْق النجوم؛ أنها زينة وجمال للسماء الدنيا. ثم ذكر الله حكمة أخرى من خَلْقها فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾: أي: من جنسها؛ وهي الشُّهب، فالشُّهُب ناتجة عن النجوم، وهي التي ترجم الشياطين وتحرقهم، أما النجوم فباقية في أماكنها. والحكمة الثالثة مذكورة في سورة الأنعام والنحل وهي: الاهتداء به. قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤﴾: أي: وهيَّأنا لهؤلاء الشياطين عذاب السعير.

(٦-١١) يُبيِّن الله تعالى في هذه الآيات حال الكفار ومآلهم، وما أعدَّ الله لهم يوم القيامة من النكال الشديد، والعذاب الأليم، فيقول ﷻ: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾: وهم الذين جحدوا توحيد الله، وصرفوا العبادة التي هي محض حق الله إلى مخلوقٍ ناقص ضعيف، فكانوا بذلك كفارًا جاحدين لتوحيد الله تعالى، فهؤلاء مآلهم وجزاؤهم يوم القيامة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: و﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑥﴾: أي: المآل والمنقلب، وهذا ذمٌّ لمآلهم ومنقلبهم ومصيرهم. ثم بيَّن تعالى حال هؤلاء الكفَّار إذا ألقوا في النار؛ فقال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾: صوتًا شديدًا، ﴿وَهِيَ تَفُورُ ⑦﴾: أي: تغلي كما يغلي الحبُّ القليل في الماء الكثير، فيفور ويرتفع من الأسفل إلى أعلى. ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾: أي: تكاد تتقطع من الغيظ والحنق عليهم، ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾: أي: طائفة وجماعة، ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾: أي: خزنة النار من الملائكة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧﴾: أي: ألم يرسل الله لكم رسلًا ونذرًا يحذرونكم من الشرك بالله والكفر به؟ ويحذرونكم بأس الله ونقمته؟ فيكون جوابهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾: فاعترفوا بأن الله أرسل إليهم رسلًا ونذرًا، لكنهم كذَّبوهم، ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: أي: ما أنزل الله من كتاب، وكذبوا الرسل وقالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⑨﴾: أي: ما أنتم أيها الرسل إلا في بُعْدٍ كبير عن الحق والصواب. واعترافهم بإرسال الرسل إليهم: يدل على أن الله تعالَى لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحُجَّة عليه. ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾: أي: لو كانت لنا أسماع تعي الخير، أو عقولٌ سليمة تُرشِدُنا إلى الحق؛ فأجَبْنَا الرسل، ووحَّدنا الله، وأخلصنا له العبادة، ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩﴾، لكن لم يكن لهم عقول سليمة تُرشِدُهم إلى الحق، ولا أسماعٌ تعي الخير، ولهذا صار مصيرهم النار. ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾: أي: بخطئهم وضلالهم، لكن لا ينفعهم هذا الاعتراف في ذلك الوقت، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسُحْقًا﴾: أي: بعدًا، ﴿لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑪﴾: و﴿السَّعِيرِ﴾ من أسماء النار التي تُسعَّر بهم وتلتهب.

(١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: أي: في حال الخلوة فيما بينهم وبين الله، وغيابهم عن الناس، فيؤدون ما أوجب الله عليهم من الواجبات مع قدرتهم على تركها، وينتهون عما حرَّم الله عليهم من المحرَّمات مع قدرتهم على ملابستها وفعلها؛ لأنهم يخشون ربَّهم بالغيب، ولا يخشونه رياءً وسمعة، فهؤلاء ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾: أي: أن الله يغفر لهم ذنوبهم ويسترها، ويقيهم شرَّها في الدنيا والآخرة، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫﴾؛ وهو الثواب العظيم الذي أعدَّه الله لهم في الجنة.

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك.

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

١٣ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾: أي: سواء أسررتم قولكم أو جهرتم به؛ فإن الله تعالى يعلمه، والسر والجهر عنده تعالى سواء؛ بل إنه تعالى يعلم ما هو أخفى من السر؛ وهو ما يُكِنُّه الإنسان في صدره، ويُحدِّث به نفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾: فهو تعالى عليم بما يدور ويختلج في صدور عباده، وهو تعالى عليمٌ بأحوالهم ونياتهم، وسوف يجازيهم على ذلك.

١٤ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾: أي: ألا يعلم الخالقُ خَلْقَه. وقيل: ألا يعلم الله ما خلق. والمعنى: أن هذه المخلوقات لا يمكن أن يخفى شيءٌ منها عليه تعالى؛ فهو الذي خلقها وأوجدها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بعباده، يوصل لهم إحسانه من طرق لا يشعرون بها، ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ بدقيق أحوال خلقه، وفيه: إثبات اسمي الله اللطيف والخبير، المشتملين على صفتي اللطف والخبرة.

١٥ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾: أي: مذلَّلة مسخَّرة، قارَّة ساكنة، فهم يزرعون فيها، ويبنون عليها، ويسيرون عليها من قطر إلى قطر طلبًا للرزق؛ لأنها مذللة مهيأة، ولهذا أمرهم بالمشي والسعي فيها بالتجارات وطلب الرزق، فقال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: أي: في جوانبها وأرجائها ونواحيها، ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ﴾ فيه: إضافة الرزق إلى الله، وأن كل شيء فيها فهو من رزق الله، والرزق يشمل الحلال والحرام، ولكن الله تعالى أباح لعباده الحلال، وحرَّم عليهم الحرام، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾: أي: إلى الله المرجع يوم القيامة للحساب والجزاء.

١٦-١٧ في هاتين الآيتين: تهديد وتخويف ووعيد لمن استمر على كفره وعصيانه، وأن الله تعالى قادرٌ على تعذيبه في أي وقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: هل تأمنون أيها المكذبون مَن في السماء - وهو الله تعالى - أن يخسف بكم الأرض، ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾: أي: تتحرك وتضطرب بكم؛ فلا تستطيعون القرار عليها، والعيش فيها، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾: أي: ريحًا فيها حصباء، فتهلكوا كما هلك مَن قبلكم؟! ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾: أي: فسوف تعلمون في المستقبل كيف إنذاري لمَن لم يقبل الإنذار؟ وأنَّه الهلاك والدمار. وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿مَّن﴾ موصولة، و ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ تطلق ويراد بها: العلو، وتطلق ويراد بها: السبع الطِّبَاق المبنية، فعلى المعنى الأول وهو الأصل: تكون ﴿فِى﴾ ظرفية، والمعنى: أأمنتم الذي في العلو، فالله تَعَالَى له أعلى العلو؛ وهو ما فوق العرش. وعلى المعنى الثاني: تكون ﴿فِى﴾ بمعنى: (على)، والمعنى: أأمنتم الذي على السماء. وفيه: إثبات العلو لله تعالى، والرد على مَن أنكر العلو من الجهمية والأشاعرة وغيرهم.

١٨ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: من قبل كفَّار قريش؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾: أي: فكيف كان إنكاري عليهم؟ كان إنكاري عليهم بعقوبتهم وتعذيبهم. وفي هذا تحذير لهم من أن يستمروا على كفرهم وعنادهم؛ فيصيبهم ما أصاب مَن قبلهم من العذاب والنكال الشديد.

١٩ أرشد الله تعالى في هذه الآية عباده إلى أخذ العبرة والعظة في خلقه للطير فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾: أي: في الجو، ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: أي: ناشرات أجنحتهن، ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾: وأحيانًا تقبض جناحًا وتبسط جناحًا، فتكون في مرأى العين ساكنة غير متحركة، حتى إنه ليُخيَّل للناظر إليها أنها تسقط، لكنها لا تسقط؛ لأن الله تعالى يُمسِكُها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾: بما سخَّر لها من الريح. وقد استفاد البشر من خلق الطير وصنيعها في الجو في صنع الطائرات في الوقت الحاضر، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾: فهو سبحانه بصيرٌ بأحوال عباده، وبما يصلحهم، وبما أعطاهم من الإمكانيات والقدرات.

٢٠-٢١ يخاطب تعالى مَن عبدوا غيرَه فيقول: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾: وهذا استفهام إنكاري، والمعنى: لا يوجد أحد ينصركم من دون الله إذا تخلَّى الله عنكم، ولا أحد يدفع عنكم عذاب الله إذا نزل بكم، وإنما الله تعالى وحده هو الناصر والمعين والدافع، ولو تأمَّلوا لعلموا أن ليس لهم أحد ينصرهم من دون الله، ولكنهم اغتروا وظنوا أن قوتهم تمنعهم من الله، وأن هناك مَن ينصرهم من دون الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾، ولهذا عبدوا غيرَه، وتعلَّقوا بسواه. ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ﴾: أي: هل تجدون أحدًا يرزقكم إن أمسك الله رزقه وقطعه عنكم؟ لن تجدوا أحدًا يرزقكم غيرَه؛ بل هو الرزاق ﷻ. وهم يعلمون أن لا أحد ينصرهم من دون الله إذا تخلَّى الله عنهم، ولا أحد يرزقهم إن أمسك رزقه عنهم، ومع ذلك استمروا في عنادهم وكفرهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿بَل لَّجُّواْ﴾: أي: استمروا وأصروا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: أي: في عناد واستكبار، ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: ونفور عن الحق وعدم قبول له.

٢٢ في هذه الآية ضَرَب الله تعالى مثلًا للمؤمن والكافر في الدنيا والآخرة؛ لِمَا في ضَرْب المثل الحسي من تقريب الفهم للأمر المعنوي، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: أيُّهما أهدى طريقًا وسبيلًا: ﴿مَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: منحنيًا يكاد يسقط على وجهه من انحنائه، وهو مع ذلك تائه حائر، لا يعرف الطريق، وليس له غاية يطلبها، ولا هدف يسعى إليه، أم من يمشي منتصب القامة على طريق واضح، وله غاية يطلبها، وهدف يسعى إليه؟ فالأول: مثلٌ للكافر، والثاني: مثلٌ للمؤمن، ولا شك أن المؤمن أهدى طريقًا وسبيلًا من الكافر. فالكافر يمشي مُكبًّا على وجهه في الدنيا؛ لأنه منحرف، وكذلك في الآخرة يحشره الله على وجهه؛ فالجزاء من جنس العمل. أما المؤمن فيمشي على طريق مستقيم، وهو طريق الكتاب والسُّنة، وكذلك في الآخرة يتجاوز الصراط إلى جنة النعيم، نسأل الله أن يؤتينا من فضله.

٢٣ امتنَّ الله في هذه الآية على عباده؛ بأنه خلقهم وأوجدهم من العدم، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾: أي: أوجدكم بعد أن كنتم عدمًا، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ﴾: وهذه نعمٌ عظيمة، والعلم إنما يكون بهذه الطُّرُق الثلاث: الأسماع، والأبصار، والعقول، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: قليلًا شكركم، وهذا فيه: الحثُّ على شكر الله تعالى على هذه النِّعم العظيمة، وفيه: الدعوة لهم إلى توحيد الله، والعمل بشرعه ودينه.

٢٤ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: نشركم وبثَّكم في أرجاء الأرض طولها وعرضها، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: وإليه سبحانه تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

٢٥-٢٦ ذكر الله في هذه الآيات استبعاد الكفار للبعث والمعاد والجزاء، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾: وهذا استبطاء واستبعاد منهم لما وُعِدوا به من النكال والعذاب، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: قل لهم أيها

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ القَلَمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

النبي: إنما علم ذلك عند الله، فهو سبحانه الذي يعلم متى تقوم الساعة، وقد جعل لكل شيء وقتًا محددًا، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾: أي: وأمَّا أنا فوظيفتي: أن أنذركم وأخوِّفكم عذاب الله وبأسه ونقمته.

٢٧ يُبيِّن تعالى في هذه الآية حال الكفار حين رأوا يوم القيامة وشاهدوه فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾: أي: لما رأوا يوم القيامة قريبًا، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: ساءهم ذلك، وحصل السوء والظلمة والكُدرة في وجوههم؛ لأنهم عاينوا ما وُعدوا به حقًّا، وزالت عنهم الغشاوة، ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: تستعجلون وتطلبون وتتمنون، فسُقِط في أيديهم، وحقَّ عليهم العذاب.

٢٨ لـمَّا كان كفَّارُ قريش يتوقعون هلاك النبي ﷺ ومَن معه من المؤمنين؛ أمر الله تعالى نبيَّه أن يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ﴾ و ﴿إِنْ﴾ تقديرية فرضية، والمعنى: أرأيتم على سبيل الفرض والتقدير ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾، فما يفيدكم ذلك أيها الكفار المكذبون؟ فهذا أمرٌ يتعلَّق بنا، والأمر الذي يتعلَّق بكم هو أن تسعوا في خلاص أنفسكم من عذاب الله وبأسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: فمَن يُجيركم أيها الكفار ويمنعكم من عذاب الله وبأسه؟! ولا يمكن أن يجيرهم من عذاب الله إلا التوبة إلى الله من الشرك والكفر، وتوحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، والاستقامة على طاعته.

٢٩ أمر تعالى في هذه الآية نبيَّه ﷺ والمؤمنين أن يعلنوا إيمانهم بالله وتوكُّلهم عليه فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أي: آمنَّا به، واعتمدنا عليه، وفوَّضنا أمورنا إليه، وفعلنا الأسباب، وأما أنتم فكفرتم به، وعبدتم غيرَه، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾: أي: فستعلمون يوم القيامة مَن هو في بُعدٍ واضح عن الحق والصواب، نحن أم أنتم؟! فإنما يتبيَّن لكم هذا يوم القيامة؛ ويظهر لكم الحق ظهورًا بينًا، وتعلمون أنكم على الباطل.

٣٠ يبين الله فضله ونعمته على عباده فيقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: أي: أرأيتم لو غار هذا الماء في الأرض، فلا تناله الدلاء، ولا تستطيعون إخراجه، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾: أي: فمن يأتيكم بماءٍ على سطح الأرض مَعِينٍ أي: سائح، تتصرفون فيه؛ فتشربون منه، وتزرعون به، فمَن يستطيع أن يأتي به إلا الله؛ فالواجب عليكم أيها العباد: أن تشكروه وتوحِّدوه سبحانه، وتُخلصوا له العبادة.

سُورَةُ القَلَمِ

١-٤ افتتح الله تعالى هذه السورة بقوله: ﴿نٓ﴾؛ وهو حرف من الحروف المقطعة، وهي مما استأثَرَ الله بعلمه، فلا يعلم معناها إلا هو سبحانه، وأما الحكمة من الإتيان بها في أوائل السُّوَر: فهي الدلالة على إعجاز القرآن، وأن القرآن مُكوَّن من الثمانية والعشرين حرفًا التي يتكلَّمُ بها الناس، ومع ذلك عجزَ الناسُ أن يأتُوا بمثلِه أو بعشرِ سُورٍ مثلِه أو بسُورةٍ مثلِه، ولذلك يأتي بعد غالب السور التي استفتحت بـالحروف المُقطَّعة: الانتصارُ للقُرآن. ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾: هو جنس القلم، وليس قلمًا معينًا، فيشمل القلم الذي كتب الله به مقادير الخلائق، والقلم الذي تُكتب به مقادير كل إنسان في بطن أمه، والقلم الذي يكتب به الناس. والكتابة من النِّعَم العظيمة التي امتنَّ الله بها على عباده، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾: أي: وما يكتبون. وقد انتفع الناس بالقلم والكتابة انتفاعًا عظيمًا سواء في علوم الدِّين الشرعية، أو في علوم الدنيا المتنوعة. وقد أقسم الله في هذه الآية بالقلم، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾؛ فنزَّه الله تعالى نبيَّه وبرَّأه، وأخبر بأنه ﷺ بنعمة ربِّه عاقلٌ راشدٌ بارٌّ، وأنه ليس مجنونًا، كما يتَّهمه الأعداء من الكفرة وغيرهم. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾: أي: غير مقطوع؛ بل ثابت مستمر، وهذا الأجر غير المنقطع؛ بسبب ما بذله ﷺ من تبليغ الرسالة، ونشر الدعوة، ونصح الأمَّة، وما تحمَّله في سبيل ذلك، وكذلك لأن له أجر الأمة كلها؛ فكل خير أتى الأمة فهو على يديه وبسببه ﷺ. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾: أي: لعلى دينٍ عظيم؛ فالخُلُق هو الدِّين كلُّه؛ وهو امتثال هذا القرآن الكريم، فيمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه، ويقف عند حدوده.

٥-٦ بعد أن زكَّى الله نبيَّه ﷺ وأثنى عليه، قال تعالى له: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾: أي: فستعلم ويعلمون أيكم المفتون الضال المنحرف عن جادة الحق إلى الضلال، والمعنى: أنهم هم الضالون، وسيتضح لهم ذلك تمامًا يوم القيامة.

٧ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾: هذه الآية على الإبهام للتهديد والوعيد، وإلا فإن من المعلوم أن النبي ﷺ أتباعه هم المهتدون، وأن أولئك الكفَّار هم الضالون، والمعنى: إنكم أنتم الضالون؛ فاحذروا من عقوبة الله وسخطه. وفي الآية: إثبات علم الله ﷻ، وأنه سبحانه يعلم الذوات التي تستحق الكرامة؛ فيغرس فيها الخُلُق الطيب بفضله، ويعلم الذوات التي لا تصلح للخير فيخذلها بعدله.

٨-١٦ يخاطب الله تعالى في هذه الآيات نبيَّه ﷺ وأتباعه تبع له؛ فيقول تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾: أي: الذين كذَّبوك، لا تطعهم فيما دعوك إليه من دينهم الخبيث، وهذه الآية نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾: أي: تمنَّى هؤلاء الكَفَرة لو توافقهم فيما هم عليه من الباطل وعبادة الأصنام من دون الله؛ فيوافقوك ويكونوا لك أصحابًا وأصدقاء وأخلاء. ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾: أي: كثير الحَلِف ﴿مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾: من المهانة أي: حقير؛ لأنه لا يبالي بعظمة الله تعالى، فيُكثِر من الحَلِف كاذبًا؛ ليقوِّي بَاطِلَه، ويُعزِّز كَذِبَه. ﴿هَمَّازٍ﴾: أي: كثير الهَمْز والطعن في الناس، ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾: أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وأصل النميمة: نقل الكلام من شخص إلى شخص، ومن جماعة إلى جماعة؛ بقصد الإفساد، وهي من كبائر الذنوب، ومن أسباب عذاب القبر. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثير منع الخير، ﴿مُعْتَدٍ﴾: أي: يعتدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويعتدي على محارم الله وحدوده، ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾: أي: كثير الإثم. ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾: الـ﴿عُتُلٍّ﴾: المستكبر الفظُّ الغليظ، والـ﴿زَنِيمٍ﴾: فسَّره ابن عباس بأنه: «رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة». واسم الشاة: يشمل الضأن والمعز، والزنمة تكون في المعز غالبًا، وهما لحمتان متدليتان في العنق. وقد اختلف في الذي نزلت فيه؛ فقيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: هو الأسود بن عبد يغوث. وعلى كل حالٍ: فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية تشمل كل مَن اتصف بهذا الوصف. ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾: أي: لأجل أن كان ذا مالٍ وبنين، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾: فقابل إنعام الله عليه بأن أنكر القرآن الكريم، والطعن فيه، فادَّعى أنه مُجرَّد حكايات الأولين، ولهذا توعَّده الله تعالى فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾: أي: سنجعل له علامة وسِمَة يُعرف بها، ولا مانع من أن يجعل له علامة في الدنيا يعرف بها أنه كاذب، ويُجعل له خرطوم في الآخرة.

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

(١٧-٣٣) في هذه الآيات بيان قصة أصحاب الجنة، وقد قيل: إنها كانت في اليمن، وقيل: إنها كانت في الحبشة، ولا فائدة من معرفة ذلك؛ فالمقصود: أخذ العبرة والعِظَة منها. فيقول تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾: أي: إنَّا اختبرنا كفَّار قريش وابتليناهم، وابتلاء قريش كان بالنبي ﷺ هل يؤمنون به أم لا؟ كما أن النبي ﷺ بُلي بهم اختبارًا. ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: أي: أصحاب البستان؛ سُمِّي جَنَّةً؛ لأنه يُجِنُّ مَن يكون فيه أي: يستره، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾: أي: إذ حلفوا، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: لَيَقْطَعُنَّها مُبكِّرين صباحًا قبل أن يأتي المساكين، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: في حلفهم وقسمهم، فلم يقولوا: إن شاء الله. وقيل: ولا يستثنون أحدًا من المساكين بإعطائه حقَّه. فلمَّا بيَّتوا هذه النيِّة السيئة؛ عاقبهم الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾: أي: على جنتهم، ﴿طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾: فأتلف عليهم ثمارهم، قيل: الـ﴿طَائِفٌ﴾: آفة سماوية، وقيل: نار، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾: أي: أصبحت جنتهم كالشيء الذاهب، أي: ذهب ثمرها ولم يبق منه شيء. وقيل: إنها احترقت فأصبحت كالليل الأسود البهيم، وهذا الأقرب، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾: أي: نادى بعضهم بعضًا وقت الصباح: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: إن كنتم تريدون الصرام وهو قطع الثمار، ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: فمشوا إليها وهم يتكلمون سرًّا فيما بينهم، ويتواصون ألا يدخل البستان عليهم مسكين، ولهذا قالوا: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾، فصرَّحوا ألا يُعطوا ولو مسكينًا واحدًا، وظنوا أن الصدقة على المساكين تُنقص المال، وهذا من جهلهم، وإلا فإن إعطاء المساكين، والعطف عليهم، والرحمة بهم؛ يزيد في المال، ويبارك فيه، ويخلف على صاحبه، مع الأجر والثواب العظيم. ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: أي: على قوة ونشاط وعزم على حرمان المساكين ﴿قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾: فيما يزعمون ويظنون، فهم يرون جنتهم أمامهم، وأنهم متمكنون منها، وأنهم يمنعون مَن شاؤوا، ويعطون مَن شاؤوا، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾: وقد أُحْرِقت دُهِشُوا وذُهِلُوا، و﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: لقد ضللنا طريق جنتنا، فليس هذا مكانها، ثم أضربوا فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: بل هي هذه، ولكن لا حظ لنا ولا نصيب فيها، قد حُرِمنا منها. وعرفوا أنهم قد عوقبوا، ولهذا بدأ التلاوم فيما بينهم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: أي: أعدلهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: لولا تستثنون الفقراء، وكان استثناؤهم تسبيحًا، وقيل: لولا تسبحون الله وتشكرونه على النعمة، ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فاعترفوا بظلمهم وندموا، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: يلوم بعضهم بعضًا، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: حقَّ علينا الوصف بالطغيان ومجاوزة الحد؛ حيث حرمنا الفقراء، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾: إما بالثواب في الآخرة، وإما جنةً أخرى في الدنيا، ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: نرغب إلى الله تعالى في الخير والثواب والأجر، وفي إبدالنا خيرًا منها، والظاهر: أن قولهم هذا توبة منهم. ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾: أي: ما أصابهم هذا إنما هو عذاب دنيوي معجل، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾: أي: ما أعدَّ الله للعصاة والكفرة من عذاب الآخرة أعظم وأشد مما في الدنيا، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٣٣﴾.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾: المتقون هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي، ووحَّدوا الله تعالى، وأخلصوا له العبادة، وأدوا حقوقه، وانتهوا عن محارمه، واستقاموا على دينه، فهؤلاء لهم جنات النعيم. وفوق ذلك يُحِلُّ عليهم ربُّهم تعالى رضوانه، وأعظم نعيم يُعطاه أهل الجنة هو رؤيتهم لربِّهم ﷻ.

(٣٥-٤١) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾: هذا استفهام لإنكار التسوية؛ والمعنى: هل تظنون وتعتقدون أن يُسوِّي الله تعالى بين هؤلاء المسلمين وهؤلاء المجرمين؟ والجواب: أنه لا يمكن أن يجعل الله تعالى المسلم الذي أسلم لربِّه ﷻ، وانقاد لشرعه ودينه، ووحّده تعالى وأخلص له العبادة، كالمجرم الذي ارتكب الجُرْم من الشرك والمعاصي، فلا يمكن أن يكون المسلمون كالمجرمين في حكم الله سواء، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: بهذا الحكم الجائر الظالم؛ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: أم لديكم كتاب منزل من عند الله تتداولونه فيما بينكم وتقرؤونه، وتجدون فيه المساواة بين المسلم والمجرم؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: أنكم تتخيرون منه ما يناسبكم، وتأخذون الأحكام منه بما شئتم، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: هل عندكم أيمان مؤكدة من الله بأن لكم ما تحكمون وما تشتهون؟ ثم أمر الله نبيه ﷺ بمناقشتهم ومحاورتهم فقال تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾: أي: سلهم أيها النبي مَن الذي يزعم هذا الزعم؟ وقيل: سلهم أيهم كفيل بما يختارون ويشتهون. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: هل لهم شركاء يُدبِّرون مع الله، ويساوون الله في الحكم؟ تعالى الله عن ذلك.

(٤٢-٤٣) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: فُسِّر ﴿سَاقٍ﴾ هنا بشدة الهول والأمر والخطب، كما تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتد الأمر، لكن الصواب: أن المراد كشف ساقه سبحانه؛ إذا ضُمَّ إلى هذه الآية حديث: «يكشف ربنا عن ساقه»[(١)]. فهذا الحديث صريح في إثبات الساق لله ﷻ، والضمير فيه: يعود إلى الله، وعليه فإن الآية تُفسَّر بالحديث، والآية وإن كانت ليس فيها إضافة لله ﷻ؛ لكن السياق يدل على أن المراد الوصف. والكشف عن الساق: علامة بين الله وبين المؤمنين، يعرفون بها ربَّهم يوم القيامة، فإذا كشف تعالى عن ساقه خرُّوا له سجدًّا؛ أما المنافقون فلا يستطيعون السجود؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾؛ لأنه يعود ظهر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٩).

خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾

الواحد منهم طبقًا واحدًا؛ فلا يستطيعون السجود، لأنهم لما كانوا يسجدون في الدنيا رياءً ونفاقًا؛ منعوا من السجود يوم القيامة؛ كما في الحديث المتقدم.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾: بسبب العذاب والخزي الذي أصيبوا به في الآخرة، وقد عُوقبوا بالذِّلة؛ مقابل ما كانوا عليه في الدنيا من الكبر والعلو والاستعلاء والقوة. ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كانوا يدعون إلى السجود في الدنيا فامتنعوا؛ فعوقبوا بمنعهم من السجود في الآخرة.

(٤٤-٤٧) ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾: ﴿ذَرۡنِي﴾: فعل أمر، المقصود منه: التهديد والوعيد، والمعنى: اتركني وهذا المكذِّب بهذا القرآن. وهذا وعيد شديد للمكذِّبين لهذا القرآن الكريم؛ فقد توعَّدهم تعالى بالاستدراج فقال: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: من حيث لا يشعرون، والاستدراج: أن يمهلهم الله، ويُغْدِق عليهم نِعَمَه، ويمدهم بالأموال والبنين؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، فيظنوا أن ذلك كرامة لهم، وهو في الحقيقة إهانة واستدراج، ثم يأخذهم على غرة أخذ عزيز مقتدر. ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾: أي: أن الله أمهلهم مُدَّة، ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾: أي: قوي وشديد، فكيده تعالى قوي وشديد لمن كفر به، وخالف رسله، وكذَّب بآياته. ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾: أي: هل تسألهم يا محمد أجرًا وثوابًا على تبليغك إيَّاهم الرسالة، ودعوتك لهم إلى الله؛ ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾: فصارت عليهم غرامة؛ أثقلتهم وأتعبتهم فصاروا لا يستطيعون دفعها؛ ومَنَعَهم ذلك من الاستجابة لرسالتك، وقبول دعوتك؟! والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فإنك لا تسألهم ثوابًا ولا أجرًا، وإنما تطلب أجرك وثوابك من الله، وإنما المانع لهم من قبول الحق: هو العناد والاستكبار، وليس خوف الغرامة.

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: هل أَطْلَعَهم الله على الغيب، فهم يكتبون منه ما شاؤوا، ويعلمون ما في المستقبل، وأن الله تعالى سيكرمهم؟ ليس الأمر كذلك، وكل ذلك لا يكون، إذًا: فما الذي يمنعهم من الإيمان؟ وما الذي يؤمِّنهم من عذاب الله؟

(٤٨-٥٠) يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالصبر على دعوة قومه وأذاهم، فيقول عزّ وجلّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾: وهو يونس بن متَّى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فأمر الله تعالى نبيَّه محمدًا ألا يتشبه به في عجلته وعدم صبره، فإن يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا دعا قومه وردوا دعوته؛ ذهب مغاضبًا عليهم، وركب في السفينة، وكان من أمره ما كان، ثم التقمه الحوت، فجعل يُسبِّح ويقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾: أي: وهو مغموم مهموم في جوف الحوت؛ ثم أنجاه الله تعالى ولهذا قال: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾﴾. فالله تعالى تداركه برحمته يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه عبدٌ صالح؛ ولأنه يرفع له عملٌ صالح، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: أي: اختاره واصطفاه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾. فيونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عبد صالح، ويرفع له عمل صالح.

(٥١-٥٣) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾: أي: يكادون أن يصيبوك بالعين؛ من شدة حسدهم لك، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾﴾: فاتهموه ﷺ بالجنون من شدة بغضهم له. ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: السياق محتمل أن يكون المراد بالذكر: القرآن الكريم، ومحتمل أن يكون المراد به: الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا﴾ [الطلاق: ١٠-١١]، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ فالرسول ﷺ ذكرٌ للعالمين، وكذا القرآن الكريم. وفي هذه الآيات: أن العين حق، وهي ثابتة في القرآن والسنة، ففي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»[1].

سُورَةُ الحَاقَّةِ

(١-٣) افتتح الله هذه السورة المباركة بقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ و ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾: من أسماء يوم القيامة، سميت حاقَّة؛ لِأَنَّ فِيهَا يتحقق الوعد والوعيد. وقوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾: استفهام للتعظيم، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾: هذا تعظيمٌ من الله لأمرها، وتفخيمٌ لشأنها.

(٤-٨) ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾: ﴿ثَمُودُ﴾: قبيلة أرسل الله إليهم نبيَّه صالحًا، و﴿عَادٞ﴾ قبيلة أرسل الله إليهم نبيَّه هودًا، وكلتا القبيلتين كذَّبوا بالقارعة؛ و﴿ٱلۡقَارِعَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة، تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ومَن كذَّب بيوم القيامة كَفَر؛ لأن الإيمان به أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان إلا بها؛ فلما كذَّبوا بيوم القيامة أهلكهم الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾: وهي الصيحة التي صاحها جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد كانت صيحةً شديدة قطَّعت أمعاءهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم. ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ﴾: وهي: الدَّبور، وهي ريح تأتي من جهة الشرق، ﴿صَرۡصَرٍ﴾: أي: باردة ولها صوت شديد، ﴿عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾﴾: أي: شديدة الهبوب، عتت على الخُزَّان عن الحد الذي يعرفونه؛ فخرجت بإذن الله لها، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: سخر الله هذه الريح على قوم عاد ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾: أي: متتابعات، ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ﴾: الذين أصيبوا ﴿فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾؛ وذلك أن هذه الريح الشديدة كانت تأخذ الواحد منهم وتوصله إلى السماء، ثم تُنَكِّسه على أُمِّ رأسه، فإذا وصل الأرض انفصل الرأس عن الجسد، فصاروا ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾﴾: أي: كانوا إذا سقطوا كأنهم أصول نخلٍ قُطِّعت رؤوسها؛ لأنهم كانوا طوالًا، ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾﴾؛ فقد أبادهم الله جميعًا، ولم يبق منهم أحد، واتصل عذاب الآخرة بعذاب الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم، برقم: (٢١٨٨).

وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾

٩-١٠ ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ﴾: وهو الذي ادَّعى الربوبية والألوهية، وكان ملك مصر في زمان موسى ﷺ، ﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾: أي: ومَن قبل فرعون من الأمم المكذِّبة، ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾: وهم قُرى قوم لوط. ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾: أي: بالفعلة الشنيعة؛ وهي أنهم كفروا بالله ﷻ، وكذَّبوا رسلَه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾: و﴿رَسُولَ﴾ مفرد مضاف يفيد العموم، والمعنى: كل أمة عصَت رسولَ ربِّها الذي أُرسل إليها، فأهلكهم ﷻ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾: أي: زائدة على الحدِّ والمقدار الذي يحصل به هلاكهم.

١١-١٢ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾: أي: بالطوفان زمن نوح ﷺ، ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾: وهي السفينة؛ فإن الله تعالى حمل نوحًا ومَن آمن معه في السفينة، وأنجاهم من الطوفان، وأهلك أهل الأرض جميعًا غيرهم. ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾﴾: أي: أنه أبقى لهم من جنس هذه السفينة ما يركبون عليها في البحر؛ للعظة والعبرة.

١٣-١٨ ذكر الله تعالى في هذه الآيات أهوال يوم القيامة فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: أي: نفخة البعث والنشور، ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾؛ لأن الله تعالى لا يُغالَب، ولا يُمانَع، ولا يحتاج إلى تكرار كالمخلوق. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾﴾؛ وذلك لأن الأرض تُبدَّل يوم القيامة، ويُزال ما عليها من جبال وأودية، وتُمدُّ مَدَّ الأديم -أي: مدَّ الجلد-. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾: أي: قامت القيامة، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾﴾: أي: ضعيفة، ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾: أي: على أطرافها، أو على ما استدقَّ من السماء، أو على ما لم يضعف منها، ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾﴾: أي: من الملائكة؛ وهم حملة العرش، وهذا العرش هو أعظم المخلوقات وسقفها، ويحمله الآن أربعة أملاك، وفي يوم القيامة يحمله ثمانية، ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾﴾: أي: يوم القيامة يُعرَض الخلائق على الله، لا تخفى على الله منهم خافية؛ وكيف يخفى عليه شيء منهم وهو الذي خلقهم وأوجدهم من العدم؟!

١٩-٢٤ ذكر الله تعالى في هذه الآيات ثواب المؤمنين في الآخرة؛ وهم الذين آمنوا بالله، وصدَّقت أعمالُهم وأقوالُهم ما في قلوبهم من الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾: فكل واحد منهم يُعطى كتابه بيده اليمنى، فإذا أُعطي كتابه بيمينه أخذه فرحًا مسرورًا، وكل مَن لقيه قال له: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾﴾. وأما قبل ذلك فقد تكون له سيئات، فإذا غَفَرَ الله له سَلِمَ من شرِّها. ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾﴾: أي: إني كنت متيقنًا بلقاء الله ﷻ وحسابه، فأعددت لهذا اليوم عدَّته بالإيمان والعمل الصالح، ومَن كانت هذا حاله كان جزاؤه أنه: ﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾﴾؛ فهو يعيش عيشةً راضية مرضية؛ لما فيها من الحبور والنعيم المقيم، وزوال المنغصات والمكدرات من الهموم والأسقام والهرم والموت وغير ذلك. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾﴾: أي: مرتفعة، وهي درجات، فيكون في الدرجة المناسبة لعمله، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ :أي: قريبة، فإذا أراد ثمرة أتت إليه وهو على سريره دون أن يطلبها، ثم يُقال لهم تكرمةً وتهنئةً: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾: أي: بسبب ما أسلفتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾: أي: في أيام الدنيا. فالعمل سبب لدخول الجنة؛ لكن دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، فمَن جاء بالسبب نالته الرحمة فدخل الجنة، ومن لم يأتِ بالسبب لم تنله الرحمة فلا يدخل الجنة.

٢٥-٣٧ ثنّى الله بذكر حال أهل النار؛ حتى يجمع المؤمن بين الترغيب والترهيب، ويسير إلى ربّه بين الخوف والرجاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وفي آية الانشقاق: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق : ١]؛ والجمع بينهما: أنه يُؤتى كتابه بشماله ملويةً وراء ظهره، فيَصْدُق عليه أنه يُؤتى كتابه بشماله، ويصدُق عليه أنه يُؤتى كتابه من وراء ظهره، فإذا أُعطِي هذا الكتاب وفيه أعماله السيئة تحسَّر وتمنَّى أنه لم يُعطَ الكتاب، ولهذا يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾﴾: أي: يا ليتني ما عرفت عن الحساب شيئًا، ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: يا ليتني مت ولم أحيَ بعد ذلك، فيتمنى أن لو كان الموت هو النهاية ولا بعث بعده، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾﴾: أي: ما نفعني المال؛ لأنه جمعه من حرام ومتشابه ولم يؤدِّ حقوقه، فصار وبالًا عليه، ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾: أي: ذهب عني السلطان والجاه والمعينون والمساعدون كلهم، ففي يوم القيامة لا ينفع إلا العمل، أما المال والجاه فلا يكون منهما شيء ينفع الإنسان، إلا ما استعمله في طاعة الله، وخدمة دينه. وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾: أي: اجعلوا الأغلال في عنقه، ثم يُجَرُّ بها ويُلقى في النار، ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾؛ فتصلاه النار وتحيط به من جميع الجهات، وهذا في حقِّ الكافر، أما المؤمن العاصي إذا دخل النار؛ فإنها لا تحيط به من جميع الجهات، فلا تأكل النار مواضع السجود منه.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾: وهي بطول ذراع المَلَك؛ فهي سلسلةٌ عظيمة، ﴿فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾: فتدخل هذه السلسلة من دُبره وتخرج من فَمِه، ويُسلَك في هذه السلسلة ومعه غيره، ويُنظَمون كما يُنظم الجراد في السلسلة. ثم ذكر الله أعماله السيئة التي كانت سببًا في شقائه وعذابه فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾﴾؛ فهو أساء في عبادة ربه، فلم يُوحِّد الله تعالى، ولم يعمل صالحًا، وأساء إلى عباد الله، فهو لا يحضُّ على إطعام المسكين وإعطائه حقه. ثم قال تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾: أي: قريب ينفعه ويمنع عنه عذاب الله؛ ومن باب أولى مَن كان بعيدًا عنه؛ وإنما خصَّ الحَميم؛ لأنه في الغالب يحرص على نفع حميمه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾﴾؛ وهو ما يسيل من صديد أهل النار، ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾: الخاطئ: المذنب المتعمد للخطأ، أما المخطئ: فهو الذي لم يتعمد. وأعظم الخطأ والذنب: الكفر بالله ﷻ.

٣٨-٤٣ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: بما تشاهدونه من المخلوقات؛ كالأرض، والسماء، وغيرهما. ﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: وبما لا تشاهدونه؛ وهو ما غاب عنهم فلم يشاهدوه. وهذا القَسَم هو أعمُّ قَسَمٍ في القرآن الكريم، فهو يَعمُّ كل الخلق، بل ويدخل فيه نفسه المقدَّسة. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي: هذا القرآن ﴿لَقَوۡلُ

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾؛ وهو محمد ﷺ، وأضافه إليه؛ لأنه قاله مبلغًا عن الله، ولم يأت بشيء من عنده. ثم ردَّ الله على مَن قال: إن القرآن الكريم شعر أو كهانة؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: قليلًا إيمانكم، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: قليلًا تذكُّركم. ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾: وهذا فيه: أن القرآن كلام الله وصفة له سبحانه، منزَّل غير مخلوق، وفيه: إثبات علو الله ﷻ؛ لأن النزول يكون من أعلى إلى أسفل.

٤٤-٤٧ بيَّن الله تعالى في هذه الآيات أن نبيَّه ﷺ مؤتمنٌ على الوحي، وأنه أدَّاه كما سمعه، ولم يُغيِّر منه شيئًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾: ﴿لَوْ﴾: حرف امتناع لامتناع، وهذا شرطٌ تقديري لا يكون؛ وإنما ذلك لبيان عظم التقوّل على الله، والكذب عليه، وإلا فالرسول ﷺ معصوم من أن يتقوَّل على الله الأقاويل، وكذلك جميع الأنبياء، والمعنى: لو كذب الرسول ﷺ على الله لعاجله الله بالعقوبة، ولا يمكن أن يبقيه مدةً طويلة، ولهذا قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾: أي: لانتقمنا منه باليمين؛ لأن العادة أن اليمين تكون أقوى حالًا بالنسبة للمخلوقين، والله تعالى كامل في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى، والمخلوق أشد بطشًا باليمين. وقيل: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: أي: بيمينه أي: لأخذناه بيد اليمنى على عادة العرب، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾: و ﴿ٱلْوَتِينَ﴾: عِرقٌ متصلٌ بالقلب إذا قُطع مات الإنسان من ساعته، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: أنه لا يستطع أحدٌ أن يمنع عنه عذاب الله إذا نزل به. وفي هذه الآيات: إثبات النبوة بالعقل الذي أرشد إليه القرآن؛ وذلك أن الله يؤيِّد أنبياءه ورسله بالآيات -المعجزات-، وأما الكَذَبة الذين يدَّعون النبوة؛ فإن الله يعاجلهم بالعقوبة، ولا يمكن أن يبقوا مُدَّة طويلة. وفيها: أنه ﷺ بارٌّ راشدٌ صادقٌ؛ وقد كَثُر أتباعه، ودعوتُه ما زالت مستمرة، ولا تزال إلى قيام الساعة.

٤٨ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: إنَّ هذا القرآن تذكرةٌ وموعظة؛ لكن ليس لكل أحدٍ، بل للمتقين.

٤٩-٥٠ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم مَن يكذِّب بهذا القرآن، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: قيل: التكذيب، وقيل: القرآن، ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾. والمعنى على القول الثاني: أن هذا القرآن الذي هو تذكرة وموعظة؛ هو بالنسبة للكافرين حسرة، فإنه لا يزيدهم إلا شرًّا وطغيانًا وكفرًا.

٥١-٥٢ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أي: لخبرٌ صادق حقٌّ لا مرية فيه ولا شك، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: عظِّم ربَّك بالتسبيح؛ فهو تعالى العظيم، وهذه الآية قال فيها النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، والتسبيح الوارد في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[1].

سُورَةُ المَعَارِجِ

١-٤ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾: أي: استعجل سائل، فالسؤال سؤال استعجال، ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾: أي: لا بد أن يقع لا محالة؛ وهو عذاب يوم القيامة. وهذا من عادة الكفار؛ أنهم يستعجلون العذاب؛ بسبب ما كُتِب عليهم من الجهل والضلال والشقاء. وقوله تعالى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾: أي: ليس لأحد أن يدفعه ويمنعه عنهم، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: قدَّره وقضاه ﷻ، ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾: الأقرب: أن ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ هي المصاعد؛ لأن الصعود يكون إليه ﷻ، فهو في أعلى العلو؛ فوق العرش ﷻ، والدعوات والملائكة والأرواح تصعد إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ قيل: هو جبريل، وقيل: هو جنس الأرواح، ولا مانع من شمول الآية للمعنيين. وقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾: يحتمل: أنَّه المسافة ما بين العرش إلى الفرش يوم القيامة، ويحتمل: أنه مدة اليوم الذي هو يوم القيامة.

٥-٧ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ أي: اصبر يا محمد على مقالاتهم، ولا تستعجل لهم. ﴿إِنَّهُمْ﴾: أي: الكفَّار ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾: أي: يوم القيامة ﴿بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾: أي: مستحيل الوقوع؛ لأنهم يكذِّبون به، والتكذيب بيوم القيامة كفر وردة، ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾: أي: ويراه المؤمنون قريبًا؛ لأنهم يُصدِّقون ويؤمنون به، ويتيقنون وقوعه، وإن كانوا لا يعلمون متى يقع؛ لأنه لا يعلم ذلك إلا الله ﷻ؛ لكن اليقين الذي في قلوبهم جعلهم يرونه قريبًا؛ وكل ما هو آتٍ فهو قريب.

٨-٩ بيَّن الله تعالى في هذه الآيات وقت وقوع العذاب على هؤلاء الكفَّار؛ وأنه واقع بهم يوم القيامة حين يفسد نظام هذا الكون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾: أي: عَكِر الزيت، في اللُّيونة والحَرَكة واللَّون؛ وذلك من شدة الهول يوم القيامة؛ فهي ليِّنة بعد أن كانت صلبة؛ وهي تضطرب وتتحرك بعد أن كانت ثابتة، ولونها كلون الزيت؛ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾: أي: كالصوف المنفوش، مع أنها كانت في الدنيا راسية قوية ثقيلة، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾: أي: من شدة الهول لا يسأل القريب عن قريبه.

١٠-١٤ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: يبصَّرُ القريب قريبه، ويرى ما هو فيه، لكن لا يسأل عن حاله؛ لأنه مشغول بنفسه. بل إنه يتمنى أن يكون له مَن يفتديه من العذاب ولو كان من أقاربه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: الذي فعل الإجرام، وأعظم الجُرْم الشرك بالله، ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾: أي: بأبنائه؛ مع أنهم فلذات كبده، وقطعة منه؛ لكنه يتمنى لو يفتدي بهم من عذاب يوم القيامة؛ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾: أي: ويتمنى لو يفتدي من العذاب بصاحبته أي: زوجته، وأخيه، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ ﴿فَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته وقبيلته وفخذه الذي هو منهم، ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾؛ فهو يتمنى أن يفتدي بكل شيء ويَسْلم من العذاب، لكن هيهات، فلن يُقبل منه شيءٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وصححه ابن حبان (١٨٩٨)، والحاكم (٨١٨).

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾

١٥-١٨ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾: أي: النار، و﴿لَظَىٰ﴾: اسمٌ من أسمائها، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾: أي: من شدة حرِّها تنزع جلد الرأس، أو جلد الساقين، أو تُقطِّع العظام، ﴿تَدْعُوا۟﴾: الضمير يعود إلى النار، ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾: أي: أدبر بقلبه عن الإيمان والتوحيد، فهو مكذِّب بقلبه، ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي: أعرض بجوارحه عن العمل، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾: أي: جمع المال من الحلال والحرام؛ فهو لا يتحرَّى الطَّيِّبَ من الكسب، ثم أمسكه ولم يؤدِّ حقَّ الله فيه من الزكاة وغيرها.

١٩-٣٥ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾: المراد بـ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: جنس الإنسان؛ فالأصل في الإنسان أنه هلوع، والهلوع فسَّره ما بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾: أي: إذا أصابته المصائب والنكبات كالفقر والمرض ونحو ذلك، جزع وتسخَّط على قضاء الله وقدره، ولم يتحمل ويصبر على ما أصابه، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾: أي: إذا حدثت له نعمةٌ ومال، منع الواجبات، ولم يؤدِّ ما أوجب الله عليه، وهذا هو الأصل في الإنسان، إلا مَن عصمه الله ووفَّقه واتصف بهذه الصفات التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات فإنه يخرج من هذا الأصل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾: وهم الذين يحافظون على الصلوات في أوقاتها، ويؤدونها باطنًا وظاهرًا؛ باطنًا بالإخلاص وحضور القلب، وظاهرًا بأداء الواجبات والأركان والشروط. ثم وصف الله هؤلاء المصلين بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: مستمرون على أدائها والمحافظة عليها. وقيل: ﴿دَآئِمُونَ﴾: أي: يداومون على العمل الصالح؛ أي: أنهم إذا عملوا عملًا أثبتوه وداوموا عليه. وقيل: ﴿دَآئِمُونَ﴾: من السكون والطمأنينة، بمعنى: أنهم يسكنون في صلاتهم ويطمئنون فيها، ويحضرون قلوبهم؛ فلا يفكِّرون في أمور الدنيا، ولا مانع من إرادة هذه المعاني كلِّها. ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾: أي: نصيبٌ مُقرَّرٌ سوى حَقِّ الزكاة، وقيل: إن هذا الحقَّ كان بمكة قبل فرض الزكاة؛ لأن السورة مكيَّة. ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ أي: مَن يسأل الناس، فهذا يُعطى إلا إذا عُلِمَ أنه ليس مستحقًّا. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾: أي: المحتاج الذي لا يسأل، أو الذي حُرِمَ ماله بآفة اجتاحته، أو فاقةٍ أصابته، أو ما أشبه ذلك، فهذا يعطى أيضًا. وليس المراد بـ ﴿ٱلْمَحْرُومِ﴾: مَن له مال؛ لكنه لا ينفقه؛ كما تقول العامَّة، وهذا الحق للسائل والمحروم إنما يكون بعد أداء الواجبات من الزكاة والكفَّارات والنذور والنفقة على الأهل والأولاد. ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ أي: يؤمنون ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾: أي: بيوم الجزاء والحساب، وإيمانهم به يحملهم على أداء الواجبات، وترك المحرمات، وعلى فعل الأوامر، واجتناب النواهي. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: خائفون وجلون. والخوف الصحيح المحمود هو الذي يحمل الإنسان على أداء الواجبات وترك المحرمات. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: لا يأمنه الإنسان، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: حافظون لها عما حرَّم الله عليهم، إلا مَن أباح الله لهم كالزوجات والسراري، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: أي: تجاوز ما حدَّ الله له من الزوجات والإماء، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾: أي: المعتدون الذين تجاوزوا حدود الله. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾: فلا يخونون الأمانة، ولا ينقضون العهد. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: يؤدون الشهادات؛ فلا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: يحافظون على شروطها وأركانها وواجباتها، وكما ابتدأ الصفات بالصلاة ختمها بالصلاة، وهذا يدل على أهمية الصلاة، وأنها أفرض الفرائض، وأوجب الواجبات، وأعظم العبادات؛ بعد توحيد الله ﷻ. فهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات مستَثْنَوْن من الهلع، فهم لا يجزعون إذا أصابهم الشر، ولا يمنعون ما أوجب الله عليهم إذا حصلوا على الخير والمال، وهؤلاء هم الفائزون بالجنات، ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: مكرَمون بأنواع الملذات التي يتنعمون فيها.

٣٦-٣٩ يُنْكِر الله تعالى على الكفار المعاصرين للنبي ﷺ، الذين شاهدوا ما أيَّده الله به من المعجزات؛ فيقول تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مسرعين نافرين منك، لا يرغبون فيما جئتهم به من الهدى والنور. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: متفرِّقين؛ أفراد منهم عن اليمين، وأفراد منهم عن الشمال، وهذا فيه: بيان حال الكفار الذين لم يقبلوا دعوة الله، ولم يقبلوا هدى الله. وقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾: هذا إنكار عليهم، والمعنى: كيف يطمعون في دخول الجنة وهم نافرون شاردون عن اتباع الحق، لم يقبلوا دعوة الله، ولم يتبعوا رسول الله ﷺ، فلا يمكن أن يدخلوا جنة النعيم، وهذه حالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾: ردع وزجر، أي: لا يمكنهم دخول الجنة إلا بالإيمان بالله ورسوله، واتِّباع الحق. ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: من نطفة، وهم يعلمون هذا، ويقرون بذلك، فكيف ينكرون البعث مع أنَّ البعث والإعادة أهون على الله، وكله هيِّن على الله؛ فإذا كانوا يقرون بأن الله هو الخالق، وهو الذي ابتدأ خلقهم؛ فيلزمهم أن يقروا بالبعث.

٤٠ في هذه الآيات قسم برب المشارق والمغارب، وقد جمعت المشارق والمغارب باعتبار كل يوم؛ أي: مشرق كل يوم، ومغرب كل يوم، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

٤١ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ فأقسم سبحانه على أنَّه قادر على تبديل أجسامهم أجسامًا أخرى يوم القيامة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: بعاجزين، فهو سبحانه قادر على كل شيء، وهذا فيه تحذيرٌ لهم من الاستمرار على كفرهم، وأن الله قادر على أن يعيدهم ويبعثهم، ويُنشِّئَهم تنشئةً أخرى بأجسامهم، ثم يحاسبون ويجازون إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

٤٢-٤٤ في هذه الآيات: تهديد من الله للكفار في استمرارهم على عنادهم وكفرهم وتكذيبهم، وأنَّ العذاب ينتظرهم يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾: أي: اتركهم يا محمد فيما هم فيه؛ فإنهم يخوضون ويلعبون في آيات الله ويستهزئون بها، ويستكبرون عن عبادة الله، والمقصود بهذا الأمر: التهديد والوعيد، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾: وهو يوم القيامة الذي وعد الله فيه أن يجازيهم على أعمالهم. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾: أي: مسرعين، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: يسرعون، والـ ﴿نُصُبٍ﴾: بضم النون والصاد أي: صنم، والمعنى: كما أنهم كانوا في الدنيا يسرعون إلى أصنامهم، ويهرولون للوصول إليها أيهم يستلمها أولًا، فكذلك يوم القيامة يسرعون إلى الداعي إلى مكان المحشر، وقرئ بفتح النون وإسكان الصاد: ﴿إِلَىٰ نَصْبٍ﴾ أي: إلى عَلَمٍ يسعون إليه، ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة مستكينة، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ومسكنة، فلما كانوا في الدنيا مستكبرين؛ بدَّل الله استكبارهم ذلَّةً يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾؛ وهو يوم القيامة.

سُورَةُ نُوحٍ

١-٤ بيَّن الله تعالى في هذه الآيات: أنه أرسل نوحًا عليه السلام إلى قومه بالنذارة، والأمر والنهي، فقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ خاصةً، أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسله الله للناس كافّة. ونوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك؛ وذلك أنه كان في زمن نوح أناس صالحون؛ وهم: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، ثم ماتوا وتقاربت وفاتهم، فحزنوا عليهم، فقالوا: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فصوَّروهم، ثم لما طال عليهم الأمد، وطال بهم العهد، وجاء أحفادهم بعدَهم؛ دبَّ إليهم الشيطان وأوحى إليهم بأن آباءكم إنما صوَّروا هذه الصُّوَر؛ لأنهم يستسقون بهم ويدعونهم، فعبدوهم من دون الله، فحدث الشرك فيهم بسبب تصوير الصالحين، ثم الغلو والعكوف على قبورهم، فلما حدث الشرك بعث الله نوحًا عليه السلام إلى قومه وقال له: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾: أي: أنذرهم وخوِّفهم بأس الله تعالى ونقمته إن استمروا على شركهم، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾: أي: من قبل أن يَحِلَّ بهم العذاب في الدنيا بالعقوبات والمصائب والنكبات، والعذاب الأليم في الآخرة. فنادى نوح في قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾: أي: بيِّن النذارة. ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: أخلصوا له العبادة، وهذا أصل الدِّين، وأساس المِلَّة، وهو أصل دعوة نوح عليه السلام -ودعوة كل نبي- أن يدعو قومه إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، وأن ينهاهم عن الشرك به، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: اجعلوا بينكم وبين سخطه وغضبه وقاية تقيكم؛ والتقوى هنا المراد بها: اجتناب النواهي؛ لأنها قُرِنَت بالطاعة؛ والطاعة هي امتثال الأوامر، ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾: أي: فيما أمرتكم به، فإني آمركم بما أمر الله به، وطاعة الرسول من طاعة الله. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: إن عبدتم الله، واتقيتموه، وأطعتموني؛ غفر الله لكم ذنوبكم، فإن ﴿مِّن﴾ بيانية، والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم كلَّها؛ لأنه أمرهم بعبادة الله، وتقوى الله، وطاعته؛ وهذا يوجب مغفرة صغائر الذنوب وكبائرها. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: يُنْسِئ لكم في أعماركم، وفيه: دليل أنَّ الأعمال الصالحات تزيد في العمر حقيقةً، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾: أي: إذا أجَّل الله شيئًا، وحَدَّ له حدًّا؛ فإنه لا يؤخَّر، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]. والمعنى: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة.

٥-١٠ في هذه الآيات الكريمات بيان دعوة نوح عليه السلام لقومه؛ فإنه عليه السلام من أولي العَزْم من الرسل، وقد صبر صبرًا عظيمًا في الدعوة؛ ومكث في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وسلك جميع الوسائل والسُّبل في دعوتهم، وفي إيصال الحق إليهم، ولكن لم يؤمن به إلا قليل، وهم الذين ركبوا معه في السفينة؛ ولهذا قال شاكيًا إلى ربِّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾: أي: أنَّه دعاهم في جميع الأوقات المناسبة من الليل ومن النهار، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾: أي: إلا نفورًا وإعراضًا، وعتوًا واستكبارًا، ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: أي: سدُّوا آذانهم لئلا يسمعوا كلامه، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾: أي: أنهم غطوا رؤوسهم لكيلا يسمعوا كلامه، ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾: أي: أنهم استمروا على ما هم فيه من الشرك، وتركوا الحق عن عنادٍ وكِبْرٍ. ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾: فنوَّع في دعوتهم بين الجهر والإعلان والإسرار، وسلك جميع الطُّرُق والوسائل؛ حتى يحصل المقصود، وهذا من حرصه عليهم، ونصحه لهم. ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: أي: توبوا إليه، واطلبوا منه المغفرة؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾: أي: كثير المغفرة لمن استغفره وتاب إليه وأناب. ثم بيَّن لهم الثمرة الحاصلة لهم؛ إن هم تابوا إلى ربهم واستغفروه.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

(١١-٢٠) فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾: أي: متواصلة بالأمطار، فتحصل لكم خيرات كثيرة مما ينبت لكم من الزروع والثمار، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾: وكل هذه الأرزاق من ثمرات التوبة والاستغفار. ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾: أي: ما لكم لا تُعظِّمون الله حقَّ عظمته، وتستجيبون لأمره، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾: أي: طورًا بعد طَور؛ أي: يكون الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكتمل الخلق بعد ذلك، ثم إذا خرج للحياة كان طفلًا ثم صبيًّا ثم شابًّا ثم كهلًا ثم شيخًا. ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾: أي: بعضها فوق بعض، وهي شاهدة على قدرته ووحدانيته، وأنَّه المعبود بالحق، ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: أي: نوره في السماوات، وليس المراد: أنه داخل السماوات، فذلك ليس بلازم، ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾: أي: جعل في الشمس حرارة وضياء؛ فالقمر نورٌ بدون ضياء، والشمس نور مع ضياء وإحراق، ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾: أي: أخرجكم من الأرض بخَلْقِ أبيكم آدم من التراب، وأنتم خُلقتم من نطفة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالموت، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾: بالبعث، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾: أي: مسهَّلة مبسوطة ممهَّدة قارَّة؛ تستقرون عليها، وتبنون عليها، وتقضون فيها حوائجكم، وتستخرجون المعادن منها، وتحفرون الآبار فيها. ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾: أي: لتسلكوا منها طُرقًا في الأسفار أينما شئتم من نواحيها وأرجائها.

(٢١-٢٤) في هذه الآيات بيان شكاية نوح عليه السلام إلى ربِّه استمرار قومه على عتوِّهم وعنادهم، واستكبارهم عن الحق، وتماديهم في الكفر والضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ فلم يمتثلوا أمرَه في توحيد الله جل جلاله، وإخلاص العبادة له، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾: أي: أنهم اتبعوا الكفرة ممن أعطاهم الله المال والولد؛ فاستكبروا عن عبادة الله. وهؤلاء أعطاهم الله المال والولد استدراجًا، ولهذا لم يزدهم ذلك إلا خسارًا. ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾: أي: مكرًا عظيمًا؛ وهذا المكر الكُبَّار هو أنهم سوَّلوا لهم الاستمرار على ما هم عليه من الكفر، والتمسُّك بما هم عليه من عبادة الأصنام، ولهذا قالوا لهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾: أي: لا تتركوها، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾؛ بل استمروا في عبادتها، وهذه أسماء رجال صالحين، كما تقدم بيان ذلك أول السورة، ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ﴾: أي: فمع عبادتهم غير الله تعالى ولا ضلال أعظم من ذلك، فإنهم قد أبعدوا كثيرا من الناس عن الحق، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾: وهذا دعاء عليهم بأن يزيدهم الله ضلالًا؛ لأنهم لم تنجع فيهم الدعوة، ولم يستجيبوا مع طول المدة.

(٢٥-٢٨) قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾: (مِنْ) سببية، والمعنى: بسبب خطيئاتهم، وأعظمها الكفر، ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ في الطوفان الكائن من انشقاق السماء بالماء، وانفجار الأرض بالعيون، ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾: أي: نُقلوا من البحار إلى حرارة النار؛ فذهبت أجسادهم للغَرَق، وأرواحهم للنار والحَرَق، وهذا هو الشقاء الأبدي، والعياذ بالله. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾: أي: ليس لهم أحدٌ يمنع عنهم عذاب الله. ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾: لا تترك منهم أحدًا يدور ويمشي، أو لا تترك منهم ساكنًا دارًا؛ وذلك بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم أخبره الله جل جلاله بأنه لن يؤمن أحد منهم في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:]. فعَلِمَ أنه لا حيلة فيهم، ولا خير منهم، فدعا عليهم بالهلاك جميعًا، فاستجاب الله له، وأمره أن يصنع السفينة، وأن يركب فيها هو ومَن آمن، وأغرق الله أهل الأرض. وقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾: هذا عن إخبارٍ من ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وليس تألِّيًا وتجرُّأً على الله. ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: وهذا يدل على أن والديه كانا مسلمَين، ولو كانا مشركَين لأنكر الله عليه، كما أنكر عليه في ابنه، ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾: البيت على ظاهره، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۖ﴾: وهذا عام يشمل الأحياء والأموات من الذكور والإناث، وفيه: مشروعية أن يدعو المسلم لنفسه بالمغفرة ولوالديه ولجميع المؤمنين؛ تأسيًا بنوح عليه السلام. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: المشركين؛

سُورَةُ الجِنّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣

فالشرك أعظم الظلم، ﴿إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾: أي: إلا هلاكًا وخسارًا.

سُورَةُ الجِنّ

(١-٢) ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد، ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: أي: إلى السداد والنجاح، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾: صدقنا وأسلمنا وانقدنا لشرع الله دينه، ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ ﴿لَن﴾: أداة نفي، و ﴿أَحَدًا﴾: مفرد في سياق النفي فيعم، والمعنى: أنهم نفوا أن يشركوا بالله تعالى أحدًا من خلقه، فهو سبحانه وحده المستحق للعبادة، ولا أحد يستحق العبادة غيره.

(٣) ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: أي: ارتفعت عظمته وعلا قدره وشأنه ﷻ. ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾: وهذا من تعظيمهم لله تعالى؛ فآخر الآية يدل على أوّلها؛ وأن المراد بالـ ﴿جَدُّ﴾ هنا: العظمة.

(٤) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾: اسم جنس، ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾: أي: جورًا وظلمًا بما لا يليق به تعالى. فكل مَن يقول على الله جورًا وظلمًا فهو سفيه؛ وأولهم إبليس.

(٥) أي: ما ظننا أن الإنس والجن يتمالؤون ويتجرؤون على الكذب على الله، ويقولون عليه الباطل والزور؛ فلما سمعنا هذا القرآن، وآمنَّا به؛ علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله.

(٦) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: فكان أحدهم في الجاهلية إذا نزل واديًا قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾: قيل: إن ضمير الفاعل «الواو» يعود على الجن، والهاء يعود على الإنس، والمعنى: فزاد الجنُّ الإنسَ رهقًا أي: خوفًا ورعبًا؛ حتى يستمروا في الاستعاذة بهم، ويزداد الإنس خضوعًا وشركًا. وقيل: إن ضمير الفاعل «الواو» يعود على الإنس، والهاء يعود على الجن، بعكس القول الأول، والمعنى: زاد الإنسُ الجنَّ رهقًا أي: تكبُّرًا وتعاظمًا، وكِلَا المعنيين متلازمان.

(٧) في هذه الآية قولان: قيل: إن كلًّا منهم ظنَّ أن لن يبعث الله رسولًا. وقيل: إنهم ظنُّوا أن لن يبعث الله أحدًا بعد الموت.

(٨-٩) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾: وذلك أنه بعد بعثة النبي ﷺ شُدِّدت حراسة السماء، فلا يستمعون شيئًا، وإن استمعوا إلى شيء قليل تأتي الشُّهب لتلاحقهم وتحرقهم، وهذا بخلاف ما كانوا عليه قبل البعثة، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾: أي: للاستماع لخبر السماء، أما بعد بعثة النبي ﷺ، فصارت الشهب تلاحقهم وتحرقهم؛ ولهذا قالوا: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾: أي: مُعَدًّا لهم.

(١٠) لما استنكر الجن ما حدَث في السماء عرفوا أنه لأمر يريده الله بمَن في الأرض؛ فلهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وهذا من أدب الجن مع ربهم تعالى؛ فإنهم لم يضيفوا الشرَّ إلى الله، بل قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾؛ وهذه صيغة المبني للمجهول، وفي الخير أضافوه إلى الله تعالى فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾. ومنه الحديث الصحيح: «والشَّرُّ ليسَ إلَيْكَ»[1] أي: الشر المحض الذي لا حكمة في إيجاده لا ينسب إلى الله، ولا يضاف إليه تعالى، ولا وجود له؛ فإن كل الشرور الموجودة نسبية؛ وليست محضة، ومع أنَّ الله تعالى خالق كلِّ شيء، لكن الشر لا يضاف إلى الله من باب الأدب، والخير يضاف إليه.

(١١) في هذه الآية بيان: أن الجن طبقات وأقسام: مثل الإنس، فمنهم الكافر ومنهم المؤمن، ومنهم اليهودي ومنهم النصراني، ومنهم المجوسي ومنهم الوثني، ومنهم الرافضي ومنهم المبتدع ومنهم السني، فجميع الطبقات الموجودة في الإنس موجودة في الجن.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾: أي: تيقنَّا بعد أن سمعنا هذا القرآن؛ فالظن هنا بمعنى اليقين، ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾؛ لكمال قدرة الله تعالى، وكمال عجزنا.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ وهو القرآن الكريم، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾: أي: نقصانًا في حسناته، ﴿وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾: أي: ظلمًا وعدوانًا بأن يُزاد في سيئاته.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

(١٤-١٥) يخبر الله تعالى عن الجن أن منهم المسلم ومنهم القاسط أي: الظالم، من الفعل الثلاثي: (قَسَطَ) بمعنى: جار وظلم، فالقاسط بمعنى: الجائر والظالم؛ بخلاف المقسط فإنه بمعنى: العادل، من الفعل الرباعي: (أقسط) أي: عَدَلَ. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾: أي: طلبوا لأنفسهمُ النَّجاةَ. ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾: أي: أنهم وقودها.

(١٦-١٧) في معنى هذه الآيات قولان: الأول: أن المراد بالطريقة: الإسلام، والمعنى: لو أنهم استقاموا على طريقة الإسلام والهدى؛ ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾: أي: كثيرًا، والمعنى: لوسَّعنا عليهم في الرزق، ولأنزلنا عليهم الخيرات والبركات ثوابًا مُعجَّلًا لهم في الدنيا، مع ما لهم من الثواب العظيم في الآخرة؛ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾: أي: لنختبرهم هل يشكرون أم يكفرون. والثاني: أن المراد بالطريقة: الضلال، والمعنى: ولو أنهم استقاموا على طريقة الضلال؛ ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾؛ فينزل الله عليهم الخيرات، ويوسِّع عليهم الرزق؛ استدراجًا وامتحانًا، كما استدرج الكفار والعصاة، فالآية فيها هذان المعنيان، وكلاهما صحيح. وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾: أي: عذابًا شاقًّا مستمرًّا. وهذا وعيد شديد لمن أعرض عن ذكر الله وطاعته، واستمر على معصيته.

(١٨) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: جمع مسجد، وهو: ما بُني لعبادة الله تعالى، وقيل: كل ما يُسجد فيه، وهو شامل لجميع أجزاء الأرض؛ لحديث: «جُعلت الأرض مسجدًا وطهورًا»[(١)]. إلا ما ثبت النهي عن الصلاة فيها، كالحمام، والمقبرة، والمجزرة، وغيرها. ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾: أي: فلا تشركوا مع الله غيرَه، والمعنى: أنَّ هذه المساجد لله فلا تشركوا مع الله فيها أحدًا، والعموم ظاهر على القول الثاني، أما على القول الأول فيكون تخصيص المساجد أن تُنَزَّه عن الشرك وما ينافي الإخلاص لله تعالى، كما أن الشرك منهيٌّ عنه في كل مكان، لكن تخصيصها لتشريفها. وقيل: المراد بـ ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: أعضاء السجود، والمعنى: فلا تسجدوا بها لغير الله تعالى. وكلُّ هذه الأقوال صحيحة؛ فالإنسان مأمور بألَّا يسجد إلا لله تعالى، وإن كان المعنى الأول هو المتبادر.

(١٩-٢٣) ﴿لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ اللبد: هو الكثير المجتمع، والمعنى: أنَّ الجن اجتمعوا وتزاحموا لما استمعوا قراءة النبي ﷺ. وقيل: إن المعنى: أن الجنَّ والإنس اجتمعوا عليه وعادَوه؛ لإبطال دعوته، وإطفاء نور الله، وهذا المعنى هو الظاهر، ولهذا أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾: أي: إنما أعبد الله وحده، وأدعو إليه، ولا أشرك به أحدًا. ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾؛ وإنما ذلك بيد الله ﷻ. ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾: أي: لو عصيته؛ فإنه لا يقدر أحدٌ على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾: أي: لا نصير ولا ملجأ. ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾: يحتمل أنه استثناء منقطع من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾؛ والمعنى: إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا، لكني أملك تبليغ الرسالة. ويحتمل أنه استثناء من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾: أي: أنه لن يجيرني ويخلصني إلا تبليغ الرسالة. وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾: المراد بالمعصية هنا: معصية الشرك والكفر؛ فالخلود هنا: بمعنى التأبيد في النار؛ لقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ فالكافر يخلَّد في النار أبد الآباد.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾ أي: الكفار من الجن والإنس ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾: أي: يوم القيامة من الحساب والجزاء، والجنة والنار، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أهم الكفرة أم المؤمنون؟ ولا شك أنهم الكفرة؛ فليس لهم ناصر يوم القيامة، وعددهم أقل من جنود الله، أما المؤمنون فإن الله تعالى وليُّهم وناصرهم. وهذه الآية فيها وعيد شديد لمن عصى الله واستمر على شركه وعناده من الكفار.

(٢٥-٢٨) يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بأن يقول للمستعجلين لوقت عذابهم يوم القيامة: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾: أي: لا أعلم أقريبٌ أم بعيد وقت عذابكم؛ وهو يوم القيامة. وفيه: بيان أن النبي ﷺ لا يعلم متى وقت الساعة؛ لأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله، ولهذا قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ فالرب سبحانه هو الذي يعلم الغيب، ويعلم متى تقوم الساعة، ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: أي: رسول بشري أو رسول ملكي، فيطلعه الله تعالى على بعض المغيبات بما تقتضي حكمته سبحانه، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾: أي: يَخْتَصُّ بمزيد مُعَقِّباتٍ منَ الملائكة يحفظونه. ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: أي: ليعلم الله ﷻ أن الرسول ﷺ بلَّغ رسالة ربِّه أي: ليعلم ذلك علم ظهور يترتب عليه الثواب والعقاب، وإلا فهو سبحانه عالم بالأشياء قبل كونها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾: فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء، وهو يعلم ما كان في الماضي، ويعلم ما يكون في الحاضر، ويعلم ما سيكون في المستقبل، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

(١-٤) في هذه الآيات يخاطب الله نبيَّه ﷺ فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾: ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ و ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بمعنى واحد؛ وهو الذي تغطَّى وتغشَّى بالثياب. ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾: أي: انهض لقيام الليل، وهذا الأمر يفيد الوجوب، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ والأمَّة في السَّنة الأولى، ثم خُفِّف عن الأمة، ونُسِخَ الوجوب في حقِّها، وبقي الاستحباب؛ ومع أن قيام الليل ليس واجبًا، لكن ينبغي على المؤمن أن يعتني به، فإن فضله عظيم، وهو دأب الأنبياء والعلماء والصالحين والأخيار، وله مدخل كبير في صلاح القلوب وصلتها بالله ﷻ. وقوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾: أي: قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلًا أو زِدْ على النصف قليلًا، فلا حرج عليك في ذلك. ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾: أي: بقراءته بتمهُّل وإخراج الحروف من مخارجها، وعدم الإخلال بحروف المدِّ الطبيعية، أما الالتزام بأحكام التجويد الأخرى التي ذكرها القُرَّاء؛ فهذا عند المحققين من باب الاستحباب، وليس من باب الوجوب. والأمر بترتيل القرآن؛ لأنه وسيلة إلى التدبر، وظاهر النصوص: أن التدبر واجب حسب الإمكان؛ لأن الله تعالى أنكر على مَن لا يتدبر.

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا﴾: وهو: القرآن الكريم ﴿ثَقِيلًا ٥﴾: أي: ثقيلًا في العمل به، وثقيلًا في نزوله من أجل عظمته. ووجه كونه ثقيلًا في العمل به: أن تكاليفه فيها ثقل ومشقة؛ ولكنها مشقةٌ محتملة، ووجه كونه ثقيلًا في نزوله: عظمته، وقد كان يحصل للنبي ﷺ شدة عند نزوله عليه، حتى إنَّه إذا نزل عليه في اليوم الشديد البرد يتفصد جبينه عرقًا. وقيل: إن معنى ﴿ثَقِيلًا﴾ أي: في ترتيله، وفيه مشقةٌ محتملة.

(٦) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: قيل: هي قيام الليل بعد نومة، ولا تسمى ناشئة إلا بعد نومة، وقيل: هي قيام الليل كله سواء كان قبله نوم أو لم يكن قبله نومٌ، وهذا هو الظاهر؛ لكن ساعات آخر الليل أفضل؛ لأنَّه وقت التنزل الإلهي. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾: أي: أنَّ قراءة الليل أشد مواطأة وموافقة بين القلب واللسان، ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾: أي: وأجمع للخاطر. وهذا فيه أن صلاة الليل لها فضل على صلاة النهار؛ وذلك لأن الليل تهدأ فيه الحركة واللغط؛ فتكون قراءة الليل أشد مواطأة وموافقة للقلب، وأعون على التدبر، وأجمع للخاطر.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾: أي: وقتًا طويلًا وفراغًا ومتسعًا لقضاء الحوائج، ففرغ نفسك لقيام الليل، واقض أشغالك في النهار فإنه وقتٌ طويل.

(٨) ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: هذا عام يشمل القرآن الكريم وغيره، ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾: أي: انقطع إليه في العبادة، واستمر عليها.

(٩) ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهذا باعتبار الجنس؛ أي: جنس المشرق، وجنس المغرب، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لا معبود بحقٍ سواه، وهذا هو معنى كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)، ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾: أي: اعتمد عليه، وتوكَّل عليه، وفوِّض إليه أمورك.

(١٠) ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: أمر تعالى نبيَّه ﷺ بالصبر على قولهم عنه بأنه ساحر ومجنون وشاعر، ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾: أي: اتركهم هجرًا لا عتاب فيه، وتحمَّل الأذى؛ فإن الله كافيك؛ والعاقبة الحميدة لك ولأتباعك.

(١١-١٤) ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾: أي: اتركني وهؤلاء المكذِّبين أصحاب النَّعْمة والتَّرَف الذين حملهم ترفُهم على الكفر بالله، والاستكبار عن عبادته، ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾: أي: وأمهلهم الدنيا كلها؛ فإنها كلها متاع قليل؛ فسوف يلقون جزاءهم، ويأتيهم العذاب إن عاجلًا أو آجلًا، وهذا تهديد ووعيد شديد لأهل الترف والأموال؛ وهم هنا على وجه الخصوص كفار قريش. ثم بيَّن الله تعالى هذا الجزاء فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾: أي: قيودًا يُقيَّدون بها، ﴿وَجَحِيمٗا ١٢﴾؛ وهي النار التي اشتدَّ حرُّها، ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾؛ وهو الضَّريع؛ وهو طعامٌ كالشوك، إذا أكله الكافر غَصَّ به، واستقر في حَلْقِه فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾: أي: موجعًا، وهو عذاب النار، وهذا من باب عطف العام على الخاص. ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ أي: يوم تزلزل الأرض وتضطرب بعد أن كانت ثابتة مستقرة، وتُدَكُّ الجبال التي هي حجارة قوية، وصخور صماء ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾: أي: كالرَّمْل، ثم بعد ذلك تتلاشى وتزول وتُسيَّر كأنها سراب. وهذه الآيات فيها التهديد والوعيد للكفار مما ينتظرهم يوم القيامة، وما فيه من الأهوال.

(١٥-١٦) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾؛ وهو محمد ﷺ، ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: شاهدًا على الأمَّة، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾؛ وهو موسى ﷺ، ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾: ﴿أل﴾ هنا للعهد؛ فالرسول هو موسى ﷺ، ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾: أي: أخذًا شديدًا.

(١٧-١٨) ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾: هذا استفهام إنكاري، والمعنى: كيف تتقون هذا اليوم؟ وكيف تنجون من أهواله وشدائده إذا كفرتم بالله ﷻ؟ وفي هذا اليوم ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾: أي: أن الولدان يشيبون من شِدَّة هوله. ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾؛ الضمير يعود إلى يوم القيامة، والمعنى: أن السماء تنفطر وتنشق في ذلك اليوم. ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾: أي: أنَّ وعْدَ الله لابد من وقوعه وإتيانه، ولابد من لقاء الله؛ ليجازي الخلائق ويحاسبهم على أعمالهم.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾: أي: إن هذه السورة تذكرة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾: أي: طريقًا إلى الجنة، وهذا مُقيَّد بمَن شاء الله هدايته، وليس لكل أحد، فمَن شاء الله هدايته فإنه يتذكَّر، ومَن لم يُرد الله هدايته فإنه لا يتذكر.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ المُدَّثِّر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

٢٠ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾: ﴿أَدْنَىٰ﴾ بمعنى: أقل، والمراد: تارة هكذا، وتارة هكذا، وتارة هكذا، ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾: ولا يلزم من هذا أنهم يصلون معه جماعة، ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي: أنه ﷺ يعلم مقادير الليل والنهار؛ فإن الليل والنهار تارة يعتدلان؛ وتارة يأخذ أحدهما من الآخر. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾: أي: عَلِمَ أن لن تطيقوا قيام الليل، وقيل: إن الإحصاء عائد على الليل والنهار، والمعنى: أنه عَلِمَ أن لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك وتفاصيله، والله تعالى عالم بتفاصيل ذلك، ولا يخفى عليه شيء. وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: فيه: نسخٌ لما أوجبه الله تعالى في أول السورة من وجوب قيام الليل، والمعنى: أي: صلُّوا ما تيسَّر، وسُمِّيت الصلاة: قراءة؛ لأن أهمَّ وأطول ما فيها: القراءة. وقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فيه: بيان الأعذار لنسخ وجوب قيام الليل؛ فقد أخبر الله تعالى بأنَّه سيكون منهم مرضى لا يستطيعون القيام، ومسافرون يبتغون من فضل الله تعالى بالمكاسب، ومجاهدون في سبيل الله. وهذا من علم الغيب الذي أخبر الله به عبادَه؛ فإنه تعالى أخبر بأنَّه سيكون منهم مجاهدون في سبيل الله قبل فرضية الجهاد؛ لأنَّ هذه السورة مكيَّة؛ وفرضية الجهاد كانت في المدينة. وقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾: أي: من القرآن في صلاة الليل، أو بصفة عامة. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فيه: أمرٌ بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بهما هنا مجمل؛ لأن السورة مكية، ثم جاء تفصيل أحكامهما في المدينة. وقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: فيه: الحثُّ على الصدقة، وأنَّ مَن تصدَّق فقد أقرض الله قرضًا حسنًا. وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾: أي: أن مَا يُقدِّمه الإنسان لنفسه من خير يجد ثوابه وافرًا موفَّرًا عند الله ﷻ، أحوج ما يكون إليه، وهو أعظم أجرًا من إبقائه، فالإنسان إذا لم يخرج شيئًا واجبًا فإنه يكون عليه وبالًا وإثمًا. وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾: الهمزة والسين والتاء للطلب؛ والمعنى: سلوه المغفرة؛ فإنه تعالى غفور رحيم بمَن استغفره وتاب إليه وأناب.

سُورَةُ المُدَّثِّر

١-١٠ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ و ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بمعنى واحد؛ وهو الذي تغطَّى وتغشَّى بالثياب؛ فهذا خطاب للنبي ﷺ بوصف من أوصافه في تلك الحال. ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾: أي: أنذر الناس وحذِّرهم بأس الله ونقمته، وأْمُرْهم بتوحيده، وانْهَهُم عن الشرك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾: أي: عظِّم ربَّك بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾: قيل: المراد بالثياب: الأعمال؛ فأعمال الإنسان ثياب معنوية، فهي ستر له، والمعنى: طهِّر أعمالك من الشرك والمعاصي. وقيل: الثياب هنا على ظاهرها، والمعنى: طهِّر ثيابك من النجاسات. ولا مانع من شمول الآية للأمرين؛ لكن الأمر الأول: هو المقصود في الأصل؛ والثاني: تبع؛ لأن هذه السورة نزلت في مكة قبل تشريع أحكام الطهارة من غسل الثياب وتطهيرها ونحو ذلك. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾: المراد بـ ﴿ٱلرُّجْزَ﴾: الأوثان والأصنام، والمعنى: اتركها وابتعد عنها، واعتقد بطلانها. ولا يلزم من ذلك أن الرسول ﷺ متلبس بشيء من الأوثان والأصنام فيهجرها، فهو ﷺ قد عصمه الله وصانه عن ذلك، فالخطاب وإن كان للنبي ﷺ؛ فالأمَّة كلها تبعٌ له. ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾: فيه أربعة أقوال: قيل: لا تمنن بعملك على ربِّك تستكثره، وقيل: لا تُعْطِ العطية وتطلب أكثر منها، وقيل: لا تَضْعُف أن تستكثر من الخير، وقيل: لا تمنن بالنبوة على الناس. ولا مانع من شمول هذه الآية لهذه المعاني كلِّها؛ والقاعدة: أنَّ اللفظ إذا احتمل عدة معانٍ ولا تنافي بينها؛ فلا مانع من الحمل عليها كلها. ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾: قيل: اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله، وقيل: اصبر على طاعة الله؛ لأجل ثواب الله. وقدَّم الجار والمجرور لإفادة الحصر؛ وأن يكون ذلك خالصًا لله وحده؛ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾: أي: إذا نُفِخَ في الصُّور، والصُّور كهيئة القرن، والذي ينفخ فيه هو إسرافيل ﵇؛ ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾﴾؛ لشدة ما فيه من أهوال، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾؛ فيوم القيامة شديد على الكافرين؛ ولكن الله يُسهِّله على المؤمنين.

١١-١٨ هذه الآيات وما فيها من الذمّ والتهديد والوعيد نزلت في الوليد بن المغيرة، وهي تَشْمَل كل مَن لم يؤمن بهذا القرآن الكريم، وكذَّب به؛ ممن اتصف بهذه الصفات؛ فيقول تعالى: ﴿ذَرْنِى﴾: أي: اتركني، وهذا تهديد ووعيد، ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾: أي: ومَن خلقته منفردًا؛ وخرج من بطن أمِّه بلا مال ولا ولد، ثم أنعم الله عليه بالرزق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾: أي: كثيرًا؛ فوسَّع عليه في المال، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾: أي: حاضرين وليسوا غائبين، وهذا من تمام النعمة عليه، ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾: أي: مكَّنتُ له في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾: أي: مع ما أعطاه الله من النِّعَم؛

فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۖ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾

يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. ﴿كَلَّآ﴾: أي: ليس الأمر كما طمع؛ وذلك لأنه ﴿كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾﴾: أي: معاندًا مستكبرًا، فلم يؤمن بالقرآن الكريم لعناده، مع أنه يعلم أنه كلام الله حقًّا، ولهذا تهدَّد الله بملازمته للعذاب، فقال تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾؛ فهو مُعذَّب باستمرار. ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾: أي: فكَّر ماذا يختلِق ويَكْذِب من القول في القرآن الكريم.

(١٩-٣١) ﴿فَقُتِلَ﴾: أي: لُعِنَ ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾: أي: تأمَّل، ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾: أي: قَطَّب ما بين عينيه، ﴿وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: كَلَحَ وقطب بوجهه، ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾: قال ذلك إرضاءً لقومه لما غضبوا عليه؛ مع أنه يعلم أنه كاذب؛ ولهذا توعَّده الله فقال: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾: و ﴿سَقَرَ﴾ من أسماء النار، والمعنى: سأغمره في النار من جميع جهاته. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾: تفخيم وتعظيم لشأنها، ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: أي: لا تبقي ولا تترك شيئًا إلا أحرقته، ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾: أي: تلفح وتحرق بشرة الجلد، ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: من الملائكة؛ ولما جعل عدَّتهم كما أخبر سبحانه؛ استهزأ الكُفَّار بذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۖ﴾؛ فليسوا آدميين؛ بل ملائكة غلاظ شداد؛ أعطاهم الله تعالى من القوة ما يأخذ الواحد منهم آلافًا مؤلَّفة فيلقيهم في النار، ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: إلا ابتلاء وامتحانًا، ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأن ذلك يوافق ما في كتبهم؛ فيتيقنوا أنه كلام الله، ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾؛ والمؤمنون مصدِّقون؛ لكنهم يزدادون إيمانًا، ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: أي: ليزول الشك والريب عن أهل الكتاب وعن المؤمنين، ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾: أي: المنافقون، ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾: أي: ماذا يريد بهذا العَدَد؟ فأخبر الله تعالى أن له الحكمة البالغة؛ حتى يضل مَن يشاء، ويهدي مَن يشاء، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾: أي: بعدله وحكمته، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾: أي: بفضله ورحمته، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾: أي: لا يحصيهم، ولا يعلم عددهم وقوَّتهم؛ إلا الله تعالى، ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾: الضمير: يعود إلى النار، والمعنى: أن النار ذكرى وموعظة لهم؛ حتى يستعدوا للقاء الله ﷻ، ويحذروا بأسه ونقمته، وعذابه وسخطه.

(٣٢-٣٧) في هذه الآيات الكريمة يقسم الله تعالى ببعض مخلوقات -وهو تعالى يقسم بما شاء- فيقول تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: ولَّى وذهب، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: أقبل وأشرق. فأقسم الله تعالى بهذه المخلوقات؛ لِما فيها من دلائل قدرته ووحدانيته، وأنه تعالى المستحق للعبادة دون غيره. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾: أي: النار، ﴿لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾: أي: لإحدى العظائم، ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾: أي: فيها إنذار وتخويف للبشر من بني آدم، وكذلك للجن؛ حتى يتذكروا لقاء ربهم، ويخشوا سخطه وعقابه، فيستعدُّوا بالعمل الصالح والتوبة النصوح. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: مَن شاء أن يقبل النصيحة والنذارة، ومَن شاء أن يردها، وليس المراد التخيير؛ وإنما المراد: التهديد والتحذير والوعيد.

(٣٨-٤٧) في هذه الآيات الكريمة عظة وعبرة؛ يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: ﴿كُلُّ﴾ من صيغ العموم، والمعنى: أن كل نفس مرتهنة ومحبوسة بعملها، ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾: استثناهم الله تعالى؛ لأنهم ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: يسألون المجرمين عن حالهم، ويخاطبونهم، مع أن كلًّا منهم في مكانه، فأهل الجنة في أعلى عليين، وأهل النار في أسفل سافلين، ومع ذلك يخاطبونهم، ويشاهدونهم أيضًا. وهذا لا يستبعد ولا يُنكَر؛ فقد أرانا الله تعالى في الدنيا نماذج تُقرِّب ذلك؛ فإن الناس الآن يتخاطبون فيما بينهم، ويشاهد بعضهم بعضًا؛ مع أنه قد يكون واحد في أقصى الشرق، والآخر في أقصى الغرب؛ فإذا وقع هذا في الدنيا، فأمور الآخرة أعظم وأعظم، والله على كل شيء قدير، فلا يُنْكَر تخاطُب أهل الجنة مع أهل النار؛ ورؤية بعضهم بعضًا؛ مع بُعْدِ كلٍّ منهم عن الآخر. ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ما الذي أدخلكم في سقر؟ و ﴿سَقَرَ﴾ من أسماء النار، ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾: وهذه أول خصلة ذكرها أهل النار سببًا في دخولهم النار؛ وهي تركهم للصلاة؛ ولهذا استدل بعض أهل العلم بذلك على أن ترك الصلاة كفر؛ لأن تركها من أوصاف أهل النار التي استحقوا بها دخول النار. ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾﴾؛ فلم يقوموا بعبادة الله، ولم يحسنوا إلى عباد الله، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: نتكلم فيما لا يعنينا، وفي أمور لا علم لنا بها، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: بيوم الجزاء؛ وهو يوم القيامة، والتكذيب به كفر؛ لأن الإيمان به ركن من أركان الإيمان لا يصح الإيمان إلا به، ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾: أي: الموت.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾؛ فالشفاعة لا تنفعهم في هذه الحال؛ لأنهم ليسوا محلًا قابلًا للشفاعة، والمحل القابل للشفاعة إنما هم أهل التوحيد بعد إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له. والشفاعة شفاعتان: شفاعة مثبَتة؛ وهي لأهل التوحيد بشرطيها. وشفاعة منفية؛ وهي لأهل الشرك والكفر؛ كما في هذه الآية.

(٤٩-٥٦) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾: فيه: بيان شِدَّة صدود ونفور الكفار من الحق، وإعراضهم عنه، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾: جمع حمار؛ والمراد: حُمُر الوحش، ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾: بكسر الفاء أي: نافرة، وقرئ بفتح الفاء: ﴿مُّسْتَنفَرَةٌ﴾ أي: مذعورة. ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾: أي فرَّت من رامٍ يرميها، كما قال الجمهور، وقيل: فرَّت من الأسد الذي يريد صيدها. فشبَّه الله الكفار في نفورهم وإعراضهم عن قبول الحق بالحُمُر الوحشية التي تفرُّ من رامٍ يريد صيدها أو التي تفرُّ من الأسد إذا رأته. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾: أي: يريد كل واحد منهم أن يُنَزَّلَ عليه كتاب؛ كما أُنزل على النبي ﷺ، وهذا من عنادهم وتعنتهم. ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: أن الذي حملهم على ذلك عدم الخوف من الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بها، ولو كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر؛ لاستعدوا لذلك بالإيمان والعمل الصالح، لكنهم صاروا مستمرِّين على كفرهم وعنادهم؛ لأنهم يرون أنْ لا بعث ولا نشور، وإنما نهايتهم الموت. ﴿كَلَّآ﴾: كلمة ردع وزجر، ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾: أي: هذا القرآن الكريم تذكرة؛ يتذكَّر به القلب ويحيا، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: أنه ﷻ أهلٌ لأن يُخشى ويُتَّقى، ويُحذر غضبه وسخطه، وهو أهل المغفرة؛ فهو الذي يغفر الذنوب ﷻ؛ ولهذا فمن طلب من أحدٍ غيرِ الله أن يغفر ذنبه، وأن يمحو سيئته؛ فقد وقع في الشرك، كالنصراني الذي يطلب المغفرة من القسيس، فيعطيه صك المغفرة؛ وكذلك الرافضي الذي يُعطى من سيِّده صكَّ المغفرة، وكذلك من أشبههما في الكفر والضلال.

سُورَةُ القِيَامَةِ

(١-١٥) هذه السورة الكريمة افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾: ﴿لَآ﴾: في الآيتين للتأكيد، والمعنى: أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوامة؛ وهي التي تلوم صاحبها على فعل الذنب، واللوم وسيلة إلى الإصلاح والتوبة. ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾: أي: أيظن الإنسان الكافر أن الله تعالى لا يقدر على بعثه؛ وجمْع عظامه بعد موته؟! ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾: أي: أن الله قادرٌ على أن يعيد عظامه، وقادرٌ على أن يجعل بنانه أي: أصابعه ملتصقًا بعضها ببعض؛ كخُفِّ البعير. وفي هذه الحال لا يستفيد منها، ولا يعمل بها؛ فإن من تمام خِلْقة ابن آدم وحُسْن خَلْقه: أن جعل الله له أصابع في يديه ورجليه، ولو كانت كخُفِّي البعير لما استفاد منها، ولا استطاع أن يعمل بها شيئًا؛ فالأصابع لها شأن. ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾: قيل: أي: إن الإنسان الكافر يريد أن يستمر على ما هو عليه من المعاصي؛ لتكذيبه بيوم القيامة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾: أي: متى وقت وقوعه؟ وهذا سؤال منكر للبعث. وقد قيل في تفسير هذه الآية: إن الإنسان يفعل الفجور والمعاصي، ويقول: أريد أن أتوب. وقيل أيضًا: إن الإنسان يريد أن يفعل فجورًا تكون أمامه، فيستقبلها فيندم أشد الندم، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ أي: حارَ البصر؛ لشدة أهواله، ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾: أي: ذهب ضوءه، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾: أي: جُمِعا ثم ألقيا في النار مع عابديهما. ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة، ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾: أي: هل من ملجأ أو موئل، ﴿كَلَّا﴾: أي: ليس الأمر كما تتمناه، ﴿لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾: أي: لا نجاة ولا ملجأ من الله ﷻ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾؛ فالقرار عند الله ﷻ: إما في الجنة، وإما في النار. ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾: أي: يخبر الإنسان بجميع أعماله حسنها وسيِّئها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها. ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾: أي: أن الإنسان بصير بنفسه، وأعلم بها، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: أي: ولو ألقى معاذير يعتذر بها، فهو خبير بنفسه، وعالم بحاله، وبما عمله.

(١٦-١٩) سبب نزول هذه الآيات: أن النبي ﷺ كان في أول الأمر عند نزول الوحي عليه إذا قرأ جبريل عليه القرآن يحرِّك لسانه؛ حبًا له، وخشية أن يضيع منه شيء، أو أن ينسى منه شيئًا، فوعده الله ﷻ بأن يجمعه في صدره فلا ينساه، وأمره ألَّا يُحرِّك لسانه، وأن يستمع للملَك جبريل عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾: أي: بالقرآن، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أي: جمعه في صدرك وقراءته بعد ذلك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾: أي: قرأه جبريل عليه السلام، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: أي: فاستمع لقراءته، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾: فوعد الله نبيَّه محمدًا ﷺ أن يُلْهِمَه معانيه، ويُبيِّن له ما اشتمل عليه من الأخبار والأحكام، والوعد والوعيد. فكان النبي ﷺ بعد ذلك يستمع لجبريل، ثم بعد ذلك يقرؤه ولا يَضِيعُ منه شيء؛ لأن الله جمعه في صدره. وهذا من آيات الله وفضله، فمع كون النبي ﷺ أميًّا إلا أنه يحفظ هذا القرآن العظيم، مع كثرته في ألفاظه ومعانيه.

(٢٠-٢١) ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: الدنيا؛ وذلك لأن ملذاتها ونعيمها عاجل، ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾: أي: تتركون العمل لها؛ لأن نعيمها آجل؛ والإنسان مُولَعٌ بحبِّ العاجل؛ فلذلك غفل عن العمل للآخرة؛ والموفَّق مَن آثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٢٢-٢٣ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾: بالضاد أخت الصاد: من النَّضَارة؛ وهي البهاء والحُسْن، وهذه وجوه المؤمنين، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: بالظاء أخت الطاء؛ من النظر بالعين؛ أي: تنظر إلى ربِّها. وهذه الآية صريحة في أن الرؤية تكون بالعين التي في الوجه؛ لأنَّ الله تعالى أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محل العين، وعدَّاه بأداة ﴿إِلَىٰ﴾ الصريحة في النظر بالعين التي في الوجه إلى الربِّ. وفيها: إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم ﷻ يوم القيامة، وهو مذهب أهل السُّنة والجماعة؛ كما دلت على ذلك الآيات الكريمة، وبلغت الأحاديث الصحيحة حدَّ التواتر، رواها عن النبي ﷺ نحو ثلاثين صحابيًا.

٢٤-٢٥ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾: أي: عابسة، وهي وجوه الكفَّار، ﴿تَظُنُّ﴾: أي: تستيقن ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: أي: داهية تصيب فقار الظهر وتكسره.

٢٦-٤٠ يُبيِّن الله تعالى في هذه الآيات حالة الاحتضار فيقول: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾: ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾: جمع (ترقوة)؛ وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق؛ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الوَاقِعَة:]. والمعنى: إذا بلغت الروح التراقي، ووصلت إلى الحلقوم. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾: قيل: هذا قول مَن حول الميت؛ أي: أنهم يقولون: هل مَن راقٍ يرقيه أو طبيب يشفيه؟ وقيل: إنه من قول الملائكة، والمعنى: مَن يَرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: تيقن بأنَّه مفارق الدنيا، فالـ ﴿ظَنَّ﴾ هنا: بمعنى اليقين، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ قيل: لُفَّت ساق الميت إلى ساقه، وقيل: التفت ساق الدنيا بساق الآخرة؛ أي: شدة الدنيا بشدة الآخرة، ولا مانع من شمول الآية للمعنيين جميعًا. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾: المرجع، إما إلى الجنة، وإما إلى النار. ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾: أي: لا صدق في باطنه، ولا صلى في ظاهره، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾: أي: أنَّ باطنه التكذيب، وظاهره التولِّي. والإيمان لابد فيه من تصديق الباطن، وعمل الظاهر؛ فهما أمران متلازمان؛ فتصديقُ القلب يتحقَّق بعملِ الجوارح، وعملُ الجوارح لا يصح إلا بتصديق القلب؛ فإن انتفى أحدهما انتفى الآخر. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾: أي: أَشِرًا بَطِرا كسلانَ. ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾: دعاءٌ عليه، وتهديدٌ ووعيدٌ له، ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾: وهذا دعاءٌ وتهديدٌ ووعيدٌ آخر من باب التأكيد والمعنى أَوْلَى لَكَ الازدجار والانتهاء، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره. ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي: أيظن أن يُترَك في الدنيا مهمَلًا، فلا يُؤمَر، ولا يُنهَى، ولا يُكلَّف، وكذلك أيضًا: أيظن أن يُترك في الآخرة سدًى؛ فلا يُبعث، ولا يُحاسب، ولا يُجازى، بل لابد من الأمرين، وكلا الأمرين حاصل، فهو في الدنيا مكلفٌ ومأمورٌ ومنهيٌّ، وهو في الآخرة مبعوثٌ ومحاسبٌ ومجازى. ثم استدل ﷺ بالبدء على الإعادة -وهذا كثير في القرآن- فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: فالذي بدأ خَلْق الإنسان؛ قادر على أن يعيده من باب أولى. ويُسنُّ عند قراءة قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: أن يقال: سبحانك فبلى؛ كما ورد في الحديث الصحيح.

سُورَةُ الإِنسَانِ

١ افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: وهذا على ظاهره استفهام تقريري للإنسان، و ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هنا هو: أبو البَشَر آدم ﷺ. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: أي: زمن طويل ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾: أي: لم يكن شيئًا موجودًا، ولا شيئًا يُذْكر، ثم خلقه الله، وتناسلت منه ذريته، فلماذا يتكبر ويستكبر ابن آدم عن عبادة الله؟

٢ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: المراد بـ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا: بنو آدم، ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة؛ فكلُّ بني آدم خُلِقوا من ماء الرجل وماء المرأة، غير حوَّاء؛ فقد خُلِقَت من ضِلع آدم ﷺ، وغير عيسى ﷺ؛ فإن الله تعالى خلقه من أنثى بلا ذكر؛ حيث أمر الله جبريل ﷺ أن ينفخَ في جيب درعها، فدخلت فرجها، فحملت بإذن الله، وأما آدم ﷺ فخلقه الله من تراب، كما هو معلوم من النصوص. ثم بيَّن الحكمة من خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: أي: نختبره بالتكاليف؛ فالإنسان مختَبَرٌ ومبتَلًى في الدنيا؛ هل يعمل بالخير أو يعمل بالشر؟ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾: أي: أعطاه الله السمع والبصر؛ حتى يستعد للتكاليف.

٣ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾: أي: الطريق، والمعنى: بيَّنا له طريق الخير وطريق الشر، فالهداية هنا: هداية الدلالة والإرشاد، ثم يكون هذا الإنسان: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾: أي: مؤمنًا بالله، ﴿وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾: أي: جَحودًا لنعمة الله تعالى وهدايته.

٤ ذكر الله في هذه الآية ما أعدَّه للكافرين من الجزاء يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾: تُسلْسَل وتقيد بها أيديهم وأرجلهم، ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾: تُغل بها أعناقهم، ﴿وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾: أي: نارًا تُسعَّر بهم.

٥ ثنَّى الله بذكر ما أعدَّه من الجزاء لعباده المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: وهم أصحاب اليمين؛ أصحاب المرتبة الثانية بعد السابقين المقربين، ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾: الكافور: له رائحة طيبة، وفيه برودة، فالأبرار تُمزَج لهم مزجًا؛ لأنهم مزجوا أعمالهم بشيء من التقصير؛ وأما المقرَّبون فيشربونها صِرفًا غير ممزوجة؛ لأنهم لم يمزجوا أعمالهم بشيء، والجزاء من جنس العمل.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

(٦) ولهذا قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾: أي: يُرْوَى بها، ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾: المراد: المقربون. والعبودية هنا: العبودية الخاصة؛ لأن العبودية نوعان: عبودية عامة، وعبودية خاصة، فالعبودية العامة هي: أن كل الناس عبيد لله، ومعبّدون مربوبون مقهورون مذلَّلون، تَنْفُذُ فيهم قدرةُ الله، مؤمنهم وكافرهم. وعبودية خاصة وهي: عبودية الاختيار أي: مَن يعبد الله باختياره من الرسل والأنبياء والصالحين. وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾: يفجرونها كيف شاؤوا، وحيث شاؤوا من أماكنهم ومنازلهم، بدون تعب ومشقة، وهذا فيه كمال النعمة، وتمام اللذة والراحة، نسأل الله الكريم من فضله.

(٧-١٢) ذكر الله في هذه الآيات أعمال الأبرار فقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾: ﴿ٱلنَّذْرِ﴾: أن يوجب الإنسان على نفسه عبادةً لم يوجبها الله، وقد مدحهم الله على الوفاء بالنذر؛ وأما ابتداء النذر فمكروه، لكن إذا نذر وجب عليه الوفاء به إذا كان نذر طاعة؛ لقوله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»[1]، فالوفاء به ممدوح. وهؤلاء الأبرار إذا كانوا يوفون بالنذر؛ فالأعمال التي أوجبها الله تعالى عليهم من باب أولى أنهم يؤدونها. وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾: أي: يخشون شرَّ ذلك اليوم؛ وهو يوم القيامة؛ لما فيه من الأهوال والشدائد، ولهذا أعدُّوا له العُدَّة، وهذا هو الخوف المحمود الذي يحمل صاحبه على فعل الطاعات، وترك المحرَّمات، أما الذي لا يحمل صاحبه على ذلك فليس بخوفٍ محمود. وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: الضمير يعود على الطعام، والمعنى: أنهم يطعمون الطعام في حال محبتهم له، ﴿مِسْكِينًا﴾: وهو مَن يجد نصف الكفاية فأكثر إلا أنَّه لا يجد الكفاية؛ والمسكين إذا أُطلِق دخل فيه الفقير، وإذا قُرِن بالفقير؛ فالفقير أشد حاجة؛ وهو الذي لا يجد شيئًا أو يجد أقل من نصف الكفاية؛ والمسكين هنا أُطلق؛ فيشمل مَن لا يجد شيئًا أو يجد أقل من نصف الكفاية. ﴿وَيَتِيمًا﴾: وهو مَن مات أبوه وهو دون البلوغ، ﴿وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ قيل: هو الأسير من أهل القبلة، وقيل: كان أُسَاراهم يومئذ مشركين، وقيل: الأسير هو العبد. ثم بيَّن تعالى أنهم يقصدون بإطعامهم وجه الله تعالى، وأنهم يقولون بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾: أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ﴿وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾: أي: ولا ثناءً بالقول، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾: أي: يومًا تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته؛ فيكون ضَيِّقًا على صاحبه، ﴿قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾: أي: طَوِيلًا. فهو من جهة ما يحصل فيه من الضيق والشدة عبوس، ومن جهة الانتشار والعموم قَمْطَرِير؛ وهذا وصف ليوم القيامة، والبلاء والشدة التي تكون فيه، لكن الله تعالى ينجِّي المؤمنين من هذا البلاء والشدة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾: أي: حسنًا في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾: أي: في قلوبهم. ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾: حيث صبروا على طاعة الله حتى أدوها، وصبروا عن محارم الله حتى تركوها، وصبروا على أقدار الله المؤلمة فلم يسخطوها.

(١٣-٢٢) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: أي: السُّرر من الدر والياقوت. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾: أي: في الجنة، ﴿شَمْسًا﴾: أي: حرًّا، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ أي: بردًا شديدًا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حرٍّ ولا بَرْدٍ. ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾: أي: أن قطوف أشجار الجنة مذلَّلة لأهل الجنة يقطفونها كيف شاؤوا؛ إن شاؤوا قائمين أو قاعدين أو ماشين أو مضطجعين، يُقَرَّب إليهم الغصن ويُذَلَّل لهم. ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾: للطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾: للشراب، ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾؛ فهي من فضة، ومع ذلك شفَّافة، فاجتمع فيها بياض الفضة، وصفاء الزجاج، فأصبحت بيضاء صافية، شفافة جميلة. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾: أي: على قدر الحاجة، فلا ينقص عن حاجتهم، ولا يزيد فيُراق، وهذا في الشراب، وليس ببعيد أن يكون الطعام كذلك مُقدَّرًا على حسب الحاجة. ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾: من الخمر، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾: فالخمر تُمزج بالزنجبيل، وهي خمرة طيبة لذيذة، لا تصدِّع الرأس، ولا تغتال العقل، ورائحتها طيبة، وليست كخمر الدنيا. ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾؛ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لخدمتهم؛ ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: لا تزيد أعمارهم ولا تتغير؛ وهذا مناسب للخدمة؛ لأن خدمة الصغير ليست كخدمة الكبير، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾: أي: ظننتهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾: أي: في انتشارهم، وتفرقهم، وقضاء حوائج سادتهم. وإذا كان هذا وصف الخدم؛ فكيف بالمخدوم؟! لا شك أنه أعلى وأعلى. وهؤلاء الولدان خلقهم الله في الجنة -على الأظهر-. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾: أي: إذا رأيت هناك في الجنة، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، ولهذا ثبت أن آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَيْهَا يقال له: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنيا؟ فيقولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فيَقالُ: لَكَ ذلكَ، ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ، فيقول في الخامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فيَقالُ: هذا لَكَ وعَشَرَةُ أَمْثالِهِ[2]، فيكون له مثل ملك من ملوك الدنيا خمسين مرة. فكيف بأصحاب الدرجات العليا من الجنة؟! ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: أي: لباس أهل الجنة فيها الـ﴿سُندُسٍ﴾ وهو: رقيق الحرير؛ كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والـ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ وهو: غليظ الحرير، فيه بريق ولمعان، مما يلي الظاهر، ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾: وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر:]. وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾: فطَهَّرَ بواطنهم في الآخرة حسيًّا؛ كما طهروا بواطنهم في الدنيا معنويًّا؛ والجزاء من جنس العمل، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾: يقال لهم ذلك تكريمًا لهم، وإحسانًا إليهم، فهم يُنعَّمون، وأيضًا يُثنى عليهم ويُمدحون، والفضل كلُّه من الله تعالى، فهو الذي وفقهم، وهو الذي هداهم، وهو الذي ألهمهم العمل الصالح، وهو الذي أثابهم وجازاهم ﷻ.

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه مسلم، برقم: (١٨٩).

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)

٢٣-٢٥ يمتن الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ بإنزال القرآن العظيم عليه، الذي فيه السعادة والهدى والنور، فيقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾: بالجمع للتعظيم، فالله تعالى يُعظِّم نفسه، ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣)﴾: وهذه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده؛ لأن فيها هداية للناس، وتوجيهًا لهم إلى طريق السعادة، وطريق الهدى. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: كما أعطاك الله تعالى هذا القرآن، وأنزل عليك هذه النعمة العظيمة، فاصبر على قضاء الله وقدره، وعلى ما يصيبك من الشدة، ومن تكذيب قومك لك، فالعاقبة الحسنة والحميدة لك، واصبر على الأوامر، وعلى ترك النواهي، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾: أي: ولا تطع هؤلاء الكفار الذين يريدون أن يصدوك عن سبيل الله؛ فإنهم بين فاجر في فعله -وهو الآثم- وجاحد في قلبه لما أنزل الله عليك -وهو الكفور- فالآثم هو الفاجر في أفعاله السيئة والقبيحة، والكفور الجحود هو المنكر لنعمة الله تعالى وتوحيده، ولما أنزله على نبيّه من الكتاب والحكمة. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾: أي: في أول النهار وآخره.

٢٦ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾: أي: اعبد الله تعالى بالتهجد بقيام الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء: ٧٩] ففي الآية: الحث على ذكر الله أول النهار وآخره وفي الليل فتشمل الصلوات الخمس، والوتر وقيام الله، ومن ذلك: أذكار الصباح والمساء بعد صلاة الفجر وصلاة العصر.

٢٧ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: أي: الدنيا، والمعنى: أن الكفار يفضلونها ويؤثرونها على الآخرة؛ لأنهم لا يرجون لقاء الله ﷻ، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾: أي: ويتركون وراءهم يومًا ثقيلًا، شديد الأهوال؛ وهو يوم القيامة.

٢٨ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾: أي: أحكمنا خلقهم وقوّيناه، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾: قيل: إذا شئنا أعدناهم خلقًا جديدًا بالبعث، كما خلقناهم أول مرة، فاستدل بالبداءة على البعث، وقيل: إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم وأمثالهم في الخلق. كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)﴾ [النساء: ١٣٣] وأكثر المفسرين على المعنى الثاني.

٢٩-٣١ ﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾: أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، والقرآن كله تذكرة، ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾: أي: طريقًا للوصول إلى ربّه بالعمل الصالح. وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: فيه: إثبات المشيئة لله، وإثبات المشيئة للعبد، ولكن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ﷻ، فلا يقدر الإنسان على فعل شيء إلا إذا أقدره الله عليه، وهذا عام في كل شيء. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾: فيه: إثبات اسمي الله: العليم والحكيم، وما اشتملا عليه من صفتي: العلم والحكمة لله ﷻ. وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: أي: مَن شاء الله وفّقه للهداية، وأدخله في رحمته، وله الفضل سبحانه، ومَن شاء خذله، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة في ذلك. وقوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾: وأعظم الظلم: الكفر بالله ﷻ، والله أعدَّ النار للظالمين الكفرة عذابًا دائمًا سرمدًا، أما الظالم الذي ظلمه دون الكفر؛ فهذا على خطر من دخول النار، وإن دخلها فإنه يُعذَّب بقدر معاصيه، ثم يُخرج منها إلى الجنة بتوحيده وإيمانه وإسلامه.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

١-٧ افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بالقسم ببعض مخلوقاته الدالة على قدرته ووحدانيته فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١)﴾ قيل: هي الرياح أُرسلت متتابعة كعُرْفِ الفرَس -وهو الشعر الذي على ناصيتها-؛ لتتابع بعض الشعر على بعض. وقيل: هي الملائكة التي أُرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه. ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾: قيل: هي الرياح الشديدة الهبوب، وقيل: هي الملائكة التي يرسلها الله تعالى؛ وصفها في سرعة تنفيذ أوامره بالريح العاصف، ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾: قيل: هي الرياح اللينة التي تنشر السحاب. وقيل: هي الملائكة تنشر الكتب. ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤)﴾ أي: الملائكة تأتي بما يُفرِّق بين الحق والباطل. ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾ أي: الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ أي: للإعذار والإنذار. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾ أي: إنما توعدون به من البعث والحشر والجزاء والحساب واقعٌ لا محالة.

٨-١٥ بيَّن ﷻ في هذه الآيات ما يكون في يوم القيامة من الأهوال فقال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨)﴾: أي: طُمِسَ نورها بعد أن كانت تَتَّقِدُ وتضيء، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)﴾: تصدَّعت وفُتِحت، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)﴾: فصارت هباء، وسُيِّرت من مكانها، ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١)﴾: أي: جُمِعَت، وقيل: عُيِّنَ لهم وقت، ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)﴾: أي: أُخِّرت إلى يوم القيامة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخَّر إليه، والمعنى: جعل لها وقت وأَجَلٌ للفصل والقضاء بينها وبين الأمم وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾: سمي بيوم الفصل؛ لأن الله يفصل فيه بين الخلائق، ويحكم بينهم، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾: تعظيمٌ وتفخيمٌ لشأنه، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾: أي: شدة العذاب والهلاك للمكذِّبين بهذا اليوم.

١٦-١٩ ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦)﴾: أي: الذين كذَّبوا الرسل؟ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧)﴾: أي: أشباههم وأمثالهم من المكذبين، وهذا استفهام تقريري؛ لأنه معلوم، ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)﴾: أي: كلٌّ مشترك في الإجرام من أولهم إلى آخرهم، فالله تعالى يفعل بالآخرين كما فعل بالأولين؛ لأن إجرامهم واحد، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾: أي: شدة العذاب والهلاك للمكذِّبين بهذا اليوم.

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٢٠-٢٤) ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾: أي: ضعيف، وهو ماء الرجل وماء المرأة، وهذا استفهام تقرير، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾؛ وهو الرحم، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ وهو مدة بقائه في الرحم، وهي تسعة أشهر كما هو الغالب، وأقل ما يكون ستة أشهر. ﴿فَقَدَرْنَا﴾: قدَّر الله أن ينتقل الجنين من طور إلى طور، ثم يخرج من بطن أمِّه إلى هذه الدنيا. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: يمدح الله تعالى نفسه على قدرته، فإنَّه سبحانه على كل شيء قدير، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك لمن كانت هذه حاله؛ يرى عظمة الخالق، وعظمة ما خلق، ويستمر على تكذيبه وعناده.

(٢٥-٢٨) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾: أي: وعاءً، والكفت: الضم والجمع، ﴿أَحْيَآءً﴾: أي: على ظهرها، ﴿وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾: أي: في بطنها، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾؛ جعلنا فيها جبالا ثابتة عالية؛ لئلا تميد وتضطرب، ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾: أي: عذبًا زلالًا، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك لمن كانت هذه حاله؛ يرى عظمة الخالق، وعظمة المخلوقات، ويستمر على تكذيبه وعناده.

(٢٩-٣٤) يُبيِّن الله تعالى أنه يقال لهؤلاء المكذِّبين يوم القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾؛ وهو عذاب النار، ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: أنَّ لهب النار إذا ارتفع، وصعد معه دخانٌ؛ فإنه يتفرَّع إلى ثلاث شُعَب، ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي: أن ظلَّ الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾: أي: ولا يقيهم حرَّ اللهب. ثم بيَّن الله وصف شَرَرِ النار؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾: أي: أن شَرَرَ النار الذي تَرمي بها؛ كالحصون أو كأصول الشجر، ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾: أي: كالإبل السُّود أو كقِطَع النُّحاس أو كحِبال السُّفُن. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك لمن أراهم الله هذه النعم التي انفرد الله بها، ثم يستمر على تكذيبه.

(٣٥-٣٧) ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: لا يتكلمون، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: لا يؤذن لهم فيه ليعتذروا؛ بل قد قامت عليهم الحُجَّة، وهذا يكون في مشهد من مشاهد القيامة؛ لأنَّ مشاهد القيامة متعددة، ففي بعض المشاهد والأوقات والحالات لا ينطقون، ويُختَمُ على أفواههم، وفي البعض الآخر ينطقون وينكرون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ رجاء المغفرة، فإذا رأوا المغفرة لأهل التوحيد رَجَوا ذلك فقالوا هذا، لكن لا حيلة لمن مات على الشرك في خلاصه ونجاته. وبهذا يُجمع بين الآيات التي فيها أنهم لا ينطقون، والآيات التي فيها أنهم ينطقون ويتكلمون. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك للمكذِّبين بعذاب الله يوم القيامة.

(٣٨-٤٠) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: أنَّه تعالى جَمَعهم بقدرته في صعيد واحد، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾: أي: إن كان لكم حيلة في الخلاص فافعلوها. وهذا فيه: بيان شدة الهول، وأن العباد لا مفر لهم من الله إلا إليه، ولا نجاة إلا لمن نجَّاه الله، وهم في قبضة الله ﷻ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك لمن كذّب بما أخبر الله بما يكون يوم القيامة من حال المكذبين..

(٤١-٤٥) ذكر الله تعالى في هذه الآيات ثواب المتقين وجزاءهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ﴾: أي: في ظِلال الأشجار الوارفة، ﴿وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾: أي: وعيون الماء؛ بخلاف ما فيه أولئك الأشقياء من ظلٍّ من دخان شديد السواد، ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ومن سائر أنواع الثمار التي تشتهي أنفسهم، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: يقال لهم ذلك على سبيل التكريم والإحسان إليهم، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك للمكذِّبين بيوم الفصل والجزاء والحساب.

(٤٦-٤٧) ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾: أي: كلوا أيها المكذِّبون، وتمتعوا مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾. وهذا خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك للمكذِّبين بالجزاء الحسن للمتقين.

(٤٨-٤٩) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾: فيه قولان: القول الأول: أن هذا في الدنيا، والمعنى: أنهم إذا قيل لهم في الدنيا: صلوا مع المصلين؛ استكبروا وامتنعوا. والقول الثاني: أنه في يوم القيامة، وأنه إذا سجد المؤمنون يوم القيامة عند رؤية الله ﷻ، وأراد المنافقون أن يسجدوا فإنهم يمنعون من السجود، ويكون ظهر الواحد منهم كطبقة واحدة. ولا مانع من شمول الآية للأمرين معًا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: شدة العذاب والهلاك للمكذِّبين بيوم القيامة على عدم امتثالهم أمر الله..

(٥٠) ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن؛ وهو خير الكلام، وأفضل الكلام؛ فبأي كلام وحديث يؤمنون بعده؟! والمعنى: أنهم مستمرون على كفرهم وعنادهم، وعدم إيمانهم. نسأل الله السلامة والعافية.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣
كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦
وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩
وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا
فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ
ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ
أَلۡفَافًا ١٦ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ
فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩ وَسُيِّرَتِ
ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابٗا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا
شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨ وَكُلَّ شَيۡءٍ
أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠

سُورَةُ النَّبَإِ

١-٥ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾: أي: عن أيِّ شيء يتساءل كفار قريش؟! ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾: أي: عن الخبر العظيم الشأن؛ قيل: هو القرآن الكريم. وقيل: هو يوم القيامة. ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣﴾: بين مؤمن به وكافر. ثم توعَّد الله هؤلاء المكذِّبين فقال: ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر، ﴿سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥﴾: تأكيد، والمعنى: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة، ووقفوا بين يدي الله للحساب؛ فسيعلمون عاقبة تكذيبهم، وجزاءهم على كفرهم وعنادهم.

٦-١٦ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾: أي: ألم نخلق الأرض ممهدة قارَّة ثابتة ليست مستعصية؟! وهذا استفهام للتقرير، والجواب: بلى، فقد مهَّدها؛ ليستقر عليها الخلق. ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾: جعل الله الجبال للأرض كالوتد والطُّنب للخيمة؛ فهي ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تضطرب بالناس. ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨﴾: أي: ذكرًا وأنثى، فالرجل سكنٌ للمرأة، والمرأةُ سكنٌ للرجل، يقضي كلُّ واحد وطَره من الآخر، ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩﴾: أي: قاطعاً للحركة؛ ليستريح الجسم من تعب النهار، ثم يعود إليه نشاطه؛ فيعود للحركة مرة أخرى. ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠﴾: أي: يَلْبَسُ الكونَ بظلامه؛ كما يلبس الإنسانُ ثوبَه، فتنقطع الحركات، وتحصل الراحة، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾: أي: جعل النهار منيرًا مضيئاً، يسير الناس فيه؛ لتحصيل معاشهم، ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢﴾: أي: سبع سماوات قوية محكمة، ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾ وهو الشمس؛ جعلها الله سراجًا يضيء للناس، وهَّاجًا فيه حرارة، وأما القمر فهو نور لا حرارة فيه، وفي كلٍّ منهما مصالح عظيمة للخلق. ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾: أي: السحاب، ﴿مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤﴾: أي: كثيراً متتابعًا؛ ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ﴾: أي: بذلك الماء ﴿حَبّٗا﴾: مما يأكله الآدميون، ﴿وَنَبَاتٗا ١٥﴾: مما تأكله الأنعام وغيرها. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾: أي: بساتين ﴿أَلۡفَافًا ١٦﴾: أي: ملتفة مجتمعًا بعضها ببعض لكثرتها.

فهذه النِّعم كلها من امتنان الله على عباده، يَلْفِتُ أنظارَهم إليها؛ ليُقرِّرَهُم، فيستدلون بها على وحدانيته، واستحقاقه للعبادة، وعلى قدرته تعالى على بعثهم وإعادتهم.

١٧-٣٠ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾: وهو يوم القيامة؛ سُمِّي بذلك؛ لأن الله يفصل ويحكم فيه بين الخلائق، ويجازي كلًا بعمله. ﴿كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾: أي: وقتًا محدَّدًا، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يعلمه إلا الله، ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: وهو قَرْن عظيم؛ يأمر اللهُ إسرافيلَ فينفخ فيه؛ وهما نفختان: نفخة الصعق والموت، ونفخة البعث والنشور؛ والمراد هنا: نفخة البعث والنشور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾: أي: جماعات جماعات. ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ لأنها تنشقُّ يوم القيامة، ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾: أي: ذات أبواب، فتنزل الملائكة، ويحيطون بأهل الموقف. ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾: أي: من مكانها، ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾: أي: كالسَّراب في المرأى من بعيد. ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١﴾ أي: مُعدَّة مهيَّأة مُرْصَدة؛ ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾: أي: الذين طغوا وتجاوزوا أمر الله وحدوده، ﴿مَـَٔابٗا ٢٢﴾: أي: مرجعًا ومنقلبًا ومصيرًا ونُزُلًا، يستقرُّون فيها أبد الآباد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾، والـ ﴿أَحۡقَابٗ﴾: جمع حُقب -بضمتين؛ وبضم فسكون- وهي السنون المتطاولة، كلما انتهى حُقب عقبه حُقب إلى ما لا نهاية. ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا﴾: أي: لا يذوقون فيها بردًا ينفعهم من حَرِّ النار، وقيل: الـ ﴿بَرۡدٗا﴾: النوم، سُمِّي بذلك؛ لأنه تبرد فيه حرارة العطش. ﴿وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾: يُخفِّف عنهم عطشهم، ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾ استثناء منقطع؛ فيُفسَّر بـ (لكن) أي: لكن حميمًا وغساقًا؛ والـ ﴿حَمِيمٗ﴾: هو الماء الحار الذي اشتد غليانه، والـ ﴿غَسَّاقٗ﴾: هو صديد أهل النار الخارج من فُروجهم وجروحهم. ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾: أي: هذا الجزاء موافقٌ لأعمالهم، ثم ذكر تعالى أوصافهم فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧﴾: أي: لا يخافون حسابًا؛ لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث، ولا يؤمنون بأن هناك حسابًا، فلهذا صارت أعمالهم خبيثة. ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾: أي: كذَّبوا بالآيات التي جاء بها الأنبياء، ومن ذلك: الآيات الدالة على البعث ولقاء الله. ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾: أي: كل شيء مما يعمله العباد أحصاه الله، فهو مكتوب، وسيجزون عليه يوم القيامة. ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾: أي: يقال لأهل النار؛ توبيخاً لهم، وزيادة في عقوبتهم: ذوقُوا عذاب النار، وقاسُوا حرَّها؛ فلن نزيدكم إلا عذابًا. وهذا ألمٌ نفسي مع الألم الجسدي، ولهذا رُوي أن أشدَّ ما يكون على أهل النار أن يقال لهم: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾. نسأل الله السلامة والعافية.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا (٣٩) إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا (٤٠)

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا (٤) فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)

(٣١-٣٦) ثنّى الله تعالى بذكر جزاء المتقين؛ ليجمع المؤمن بين الترغيب والترهيب، والخوف والرجاء؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي: الذين اتقوا الله، واتقوا عذابه؛ بأداء الواجبات، وترك المحرمات، ﴿مَفَازًا ٣١﴾: أي: فوزًا من النار بالجنة، ومن العذاب بالرحمة. ﴿حَدَآئِقَ﴾: أي: بساتين، ﴿وَأَعْنَٰبًا ٣٢﴾؛ خصَّها لشرفها، ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: أي: زوجات أبكارًا، لم تتدلَّ ثُديُهن، ﴿أَتْرَابًا ٣٣﴾: أي: في سنٍّ واحدة متقاربات، ﴿وَكَأْسًا﴾ :من الخمر وغيرها ﴿دِهَاقًا ٣٤﴾: أي: مملوءة. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾: وهو الباطل من القول، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥﴾: بالتشديد أي: تكذيبًا، وقرئ بالتخفيف: ﴿كِذَٰبًا﴾ أي: كذِبًا، والمعنى: أنهم لا يسمعون الكذب، ولا يسمعون تكذيب أحدٍ لأحد، بل لا يسمعون إلا الكلام الطيب، وهذا من كمال نعيمهم. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فهو سبحانه الذي أثابهم هذا الجزاء العظيم؛ بسبب أعمالهم التي وفّقهم لها، ﴿عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾: أي: كافيًا، من قولهم: أكثر عليَّ في العطاء حتى قلت: حسبي أي: يكفيني. فالحسب هو الكفاية. والمعنى: أن هذا الجزاء والعطاء منه سبحانه كافٍ لهم. وقيل: عطاءً بحسب أعمالهم.

(٣٧-٤٠) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: فهو تعالى الذي خلق السماوات والأرض وأوجدهما وما بينهما، فربوبية الله تعالى عامَّة لكل شيء، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: ذو الرحمة الواسعة على عباده، الذي وسعت رحمته كل شيء. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ٣٧﴾: أي: لا يستطيع الخلق مخاطبة الرب إلا فيما أذن لهم فيه؛ وذلك لعظمة الله سبحانه، بخلاف المخلوق؛ فإنه يُخاطَب مهما كان. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾؛ وهو جبريل، خصَّه بالذكر؛ لمنزلته وشرفه على الملائكة، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: عَطَف الملائكة على الروح؛ من باب عطف العام على الخاص، ﴿صَفًّا﴾: أي: يقومون مُصْطَفِّين؛ لعظمة الله وهيبته، فالملائكة والخلق كلهم مُصْطَفُّون يوم القيامة؛ لعظمته تعالى وهيبته. ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: فلا يتكلم أحدٌ من الخَلْق يوم القيامة إلا بشرطين: الأول: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: أي: أن يأذن الله له، والثاني: ﴿وَقَالَ صَوَابًا ٣٨﴾: أي: في الآخرة؛ بأن يكون ما يتكلَّم به صوابًا وحقًّا. وقيل: ﴿وَقَالَ صَوَابًا ٣٨﴾: أي: في الدنيا؛ بأن قال كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله». ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: الثابت الواقع بلا ريب ولا شك، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾: أي: مرجعاً وسُلَّمًا يوصله إلى كرامته سبحانه؛ وهو التوحيد، والعمل الصالح. ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾: وهو عذاب يوم القيامة، وجُعل قريبًا؛ لتحقُّق وقوعه، وكل آتٍ قريب. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي: يرى ما قدَّم من العمل من خير أو شرٍّ. ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ٤٠﴾؛ فيتمنَّى أن يكون ترابًا؛ قيل: إنه يقول ذلك حين يرى أعماله السيئة ماثلة أمامه. وقيل: إنه يقول ذلك حين يقضي الله بين الحيوانات التي اعتدى بعضها على بعض؛ ثم يقال لها: (كوني ترابًا). فعند ذلك يتمنى الكافر أن يكون ترابًا.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

(١-٥) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ١﴾: هي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوّة وشدَّة. ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ٢﴾: هي: الملائكة تسلُّ أرواح المؤمنين برفقٍ ويُسرٍ؛ فتخرُجُ تَسِيلُ كما تَسِيلُ القطرةُ مِن في السِّقاءِ. ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ٣﴾: هي: الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد: سابح؛ إذا أسرع في جريه. أو لأنها تسبح في نزولها وصعودها. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ٤﴾: هي: الملائكة سبقت ابن آدم في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله تعالى خلقهم قبل ابن آدم، فسبقوه. وقيل: هي الملائكة تسبق وتبادر إلى أمر الله تعالى. ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ٥﴾: هي: الملائكة الذين وكِّلوا بتدبير أمور العالم العلوي والسفلي بأمر الله الكوني القدري. فكل هذه في وصف الملائكة الكرام على الصحيح. وجواب القسم محذوف؛ تقديره: لَتُبْعَثُنَّ ولَتُحَاسَبُنّ.

(٦-١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦﴾: هي: النفخة الأولى في الصُّور، وهي: نفخة الفزع والصعق، وفيها يموت كلُّ الخلق إلا مَن شاء الله ممن استثناهم. ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾: وهي: النفخة الثانية؛ وهي: نفخة البعث والنشور، فهما نفختان فقط على الصحيح. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ٨﴾: أي: خائفة مُضْطربة، ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ٩﴾: أي: ذليلة حقيرة؛ وهي أبصار الكفار، ﴿يَقُولُونَ﴾: أي: كفار قريش وغيرهم ممن أنكروا البعث: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ١٠﴾: قيل: الحافرة هي الأرض؛ بمعنى: محفورة، والمعنى: أئنا لمردودون إلى وجه الأرض بعد أن دُفِنَّا فيها، وبَلِيَت عظامُنا فيها، واستحالت ترابًا. وقيل: ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: هي الحال الأولى قبل الموت، والمعنى: أئنا لمردودون إلى أمرنا الأول إلى الحياة؛ بعد أن تمزَّقت أجسادنا، ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾: أي: قد بليت وتفَتَّتْ. ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ﴾: أي: رجعة ﴿خَاسِرَةٌ ١٢﴾: أي: إن كنَّا سنرجع إلى الحياة مرة أخرى؛ فهذه الرجعة رجعة خاسرة، ولا شك في خسرانها لهؤلاء الكفرة؛ فلا أخسر من كرَّة تقتضي المصير إلى النار. وقيل إن معنى: ﴿خَاسِرَةٌ﴾: أي: كاذبة باطلة، والمعنى: أنهم استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعد الموت. ثم بيَّن الله لهؤلاء الكفَّار المنكرين للبعث سهولة الأمر عليه في ذلك؛ فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣﴾: أي: نفخة واحدة؛ وذلك حين يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخ في الصُّور نفخة البعث؛ ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾: أي: على وجه الأرض قيامٌ ينفضون التراب عن رؤوسهم؛ حفاةً لا نعال لهم، عراةً لا ثياب عليهم، غُرلًا غير مختونين، يقومون مسرعين للحساب، والقيام بين يدي الله تعالى.

(١٥-١٦) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾: أي: قد أتاك حديث موسى؛ فقد كرَّر الله قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مواضع من القرآن، ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾: أي: المطهَّر المبارك، ﴿طُوًى ١٦﴾: اسم الوادي.

(١٧-٢٣) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾: أي: تمرَّد وتجبَّر، وعتا وتكبَّر، ﴿فَقُلْ﴾: له بقولٍ ليِّن: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾؛ بأن تُسْلم وتُطيع؛ فتكون زكيًّا مؤمنًا، ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: أدلُّك وأرشدك إليه، وإلى عبادته، ﴿فَتَخْشَىٰ ١٩﴾: أي: فتخافه وتتقيه، ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ٢٠﴾: أي: أظهر له موسى العلامة العظيمة، والدليلَ الواضح على صدق ما جاء به من عند الله، وهي

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾
وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾
فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ
بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا
وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾
فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ
رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾
يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن
ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

الآيات التي أيَّده الله تعالى بها؛ كاليد والعصا، ﴿فَكَذَّبَ﴾: أي: بالحق الذي جاءه به موسى، ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾: أي: خالف ما أمره به من الطاعة، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾: أي: ولَّى مدبرًا معرضًا عن الإيمان والطاعة، ﴿يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: أي: في محاربة الحق بالباطل؛ فجمع السَّحَرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى من المعجزات الباهرات، ﴿فَحَشَرَ﴾: أي: جمع قومه وجنوده، ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾: فيهم بصوت عالٍ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾: أي: لا ربَّ لكم فوقي، فادَّعى لنفسه الربوبية، كما ادَّعى لنفسه الألوهية فقال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص: ٣٨]. وهو وإن كان منكرًا لوجود الله في الظاهر، إلا أنه كان مستيقناً به في الباطن، كما قال الله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل: ١٤]. وهذا غاية العُتُوِّ والعِنادِ والاستكبار. ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾: أي: عاقبه في الدنيا بالغَرَق، وفي الآخرة بالحَرَق، فذهبت الأجساد للغرق، والأرواح للنار والحَرَق؛ فجعله عبرةً ونكالًا لأمثاله من المتمردين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: أي: ما فُعِل بفرعون من النكال، ﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: عِظَةً واعتبارًا، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾: أي: لمن يخشى الله ويخافه؛ فهذا الذي ينتفع بالآيات والعِبَر، أما مَن لا يخشى الله فلا يعتبر ولا ينزجر.

(٢٧-٣٣) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾: أي: أخلقكم أشدُّ أم خَلْق السماء؟! ولا شك أن السماء أعظم وأشد خلقًا منهم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غَافِر :]. وهذا السؤال قُصِدَ به الاستدلال على البعث؛ وأن الذي خلق السماء مع عِظَم خلقها؛ قادرٌ على خلق الأجساد بعد فنائها. ثم بيَّن الله عِظَم خَلْقِه للسماء فقال تعالى: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا﴾؛ فهي مرتفعة البناء، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام[1]، ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾: أي: أتقن خلقها، وجعلها مستوية الأرجاء، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أي: أظلم ليلها، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾: أي: أسفر نهارها، ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: أي: بعد خلق السماء، ﴿دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾؛ فدحو الأرض كان بعد خلق السماء، أما خلق الأرض فمتقدم على خلق السماء، فالأرض خُلِقَت أولًا، ثم السماء ثانيًا، ثم دحا الأرض بعد خلق السماء، والدَّحيُ معناه: إخراج ما فيها، فسَّره ما بعده وهو قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ أي: أخرج منها قوتها من الماء والنبات، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾: أي: ثبَّت الأرض بالجبال؛ لئلا تضطرب بأهلها، فهي مستقرة؛ وكل هذا من فضل الله وإنعامه على عباده؛ يتمتعون بذلك مدة حياتهم في هذه الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾: أي: هذه الأشياء متاعٌ لكم أيها الناس، ومتاعٌ لأنعامكم. فعلى العباد أن يشكروا الله، وأن يستعينوا بما أعطاهم من النعم على طاعته؛ حتى يكونوا من عباد الله المتقين؛ فيُثِيبهم الثوابَ العظيم في الدار الآخرة.

(٣٤-٤١) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، سُميت بذلك لأنها تطمُّ على كل شيء هائل، ﴿ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾: أي: التي لا أكبر منها في الهول، ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾: أي: ما سعى في الدنيا من عمل، ويرى ما قدَّم من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾: أي: أُبْرِزت الجحيم في موقف القيامة، وصارت ظاهرة يراها الناس عِيانًا. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾: أي: تجاوز الحدَّ الذي حدَّه الله له، وفعل ما حرَّم الله عليه من الشرك أو المعاصي، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾: أي: قدَّم الحياة الدنيا على الآخرة، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾: أي: هي مأواه ومسكنه ومصيره. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: أي: خاف موقف القيام بين يدي الله للحساب؛ فأعدَّ له العُدَّة؛ بأن وحَّد الله، وأخلص له العبادة، واستقام على طاعته، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: أي: نهاها وكبح جماحها عمَّا تهواه من الهوى المردي؛ فإن النفس تهوى المحرَّمات، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾: أي: هي مأواه ومسكنُه ومستقرُّه.

(٤٢-٤٦) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: الضمير يعود إلى النبي ﷺ؛ فقد كان الناس يسألونه عن الساعة: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾: أي: متى ظهورها وقيامها؟ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أي: في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة حتى يسألوك عن وقتها، ولست ممن يعلمه؛ إنكارا على المشركين في مسألتهم النبي ﷺ. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾: أي: إلى الله وحده منتهى علمها؛ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾: أي: أن مهمتك أن تنذر مَن يخشاها أي: يخشى يوم القيامة، وتنذره بأس الله ونقمته إن استمر على عصيانه، وتأمره بالاستعداد للقاء الله. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾: أي: الساعة وقد قامت، ووقفوا بين يدي الله للحساب؛ فحينها يستقصرون مدة الدنيا؛ وكأنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾: أي: في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾: أي: من الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾: أي: من طلوع الشمس إلى منتصف النهار، مع أنهم مكثوا سنين طويلة، لكن من شدة الهول؛ استقصروا مدة الدنيا؛ كأنهم لم يلبثوا فيها إلا نصف نهار. وهذا في حق الكفَّار خاصَّة؛ أما المؤمنون فإن الله يُهوِّن عليهم يوم القيامة؛ كما جاء في مسند الإمام أحمد: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المَعَارِج: ٤]، مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»[2].

---

(١) جاء من أحاديث، منها: حديث العباس مرفوعا، أخرجه أبو داود، (٤٧٢٣)، والترمذي، (٣٣٢٠)، وابن ماجه، (١٩٣)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». وحديث ابن مسعود موقوفا، أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٩٣/٢) من طريق ابن مهدي، وأخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» رقم (٥٩٤) من طريق المسعودي، وجاء من طريق زر بن حبيش، قال الذهبي: «وإسناده صحيح». «العلو للعلي الغفار» رقم (١٧٣)، وله حكم الرفع فمثله لا يقال بالرأي، كما في التنضيد شرح كتاب التوحيد (ص ٥٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (١١٧٣٥)، وابن حبان (٧٣٣٤) وصححه، وحسَّنه الحافظ ابن حجر والسيوطي؛ وذكر له السخاوي شاهدًا.

سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ عَبَسَ

١-١٠ سبب نزول هذه السورة: أن النبي ﷺ كان مشغولًا بدعوة أحد كُبَراء قريش -وقد طَمِع في إسلامه- فجاءه ابن أم مَكْتُوم -وكان ممن أسلم قديمًا- فجعل يسأل رسولَ الله ﷺ، ويُلِحُّ عليه، فعَبَس النبي ﷺ في وجه ابن أم مَكْتُوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخَر؛ اجتهادًا منه؛ وطمعًا في هداية وإسلام ذلك الرجل؛ لما قد يكون في إسلامه من الخير الكثير؛ فقد يُسْلِم بإسلامه الكثير غيره، وقد يكون إسلامه قوّة للإسلام، فأنزل الله هذه السورة عتابًا لنبيِّه ﷺ على فعله ذلك؛ فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾: والضمير يعود للنبي ﷺ؛ بأنه عَبَس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾: أي: لأجل أن جاءه الأعمى، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾: أي: وما يُعلمك يا محمد؛ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾: أي: لعلَّ هذا الأعمى تحصل له زكاة وطهارة في نفسه؛ بما تُرشده إليه، وتدلُّه عليه، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾: أي: أو يتَّعظ فتنفعه هذه الموعظة، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾﴾: من الاستغناء أي: استغنى عن الإيمان بماله؛ كحال هذا الرجل الغني من كُبَراء قريش؛ ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾: أي: فأنت تتعرض له، وتقبل عليه، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾: أي: ليس عليك زكاته ولا هدايته؛ لأن الهداية بيد الله، وإنما عليك البلاغ، ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾: ليسأل ويسترشد؛ طالبًا الهداية، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾: اللهَ ﷻ، والمراد به: ابن أم مُكتوم، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾: أي: تتشاغل عنه؛ بالإقبال على هذا العظيم من عظماء مكة. فهذه الآيات: عتابٌ من الله لنبيِّه ﷺ؛ لعلوِّ مقامه، لأنه فعل خلاف الأولى، والنبي ﷺ اجتهد فيما فعل؛ وهو مغفور له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر. وهي تدل على أن النبي ﷺ أمينٌ في تبليغ الوحي كما أُنزل، وأنه لم يكتم شيئًا منه؛ لأن هذه الآيات فيها عتاب له، ومع ذلك لم يكتمها. وفيها: أنَّ على الداعية أن يُسوِّي بين الناس في دعوته؛ ولا يُقدِّم أحدًا على أحدٍ؛ لجاهه أو لغير ذلك من الأمور.

١١-١٦ ﴿كَلَّآ﴾: أي: حقًّا، ﴿إِنَّهَا﴾: أي: هذه السورة، أو هذه الوصية في عدم التفريق في الدعوة بين الشريف والوضيع، أو آيات القرآن الكريم كلها، ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾: أي: يتذكَّر بها عبادُ الله، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾: أي: فمَن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره، ويحتمل: فمن شاء ذكر هذا الوحي واتعظ به، والمراد من الاتعاظ به: العمل به. ﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي: هذه الوصية أو هذه السورة، والظاهر: أن المراد أن القرآن كلَّه مكتوب في صُحفٍ ﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾: أي: مُعظَّمة مُوقَّرة، ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾: قدرًا وعلوًّا، ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾: من الدنس والعيب، ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾: وهم الملائكة؛ سُمُّوا: ﴿سَفَرَةٍ﴾؛ لأنهم سفراء بين الله وبين عباده. ﴿كِرَامٍۭ﴾: أي: على الله تعالى، وخُلُقُهم كريم، ﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: أفعالهم بارَّة، فهم بررة أتقياء.

١٧-٢٣ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي: لُعِنَ الإنسان، وهذا لجنس الإنسان المكذِّب، ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أي: ما أشدَّ كفره وتكذيبه لما جاء عن الله ورسوله. ثم بيَّن الله له أنه خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾: فكيف يُكذِّب ويشتد كُفره؛ وهو مخلوق من ماءٍ مهين؟! ﴿فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾: أي: قدَّر الله له رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته وسعادته؛ حين خلقه في بطن أمه. وقيل: قدَّره أطوارًا: نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر خلقه. ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ قيل: يسَّر له خروجه من بطن أمه، فلولا أن الله يسَّر له ذلك ما خرج. وقيل: يسَّر له طريق الخير وطريق الشر، أي: بيَّنه له وأوضحه وسهَّل عليه عمله. والآية شاملة للأمرين جميعًا. ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾: عند انقضاء أجله ﴿فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾: أي: جعله في قبر، وهذا من تكريمه تعالى لابن آدم؛ أن جعله يُوارَى في قَبرٍ مُكرَّمًا، لا كالحيوانات، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾: أي: إذا شاء بَعَثَه في يوم البعث والنشور. ﴿كَلَّا﴾: أي: ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾: أي: لم يُؤدِّ ما أوجب الله عليه، ولم يفعل ما أمره الله به. وقيل: إنَّ هذا يرجع إلى قضاء الله وقدره، والمعنى: لـمَّا يقضِ الله تعالى ما أمر الإنسانَ أمرًا كونيًا بإذنه بالبعث، أي: أن الله لا يقضي بنشر الخلائق حتى يقضي ما قدَّره وأراده أن يكون.

٢٤-٣٢ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾: أي: انظر إلى طعامك أيها الإنسان، وما فيه من العِبر والدلائل على قدرة الله ووحدانيته، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾: أي: أنزلناه من السحاب إلى الأرض، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾: أي: أسكناه فيها؛ فتخلَّل في أجزاء الحَبِّ المودع فيها؛ فنبت وظهر على وجه الأرض، وهذا يشمل جميع الحبوب من البُرِّ والأرُز والدُّخْن وغيرها، ﴿وَعِنَبًا﴾: معروفٌ، ﴿وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾: ما تأكله الدواب رطبة، ويقال له: القَتُّ وهو البرسيم-، ﴿وَزَيْتُونًا﴾: الزيتون معروف؛ وهو يؤكل، ويُدَّهن به، ويُستَصبَحُ بزيته -أي: تُشعل به السُّرُج-، ﴿وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾: والنخل معروف، وفيه كثير من الخيرات والبركات. وخصَّ الله تعالى هذه الأربعة؛ لكثرة فوائدها، وعموم نفعها، ﴿وَحَدَآئِقَ﴾: بساتين ﴿غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: مُلتفة الأشجار ملتوية، ﴿وَفَٰكِهَةً﴾: كل ما يتفكَّه به الإنسان من الثمار، ﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾: الـ ﴿أَبّ﴾: ما تأكله الدوابُّ، ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾: أي: هذه الأشياء متاعٌ لكم أيها الناس، ومتاعٌ لأنعامكم. وكلُّ هذا مما يستدل به على فضل الله، وأنه يجب أن تصرف له العبادة، وألَّا يُعبد سواه ﷻ.

٣٣-٣٧ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، وقيل: إنها صيحة يوم القيامة، سميت ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ لأنها تصخُّ الأسماع؛ أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمُّها، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾: ففي ذلك اليوم يفرُّ المرء من أقرب الناس إليه، فيفرُّ من أخيه، وأمه وأبيه، وزوجته وأبنائه؛ لشدة هول ذلك اليوم العظيم، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾: فكلٌّ تَهُمُّه نفسه يريد السلامة والنجاة لها، ولا يلوي أحدٌ على أحد؛ ولو كان أقرب قريب؛ لأن الأمر عظيم، والهول شديد.

٣٨-٤٠ ذكر سبحانه في هذه الآيات: أن الناس ينصرفون من المحشر على فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: أي: مستنيرة؛ يعلوها النور، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾: أي: فرحة مسرورة، وهؤلاء هم المؤمنون، طيَّب الله أعمالهم؛ فاستنارت الوجوه وضحكت، وسُرّت القلوب واستبشرت. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾: أي: قتام وسواد، ﴿تَرْهَقُهَا﴾: أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾: أي: سواد وظلام، وقيل: ذلة، وهي ناشئة عن السواد، والآية شاملة للمعنيين؛ وكلُّ هذا لخُبْثِ أعمالهم، وهؤلاء هم الكَفَرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾: أي: الكفرة في قلوبهم؛ لأنهم جحدوا توحيد الله، الفجرة في أفعالهم وأعمالهم.

تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

سُورَةُ التَّكۡوِيرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

(١-١٤) هذه السورة الكريمة افتتحها الله بذكر أمورٍ عظيمة تنزعج لها القلوب، وترتعد لها الفرائص؛ وذلك حين يخرب هذا الكون في آخر الزمان؛ فيقول تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾: أي: لُفَّتْ وضُمَّ بعضها إلى بعض؛ مأخوذ من تكوير العمامة ولفِّها. ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾: أي: تغيَّرت وتساقطت من أفلاكها، وذهب نورها. ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾: أي: عن مكانها، ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ﴾: وهي خيار الإبل التي مرّ على ما في بطنها عشرة أشهر، ﴿عُطِّلَتۡ ٤﴾: أي: أُهمِلَت وتُركَت مع أنها من أَنْفَس أموال العرب. ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥﴾: أي: جُمعت، وقد ورد أنَّ الوحوش تُجْمَع يوم القيامة؛ ليقتص بعضُها من بعض، ويرى الناس كمال عدل الربِّ سبحانه، ثم يقال لها: «كوني ترابًا». ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦﴾: أي: أضرمت بالنار، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾: أي: قُرِنت بما يشاكلها ويجانسها؛ ويكون كل صاحب مع نظيره، فالأبرار مع الأبرار، والفجَّار مع الفجَّار. وقيل: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ أي: الأرواح قُرِنَت بأجسادها بعد البعث؛ فتدخل الأرواح في أجسادها. ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨﴾: ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾: هي البنت التي تقتل حيَّةً، كفعل أهل الجاهلية؛ حين كانوا يدفنون بناتهم وهُنَّ أحياء؛ خشية العار والحاجة، فهذه الموؤدة تسأل يوم القيامة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾، وهي لا ذنب لها، وإنما تسأل تبكيتًا وتوبيخًا وتقريعًا لمن قتلها، وزيادة في عذابه. ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾: أي: صحف الأعمال تنشر، ويعطى كلُّ إنسان صحيفته إما بيمينه؛ وهذا المؤمن، وإما بشماله من وراء ظهره؛ وهذا الكافر. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾: أي: طُويت وزالت عن مكانها، فلا يبقى إلا العرش والأرض؛ من العرش إلى الفرش. ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢﴾: أي: أوقدت وأُحميت وازدادت حرارتها. ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣﴾: أي: قُرِّبت من أهلها. ثم ذكر تعالى جواب الشرط؛ والمعنى: إذا حصلت هذه الأمور العظيمة: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾: أي: كلُّ نفس ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾: أي: ما حضر لديها من الأعمال التي عملتها من خيرٍ أو شرٍّ.

(١٥-٢١) يُقسم الله في هذه الآيات ببعض مخلوقاته البديعة؛ لدلالتها على وحدانيته، واستحقاقه للعبادة، فيقول تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾: ﴿لَآ﴾: للتأكيد، وليست لنفي القسم؛ والمعنى: أقسم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾: وهي: النجوم السيَّارة السبعة أو الخمسة، وصفها الله تعالى بثلاثة أوصاف: أنها خُنَّس؛ لأنها تختفي في النهار، وتظهر في الليل، أو لأنها تتأخر عن سير الكواكب المعتاد، ووصفها بأنها جواري؛ فهي تجري في السماء وتسير. ووصفها بالكُنَّس؛ أي: أنها تستتر عند غيابها وأفولها؛ كما تكنس الظباءُ في بيوتها. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾: أي: أقبل بظلامه أو أدبر؛ لأن ﴿عَسۡعَسَ﴾ تستعمل في الإقبال، وفي الإدبار. ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾: أي: طلع وظهر وبان. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن، ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾: وهو: جبريل؛ سُمِّي رسولًا؛ لأنه مرسل من عند الله تعالى؛ فهو واسطة بين الله وبين الرسل، كما أن الأنبياء واسطة بين الله وبين خلقه، ﴿كَرِيمٖ ١٩﴾: وصفه بأنه كريم، وهو جدير بالكرامة. وأُضيف القول إلى الرسول من باب التبليغ؛ فجبريلُ بلَّغ محمدًا ﷺ، ومحمدٌ ﷺ بلَّغ الناس، والكلام يضاف إلى مَن قاله مبلِّغًا بهذا القيد، وأما مَن قاله مبتدئًا فمعلوم أن الكلام له. ثم وصف الله تعالى جبريل فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: أي: صاحب قُوَّة، وقد أعطاه الله ستمائة جناح، ومن قوته: أنه اقتلع مدائن قوم لوط، وأوصلها إلى السماء، ثم نكَّسها عليهم، ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ وهو الله تعالى، ﴿مَكِينٖ ٢٠﴾: أي: له مكانة ووجاهة، فهو أشرف الملائكة، ومنزلته عند الله كمنزلة الحاجب عند الملك، ﴿مُّطَاعٖ﴾: أي: تطيعه الملائكة، ﴿ثَمَّ﴾: أي: هناك؛ في الملأ الأعلى، ﴿أَمِينٖ ٢١﴾: أي: ذي أمانة على الوحي، وفي القيام بما أُمِرَ به.

(٢٢-٢٤) زكَّى الله تعالى رسولَه البشري محمدًا ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾؛ فقد رمَته قريش والعرب بالجنون، فنفى الله عن نبيِّه الكريم ما رماه به أعداء الله، وطهَّره وزكَّاه؛ ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾: أي: رأى محمدٌ جبريلَ أي: على صورته التي خلقه الله عليها، ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣﴾: أي: البيِّن؛ وهو أعلى ما يرى البصر من جهة المشرق. وقيل: أقطار السماوات ونواحيها. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤﴾: بالضاد أي: ليس ببخيل بالقرآن، وإنما يبذله لكل أحدٍ. وقرئ بالظاء: ﴿بِظَنِينٖ﴾ أي: ليس بمتَّهم على الوحي؛ بل هو أمين، والوصفان فيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فهو أمينٌ غير متَّهم على الوحي، وهو أيضًا كريم يبذله لكل أحد؛ وهذه تزكية عظيمة للنبي ﷺ.

(٢٥-٢٩) زكَّى الله كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾: أي: القرآن ﴿بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥﴾؛ فإنه لا يقدر على حمله، ولا ينبغي له، فالقرآن الكريم هو قول الله تعالى، وأما الشياطين فلا يستطيعون أن يصلوا إليه، ولا ينبغي لهم ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦﴾: أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه، وأنه كلام الله حقًّا. كيف يخطر ببالكم هذا الأمر؟! ثم بيَّن الله الحكمة من إنزال القرآن فقال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ﴾: ﴿إِنۡ﴾: نافية بمعنى: (ما)؛ أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧﴾: أي: إلا موعظة للعالمين؛ مِنَ الجن والإنس، والمؤمنين والكافرين؛ لكن لا يتعظ وينتفع به كلُّ أحد، وإنما ينتفع به مَن كتب الله له السعادة، وشاء استقامته وهدايته على ما تقتضي حكمته سبحانه. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾: أي: مَن أراد الاستقامة؛ فعليه بهذا القرآن الكريم؛ فيصدِّق أخباره، وينفِّذ أحكامه، ويمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه، ويتلوه حقَّ تلاوته. وفيه: إثبات المشيئة للعبد خلافًا للجبرية القائلين بأنه مجبور على الفعل؛ لكن هذه المشيئة تابعة لمشيئة الله تعالى؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾؛ فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله تعالى، فلا يشاء أحدٌ الاستقامة إلا إذا شاء الله ذلك. وفيه: إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي صفة من صفاته على ما يليق بجلاله وعظمته.

سُورَةُ الانفِطَارِ

١-٥ افتتح الله تعالى هذه السورة بشرط وجوابه، فقال تعالى في الشرط: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ١﴾: أي: تشقَّقت؛ فصارت أبوابًا لنزول الملائكة، ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ٢﴾: أي: تساقطت من شدة الهول، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ٣﴾؛ فصارت بحرًا واحدًا؛ بعد أن كانت بحارًا متعددة، ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ٤﴾: أي: حُرِّكت وأُخْرِج ما فيها من الموتى والكنوز وغيرها. ثم ذكر الله جواب الشرط؛ والمعنى: إذا حصلت هذه الأمور العظيمة؛ وذلك في يوم القيامة؛ فحينئذٍ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾: أي: كلُّ نفس؛ لأن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ٥﴾: أي: من العمل من خيرٍ أو شرٍّ. وقيل: ما قدَّمت من عمل صالح، وما أخَّرت أي: ما تركت مما أُمرت به. وقيل: ما قدَّمت من عمل قبل موتها، وما سنَّت من عمل فعُمِلَ به بعد موتها.

٦-١٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: المراد: جنس الإنسان المقصِّر في حقه تعالى سواء بالكفر والفسوق الأكبر، أو ما دونه من الأصغر وسائر المعاصي، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٦﴾: أي: ما الذي غرَّك بربك الكريم حتى تجرَّأت على معصيته، وتهاونت في حقِّه. وهذا تهديد ووعيد، والمعنى: عليك ألَّا تغترَّ بكرمه، بل عليك أن تخشى عقابه وسطوته. ثم بيَّن الله بعض كَرَمِه عليه فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾: أي: أوجدك من العَدَم، ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾: أي: خلقك سويًّا في أحسن صورة، وأحسن تقويم، وركَّبك تركيبًا قويمًا معتدلًا في أحسن الأشكال، ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾: يُصَوِّر اللهُ تعالى بني آدم في أرحام أمهاتهم؛ فكلُّ واحد له صورة خاصة، لا تُشْبِه صورةٌ صورةً أخرى من كلِّ وجه في ملايين البشر. وكذلك يُصوِّرهم هذا ذكر وهذه أنثى، وهذا طويل وهذا قصير، وهذا حسن وهذا قبيح، وهذا متوسط، وله في ذلك الحكمة البالغة ﷻ، ومن رحمته وكرمه تعالى على بني آدم؛ أنه خلقهم في أحسن صورة، فلم يجعلهم في صورة حيوان أو دابة أخرى. ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر، ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾: أي: بالجزاء والحساب، والمعنى: أنَّ الذي حمل الإنسان على الاغترار بكرم الله؛ حتى جحد نعمه بالكفر أو إتيان المعاصي هو: التكذيب بالجزاء والحساب يوم القيامة. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾: وهم الملائكة الموكَّلون بحفظ أعمال بني آدم، ﴿كِرَامًا﴾ على الله، ﴿كَٰتِبِينَ ١١﴾: لأقوال الإنسان وأعماله الظاهرة والباطنة، وهما ملكان: ملك عن اليمين يكتب الحسنات، وملك عن الشمال يكتب السيئات ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾: من أفعال القلوب، ومن أفعال الجوارح؛ فقد أعطاهم الله القدرة على معرفة ذلك. وهذا يُوجب على العبد أن يعلم أنَّه غير مهمَلٍ، وأنه موكَّلٌ به ملائكة يكتبون جميع أعماله من حسَن وسيِّء، فعلى العبد أن يستحي منهم، وأن يُجِلَّهم ويحترمَهم.

١٣-١٩ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: الذين برَّت قلوبهم وجوارحهم؛ فقاموا بحقوق الله، وحقوق عباده، ﴿لَفِى نَعِيمٍ ١٣﴾: أي: نعيم في قلوبهم وأرواحهم وأبدانهم، وهم في نعيم في الدنيا والآخرة، أي: في الدنيا بطمأنينة القلب، وراحة النفس؛ وهي الحياة الطيبة، وفي الآخرة ينالون رضوان الله عنهم، ويُسكنهم الرحمنُ دار كرامته، فهم في نعيم وسرور دائم -نسأل الله الكريم من فضله- ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾: الذين فجرت قلوبهم وأعمالهم، فقصَّروا في حقوق الله، وفي حقوق عباده، والمراد: أعظم الفجور وهو الكفر بالله، ﴿لَفِى جَحِيمٍ ١٤﴾ وهي: النار، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يدخلونها متألمين بحرِّها، تحيط بهم من جميع الجهات، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾: أي: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾: أي: لا يغيبون عنها، بل هم ملازمون لها، ولا يخرجون منها أبد الآباد. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾؛ أسلوب يُراد به تفخيم يوم القيامة وتعظيم شأنه، ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾: أي: ما أعلمك به؛ إنه يوم عظيم، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾: نكرة في سياق النفي؛ فتعم كلَّ نفسٍ، ﴿لِّنَفْسٍ﴾: ولو كانت لها قريبة، أو حبيبة مصافية، ﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم، والمعنى: أنَّه في يوم القيامة لا تملك أيُّ نفس لنفس أيَّ شيء، فكلٌّ مشتغلٌ بنفسه، لا يطلب الفكاك لغيرها، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾؛ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقَّه من ظالمه.

سُورَةُ الانفِطَارِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

١-٤ ﴿وَيْلٌ﴾: أي: شدَّة العذاب والهلاك ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾: أي: الذين يبخسون في المكيال والميزان، ولهذا قال تعالى في وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢﴾: أي: إذا اكتالوا لأنفسهم من الناس استوفوا حقَّهم كاملًا أو زائدًا، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾: أي: كالوا للناس، ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أي: وزنوا للناس، ﴿يُخْسِرُونَ ٣﴾: أي: ينقصون ويبخسون. فهؤلاء المطفِّفون إذا كان الحقُّ لهم أخذوه وافيًا أو زادوا، وإذا كان الحق عليهم نقصوه وبخسوه. وهذا ليس خاصًّا بالمكيال والميزان؛ بل هو يشمل كل بخسٍ لحقوق الناس؛ سواء في الشيء المعدود، أو المزروع، أو في الأقمشة أو في الأراضي أو في غير ذلك كالحجج والمقالات. والوعيدُ الشديد على المطفِّفين يدل على تحريم التطفيف، ثم توعَّد الله هؤلاء المطففين بقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤﴾: ألا يؤمن هؤلاء بأنهم مبعوثون.

٥-٦ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦﴾: أي: وموقوفون بين يدي الله تعالى، وسوف يُحاسبهم على بَخْسِهم وتطفيفِهم المكيالَ والميزان، ويُجازيهم على ذلك، وهذا تخويفٌ لهم،

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾

وأنهم لو آمنوا بالبعثِ يوم القيامة، والقيامِ بين يدي الله للحساب والجزاء، وتذكَّروا ذلك واستحضروه؛ لما تجرَّأوا على التطفيف.

٧-١٧ يُبيِّن الله في هذه الآيات أحوال الفُجَّار وجزاءهم؛ فيقول تعالى: ﴿كَلَّآ﴾: أي: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾: أي: كتاب أعمالهم، ﴿لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾: أي: في مكان ضيِّق ضنك في أسفل سافلين؛ قيل: إنه في الأرض السابعة السفلى؛ حيث مأوى ومرجع الفجار ومستقرّهم. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾: تعظيمٌ له. ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾: أي: مكتوب فيه أعمال هؤلاء الفجار، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾: أي: شدَّة العذاب والهلاك للمكذِّبين؛ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾: أي: بيوم الجزاء والحساب؛ وهو يوم القيامة، ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ أي: بيوم القيامة، ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾: أي: متجاوز للحدِّ من الحلال إلى الحرام بأقواله وأفعاله، ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾: أي: كثير الإثم؛ فالذي حمله على العدوان والإثم تكذيبه بيوم الدِّين، ولو آمن لحجزه ذلك، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾: أي: الآيات القرآنية الدالة على الحق؛ ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾: أي: قصص وحكايات من كتب الأوائل، وهذا من التكبُّر والعناد. ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر، فليس الأمر كما يقول، ففيه تكذيبٌ له، ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: إنما حجبهم عن الإيمان واتباع الحق؛ ما أصاب قلوبَهم من الران؛ بسبب كَسْبِهم الأعمال الخبيثة من الذنوب والمعاصي. والـ ﴿رَانَ﴾: غطاء معنوي يصيب القلب؛ بسبب اجتماع المعاصي والذنوب عليه؛ فيُعْمِيْه ويَمْنَعُه من قبول الحق. ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: أن هؤلاء الفجار محجوبون يوم القيامة عن رؤية الله تعالى؛ فإنه لـمَّا حُجبت قلوبُهم عن الإيمان، وحجبت ألسنتهم عن قول الحق، وجوارحُهم عن الأعمال الصالحة؛ حُجِبُوا يومَ القيامة عن رؤية الله تعالى، وهذه أعظمُ عقوبةٍ لهم يومَ القيامة؛ فالجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية: أن المؤمنين لا يُحجَبُون عن ربهم؛ بل يرونه يوم القيامة؛ فإنه لما حُجب هؤلاء في السَّخَط؛ دل على أن المؤمنين يرونه في الرضا؛ كما قال ذلك الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولو كان المؤمنون لا يرون ربهم لتساووا هم وأعداؤهم في الحجب عن رؤيته؛ وقد جاءت الآيات والأحاديث الصريحة في رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة وفي الجنة. ثم بعد هذا الحَجْب الذي هو أعظم العذاب؛ يُصْلَون الجحيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾؛ وهي النار المحرقة؛ تحيط بهم من جميع الجهات، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي: هذا العذاب الذي كذَّبتم به في الدنيا؛ فذُوقوا حرَّه، يقال لهم هذا على سبيل التوبيخ لهم؛ فهو عذاب نفسي زيادة على عذابهم الحسي.

١٨-٢٨ ثنَّى الله بذكر أحوال الأبرار وجزائهم؛ ليجمع المؤمن في سيره إلى الله بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: أي: كتاب أعمالهم ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾: أي: أعلى الأمكنة وأوسعها، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾: تفخيمٌ لهذا المكان، ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾: أي: مكتوبٌ فيه جميع عملهم. ﴿يَشْهَدُهُ﴾: أي: يحضره ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾: أي: الملائكة المقرَّبون إلى الله؛ وهم حملة العرش ومَن حوله؛ وكذلك يشهده مِن كل سماء مُقَرَّبوها، وكذلك تشهده أرواح المقرَّبين من الأنبياء والصديقين والشهداء، وذلك اعتناءً بهم وإظهاراً لكرامتهم ومنزلتهم عند الله. ثم ذكر تعالى جزاءهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: نعيمٍ شامل للروح والقلب والبدن. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: أي: على السُّرُرِ ﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: إلى ما أعدَّ الله لهم من النعيم، وأعظم ذلك: النظر إلى وجه الله الكريم. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾: أي: إذا رآهم الناظر عَرَف في وجوههم نضرة النعيم؛ بسبب السرورِ الذي قلوبهم وتوالي اللذائذ عليهم؛ فيظهر ذلك على وجوههم بهاء وحسنًا، ونضارةً وجمالًا.

ثم وصف تعالى شرابهم فقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾: وهو أطيب أنواع الخمر وألذها ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾: أي: مختوم عليه ختام؛ فلا يفتحه أحد قبلهم. ويحتمل أن المعنى: أن آخره مسك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ﴾: أي: أن آخر هذا الشراب مسك، ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾: أي: ذلك النعيم؛ ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: فليتسابق المتسابقون، وليبادر المبادرون؛ بالأعمال الصالحة التي توصلهم لهذا النعيم. ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾: أي: أن هذا الشراب الذي أعدَّه الله للأبرار يُمزج بتسنيم، وقد فسّره تعالى بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ فشراب الأبرار يمزج من هذه العين، أما المقربون فيشربون منها صِرفًا خالصة؛ لأنهم أعلى درجة وفضلًا من الأبرار؛ والتسنيم أعلى من الرحيق.

٢٩-٣٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾: أي: فعلوا الإجرام، وأعظمه: الكفر بالله تعالى، ﴿كَانُوا۟﴾: أي: في الدنيا، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾: سخريةً واستهزاء؛ ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾: أي: إذا مرَّ هؤلاء المجرمون بالمؤمنين ﴿يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾: احتقارًا للمؤمنين، وازدراء بهم. ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾: أي: إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: رجعوا متفكِّهين فرحين مسرورين؛ وكأن لهم عهدًا من الله، وأمانًا من العذاب، وهذا غاية الضلال والغرور، وإنما هو استدراج من الله لهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾: أي: إذا رأوا المؤمنين رموهم بالضلال؛ فرموا المؤمنين بما هم واقعون فيه. ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: لم يُرسَلُوا موكَّلين بهم يحفظون أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦

سُورَةُ الانشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ١٥ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤

(٣٤-٣٦) ﴿فَالْيَوْمَ﴾: أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤﴾؛ فكان الجزاء من جنس العمل؛ فكما ضحك المجرمون من المؤمنين في الدنيا؛ ضحك منهم المؤمنون في الآخرة، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾: أي: ينظرون إلى الكفار وهم يُعذَّبون؛ مع أن كلًّا منهم في مكانه، فأهل الجنة في أعلى عليين، وأهل النار في أسفل سافلين، فلا تُنكر رؤية بعضهم بعضًا؛ مع بُعْدِ كلٍّ منهم عن الآخر؛ فإن الله على كل شيء قدير. ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦﴾: أي: هل جُوزي الكفار على أفعالهم الخبيثة؟! والجواب: نعم؛ قد جوزوا.

سُورَةُ الانشِقَاقِ

(١-٥) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١﴾: أي: تشقَّقت وفتحت فصارت أبوابًا؛ لنزول الملائكة منها، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾: أي: استمعت لأمر ربِّها، وانقادت له، ﴿وَحُقَّتْ ٢﴾: أي: وحُقَّ لها أن تنقاد لأمر ربها؛ لأنها مسخَّرة مُدبَّرة. ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣﴾: أي: كما يُمدُّ الأديم -أي: الجلد-؛ حتى تكون واسعة تَسَعُ أهل الموقف. ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾: أي: ألقت ما في جوفها من الموتى والكنوز، ﴿وَتَخَلَّتْ ٤﴾: أي: تخلت عنهم، وفرَغت منهم، فلم يَبْقَ في باطنها شيءٌ منهم. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾: أي: استمعت لأمر ربها، وانقادت له، ﴿وَحُقَّتْ ٥﴾: أي: وحُقَّ لها أن تنقاد لأمر ربِّها. وجواب الشرط محذوف تقديره: إذا وقعت هذه الأمور العظيمة؛ قامت القيامة، وبعث الله الخلائق، ولقي الإنسانُ عملَه، وحاسبه الله وجازاه عليه.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾: اسم جنس؛ يعمُّ المؤمن والكافر، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾: أي: عاملٌ عملًا، وساعٍ سعيًا، إما بالخير، وإما بالشر. وهذا من طَبْع الإنسان؛ أنه يعمل ويكدح؛ فمن الناس مَن يكدح ويعمل الخير؛ فيكون مصيره السعادة، ومن الناس مَن يكدح ويعمل الشر؛ فيكون مصيره الشقاوة. وقوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ ٦﴾: قيل: الضمير عائد على العمل، والمعنى: أنك عاملٌ عملًا؛ فملاقي عملك إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. وقيل: الضمير عائد على الله تعالى، والمعنى: أنك مُلاقٍ ربك؛ فيجازيك ويحاسبك. والقولان متلازمان؛ وكلاهما حقٌّ.

(٧-٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٧﴾؛ وهو المؤمن الذي وحَّد الله، وأخلص له العبادة، واستقام على طاعته؛ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨﴾: بأن تُعْرَض عليه أعماله، ويُقِر بها، ثم يغفرها الله له. ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ قيل: أهله من أهل الدنيا، وقيل: أهله من الحور العين في الجنة. وكلاهما حقٌّ؛ ﴿مَسْرُورًا ٩﴾؛ لأنه نجا من العذاب، ونال أعظم الجزاء.

(١٠-١٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠﴾؛ وهو الكافر؛ وفي سورة الحاقَّة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقَّة:]؛ ولا منافاة بينهما؛ فهو يؤتى كتابه بشماله ملويَّة وراء ظهره؛ وفي هذا إهانة له، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ١١﴾: أي: يدعو بالويل والهلاك، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾؛ وهو عذاب النار المسعَّرة، تحيط به من جميع الجهات؛ بسبب أعماله الخبيثة من الكفر والمعاصي، ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٣﴾: أي: كان في الدنيا فرحًا مغتبطًا؛ بما هو عليه من الكفر والتكذيب والمعاصي، ولا يخطر على باله الحقُّ من الإيمان والعمل الصالح، ولا يُفكِّر في عواقب ما هو عليه؛ فلهذا أساء العمل. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾: أي: أنَّه كان متيقنًا من أنَّه لن يرجع إلى الله فيبعثه ليقف بين يديه للحساب والجزاء، ﴿بَلَىٰ﴾: أي: بلى ليحورنَّ وليرجعنَّ إلى الله، وسيعيده الله كما بدأه، ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ١٥﴾: أي: عليمًا بحاله، ومجازيه على عمله.

(١٦-١٩) أقسم الله في هذه الآيات فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾: ﴿لَا﴾ للتأكيد، وليس لنفي القسم؛ فالقسَم مُثْبتٌ، ﴿بِالشَّفَقِ ١٦﴾: هو: الحُمْرة التي تكون في الأفق عند غروب الشمس. ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾: أي: وما ضمَّ وجمع من الحيوانات والحيَّاتِ والهوام وغيرها مما ينتشر في الليل مستترا بظلامه. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ١٨﴾: أي: استدار وتكامل نورُه فصار بدرًا. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾: بضم الباء الموحدة في قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾. والخطاب لكل بني آدم؛ والمعنى: لتركَبُنَّ يا بني آدم أطوارًا متعددة، وأحوالًا متباينة؛ والمعنى: أن الإنسان يكابد شدائد الدنيا منذ طفولته؛ فيكون جنينًا في بطن أمه، ثم صبيًا إذا وُلِد، ثم غلامًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا ثم شيخًا. ثم يكابد شدائد الآخرة بعد الموت؛ من القبر إلى البعث إلى الجزاء إلى الحساب إلى الجنة أو النار. وقرئ ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح الباء الموحدة؛ فيكون الخطاب للنبي ﷺ؛ والمعنى: لتركَبَنَّ أيها النبي حالًا بعد حال؛ وهي: الحالات التي مرَّ بها النبي ﷺ في دعوته وجهاده، فكان في بدء الدعوة يدعو سرًّا، ثم بعد ذلك جهرًا، ثم اشتد الأذى عليه وعلى أصحابه فهاجر، ثم أذن له بالجهاد، ثم مكَّن الله له، وفتح عليه الفتوح، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

(٢٠-٢١) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾: استفهام تعجُّب وإنكار على الكفَّار، والمعنى: أيُّ شيء منعهم من الإيمان بالله؛ مع وضوح الآيات والأدلة على قدرة الله ووحدانيته، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ٢١﴾: أي: لا يخضعون لله ﷻ، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه. وقيل: لا يَخِرُّون له ساجدين تعظيمًا له ﷻ. وهذه السجدة اختلف العلماء في السجود فيها، والصواب: أنها ثابتة؛ لحديث أبي هريرة أنه قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه[1].

(٢٢-٢٤) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾ أي: أن الحامل لامتناع الكفَّار من الإيمان بالله، والخضوع له، وتعظيم القرآن؛ أنهم يُكذِّبون بآيات الله ورسله؛ فما منعهم إلَّا التكذيب والجحود والعناد. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ أي: بما يضمرون ويكتمون في أنفسهم من التكذيب والأعمال الخبيثة؛ وسيجازيهم بأعمالهم ونياتهم. وهم إذا استمروا على كفرهم وتكذيبهم فمصيرهم إلى الهلاك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ أي: بعذاب مؤلم؛ وهو عذاب النار.

(٢٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: استثناء منقطع؛ لأنهم ليسوا منهم، والمعنى: لكن الذين آمنوا أي: وحَّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أي: وصدَّقوا إيمانهم الذي في قلوبهم بالأعمال الصالحة، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾: أي: ثواب، وجاء منكَّرًا لتعظيمه وتفخيمه، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥﴾ أي: غير منقطع، بل هو مستمر دائم، فلا يزال الله يُحْدِث لأهل الجنة نعيمًا بعد نعيم إلى ما لا نهاية.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٦).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ البُرُوجِ

وهي مكية

(١-٩) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾: أي: ذات النجوم العظيمة التي فيها من الدلائل على عظمة الله وقدرته ووحدانيته ما هو واضح لكل أحدٍ. وقيل: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب التي انتظمت في سيرها. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢﴾؛ وهو يوم القيامة الذي وَعَدَ الله الخلائق أن يجمعهم فيه؛ ليجازيهم على أعمالهم، ﴿وَشَاهِدٖ﴾ هو: يوم الجمعة، ﴿وَمَشۡهُودٖ ٣﴾: هو: يوم عرفة؛ على المشهور. وقيل: إن هذا يشمل كلَّ مَن اتصف بهذا الوصف؛ من مُبْصِرٍ ومُبْصَر، وحاضرٍ ومحضور، وراءٍ ومرئي. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤﴾: أي: لُعِنُوا وطُردوا من رحمة الله، و﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: هو الشقُّ في الأرض، ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾: أي: التي أضرموها في الأخاديد. فـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ هم الذين حفروا في الأرض الأخاديد، وأضرموها وأججوها نارًا، وفتنوا المؤمنين عن دينهم، فمَن لم يرجع عن دينه ألقوه فيها؛ ولهذا لعنوا وطردوا من رحمة الله تعالى. وفي صحيح مسلم: أن الملك لما آمن الناس، أمر بالأخدود في أفواه السكك، فخُدَّت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، فَفَعَلُوا، ففي جلوس أصحاب الأخدود حولها يعرضون على المؤمنين الكفر؛ فمَن أبى ألقوه فيها قال تعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾: أي: حضور يشاهدون تعذيب المؤمنين، وإلقاءهم في النار، ويتلذذون بهلاكهم. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾: أي: ما عابوا منهم إلا إيمانهم بالله تعالى ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الذي له العزَّة المتضمنة للقوة والقدرة، والامتناع، والغلبة، فلا يُغالَب ولا يُمانَع ﷻ ﴿ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾: أي: المستحق لجميع أنواع المحامد على أفعاله وصفاته العظيمة. ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فهو سبحانه مالكهما والمتصرف فيهما، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾: أي: شاهد وحاضر بعلمه وسمعه وبصره، وهو سبحانه يعلم أعمال عباده، وسيجازيهم عليها. وهذا وعيد لهم.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: وهم أصحابُ الأخدود؛ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم؛ بأن خيَّروهم بين الرجوع إلى الكفر أو الإحراق بالنار، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾؛ فعرض عليهم التوبة مع جُرْمهم العظيم؛ حيث كفروا بالله، وأحرقوا بالنار أولياءه، وفتنوهم عن دينهم. وفيه: بيان سعة فضل الله وجوده وكرمه، ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾؛ يحرق أجسامهم جزاء وفاقًا؛ فالجزاء من جنس العمل؛ فإنهم لما أحرقوا المؤمنين بالنار؛ كان جزاؤهم أن يُحرَّقوا بالنار إلا مَن تاب.

(١١) ثم بيَّن الله جزاء المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: بجوارحهم، فصدَّقوا الإيمان الذي في القلوب بالأعمال، ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾: أي: بساتين ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: أي: أنهار الماء، واللَّبن، والخمر، والعسل، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة لِبُعْدِ مكانتهم وعُلوِّها؛ ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾: وهو الفوز برضا الله، والتمتع بدار كرامته؛ وهذا هو الفوز الحقيقي، وليس كالفوز بلعبٍ أو بتجارة أو بغير ذلك من أمور الدنيا الفانية.

(١٢-١٦) ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾: أي: إن عقوبته وانتقامه على الكفر والذنوب والمعاصي لقويٌّ شديدٌ. ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي: الله سبحانه ﴿هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾: أي: يُبدئ الخَلْق، ثم يعيده كما بدأه، فهو تعالى منفرد بإبداء الخلائق وإعادتهم بعد مماتهم للجزاء والحساب. ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾: الذي يغفر ذنوب عباده جميعًا إذا تابوا إليه واستغفروه، ويقيهم شرَّها في الدنيا والآخرة، ﴿ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾: أي: الحبيب الذي يُحبُّه أحبابه، وهو الوادُّ أي: المحبُّ لعباده، المتودِّد إليهم بالنعم، وبعرض التوبة عليهم، وقبولها منهم. ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾: أي: صاحب العرش، ﴿ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾: بالرفع صفة لله تعالى، وهو من أسمائه، ومعناه: واسع الصفات، من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، وفي قراءةٍ بالجر: ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: صفة للعرش، لسعته وعظمه وشرفه، والقراءتان متواترتان، فالمجيد من أسماء الله، والمجيد وصف للعرش أيضا. ثم وصف الله تعالى نفسه بأنه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾: أي: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ وفق حكمته سبحانه، ولا يحجر عليه أحد، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن، فيكون. وهذا وصف كمال لله، وهو خاصٌّ به تعالى؛ فليس أحدٌ فعَّالًا لما يريد إلا الله ﷻ.

(١٧-١٨) ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾: الاستفهام للتقرير، والمعنى: قد أتاك يا محمد، ﴿حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾ أي: خبرهم، ثم فسَّر المراد بالجنود بقوله تعالى: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾: الذين تجبَّروا وعصوا رُسلَ ربِّهم؛ فأهلكهم الله تعالى، وقد بسط الله قصَّة فرعون مع موسى، وقصة ثمود؛ في مواضع من كتابه؛ وفيها عظة وعبرة لمن بعدهم إلى يوم القيامة.

(١٩-٢٠) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾: ﴿بَلِ﴾: إضراب لتقرير أنهم مستمرون على تكذيبهم لله، وللرسل، وللقرآن، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾؛ قد أحاط بهم علمًا وقدرة، وسمعًا وبصرًا، فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها يوم القيامة.

(٢٠-٢٢) ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾: أي: عظيم الصفات، كثير الخير، واسع المعاني والعلوم. ﴿فِي لَوۡحٖ﴾: أي: مكتوب في لوح ﴿مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾: أي: محفوظ من التغيير والزيادة والنقصان، ومحفوظ من الشياطين وغيرهم. والمراد به: اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠

سُورَةُ الطَّارِقِ

(١-٤) أقسم الله في هذه السورة بشيئين من مخلوقاته فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾؛ فأقسم بالسماء وبالطارق؛ وهو النجم؛ سُمِّي طارقًا؛ لأنه يظهر ليلًا، ويختفي نهارًا، ثم فخَّم الله أمر هذا الطارق فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾: أي: وما أعلمك ما الطارق؟! ثم فسَّره بأنه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾: أي: المضيء في نفسه، والذي يثقب بنوره السماوات، وَالذي تُرْمَى به الشياطين فيثقبهم. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾؛ فأقسم الله أن كلَّ نفس عليها حافظ، و ﴿إِن﴾ هنا: نافية بمعنى: (ما)، و ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى: (إلا)، والمعنى: ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ، يحفظها من أمر الله تعالى يحفظها من أمر الله، ويحفظ أعمالها الصالحة والسيئة.

(٥-١٠) لَفَتَ الله نظر الإنسان إلى أصل خِلقته فقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾: أي: فليتدبَّرْ خلقَه ومَبْدَأه؛ حتى يخضع ويتواضع لربِّه تعالى، ويتَّبع شرعه ودينه، ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ﴾؛ وهو ماء الرجل، وماء المرأة، ﴿دَافِقٖ ٦﴾ أي: يخرج دفقًا بلذَّة، ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾: أي: صُلْب الرجل؛ أي: ظهره، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾ أي: ترائب المرأة؛ أي: عظام صدرها، فالإنسان مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾: أي: أنه تعالى قادرٌ على إرجاع الإنسان وإعادته بعد الموت؛ للجزاء والحساب، ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾: أي: تُختبر سرائر الصدور، ويظهر ما فيها من المكنونات، وتكون علانيةً، وهذا كائنٌ يوم القيامة. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾: أي: ليس للإنسان قوّة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله، وليس له ناصرٌ من غيره ينتصر به، فهو مدين ومرهون بعمله.

(١١-١٤) في هذه الآيات أقسم الله قسمًا آخر فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾: أي: ذات المطر؛ لأنه يرجع ويعود ويتكرَّر كل عام؛ فيُحيي به البلاد والعباد، ولولا ذلك لهلكوا، وهكلت أنعامهم. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾: أي: التي تنصدع وتنشقُّ عن النبات فيخرج منها، ويأكل منه الإنسان والحيوان، وكذلك تنصدع عن الأموات ويخرجون منها يوم القيامة. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي: القرآن الكريم، ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾: أي: حقٌّ لا مرية فيه، وواضح لا لبس فيه، وهو يفصل بين الحق والباطل، ويفصل بين الطوائف والمقالات والخصومات، ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾: أي: باللعب، بل هو قولُ حق وصدق وجِد.

(١٥-١٧) ثم بيَّن الله حال الكافرين، ووصفهم بالكيد؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾: أي: يُدبِّرون المكائد؛ ليطفئوا نور الله، ويصدوا الناس عن دينه، ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾: أي: أجازيهم مقابل كيدهم ومكرهم؛ والكيد هو الاحتيال على الخصم بالضرر عن طريق الخفاء، وابتداؤه مذموم، والرد عليه ممدوح، ولهذا وصف الله نفسه بالرد على كيدهم ومكرهم والمجازاة، ولم يصف نفسه به ابتداءً، فلا يوصف الله تعالى بالكيد والمكر إلا على سبيل المقابلة والمجازاة. ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ﴾: أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿رُوَيۡدَۢا ١٧﴾: أي: قليلًا، فسوف يعلمون عاقبة حالهم حين ينزل بهم العذاب إما عاجلًا في الدنيا كما نزل بهم في بدر، أو آجلًا في البرزخ ويوم القيامة.

سُورَةُ الأَعْلَى

(١) افتتح الله هذه السورة بأمر نبيِّه ﷺ بتسبيحه وتنزيه، والأمر له أمرٌ لأمته، فقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهْهُ وَعظِّمْهُ عما لا يليق به؛ وسبِّحه ناطقًا باسمه بقول: «سبحان ربي الأعلى»، ولهذا لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[1]. وقوله: ﴿ٱلۡأَعۡلَى ١﴾: اسم من أسماء الله؛ متضمن لصفة العلو لله، والعلو ثابت لله بأنواعه الثلاثة: علو الذات، وعلو القَدْر، وعلو القهر، فمن علوِّ قدره أنه عالٍ عن كل عيب ونقص.

(٢-٥) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢﴾: أي: الذي أوجد الخلائق من العدم؛ وسوَّى كل مخلوق بما يناسبه. ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾: أي: قدَّر المقادير، وهدى المخلوقات لهذه المقادير، وهذه هداية عامة لجميع المخلوقات؛ بمعنى: الإلهام؛ فهدى الأنعام لمراتعها، وهدى الطفل لثدي أمه، وهدى الطيور إلى أوكارها، وهدى الناس إلى ما قدَّر لهم من شقاوة وسعادة. ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾: من أنواع النبات والعشب؛ بما أنزله سبحانه من المطر، وهذا في وقت خروجه ونضارته، ثم إذا تأخَّر عنه المطر يبس وذهب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾: أي: جعله بعد نضارته هشيمًا رميمًا يضرب لونه إلى السواد.

(٦-٧) ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾: فيه: بشارة ووعد من الله لنبيِّه ﷺ بأنه سيحفظ القرآن ولا ينساه، وقد كان النبي ﷺ في أول الأمر؛ إذا نزل عليه جبريل بالوحي؛ يُحرِّك لسانه حتى لا ينسى، فضمن الله حفظ كتابه بجمعه في صدر النبي ﷺ. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: استثناء؛ فقد ينسى النبي ﷺ بعض الآيات، ونسيانه إما نسيانٌ مؤقت؛ كما ثبت أنه ﷺ سمع قارئًا بالليل فقال: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا، آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا»[2]، وإما نسيان نسخ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البَقَرَة: ١٠٦]. ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾: أي: إنه تعالى يعلم ما يجهر به الناس، وما يخفونه من الأقوال والأعمال، والجهر والإخفاء عنده سواء.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾: فيه: بشارة أخرى للنبي ﷺ؛ بأنَّ الله سييسِّرُ له أموره الدينية والدنيوية، ومن ذلك: أنه شرَعَ له شرعًا سهلًا سمحًا لا عُسر فيه. وأمة النبي ﷺ لهم من التيسير بقدر تأسِّيهم بنبيِّهم ﷺ واتباعهم له.

(٩-١٠) في هذه الآيات يأمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ بالتذكير؛ وهو أمرٌ لأمته، فيقول تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾: أي: فَذكِّرْ أيها النبي بالقرآن؛ ما دامت الذكرى تنفع؛ بأن يُذكِّر في المواضع التي تُقبل فيها التذكرة ولا تُرد، وأن يَضعها في مواضعها وأماكنها، ومن ذلك: ألا يحدِّث قومًا بشيءٍ لا تبلغه عقولهم؛ حتى لا يكذِّب اللهَ ورسولَه. وقيل: فذكِّر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع؛ فإن قُبِلَت الذكرى فهذا ظاهر، وإن لم تقبل فـ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف:]. وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠﴾: أي: أنَّ الذي يتذكَّر وينتفع بذلك؛ هو مَن يخشى الله ويتقيه، وأما مَن لا يخشى الله؛ فلا يتذكَّر، ولا ينتفع بالموعظة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وصححه ابن حبان (١٨٩٨)، والحاكم (٨١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨).

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾

١١-١٣ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: أي: يبتعد عن الذكرى؛ ﴿ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ﴾: أي: يصلاها وتحيط بهم من جميع الجهات؛ ﴿ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾: وهي نار الآخرة؛ بخلاف نار الدنيا فهي نارٌ صُغرى، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾: أي: أنه يُعذَّب في النار عذابًا شديدًا أليمًا فلا يموت فيستريح؛ ولا يحيا حياة طيبة.

١٤-١٥ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: ﴿قَدْ﴾: للتحقيق، أي: قد تحقَّق فلاح مَن زكَّى نفسه بالأعمال الصالحة، وطهَّرها من أدران الشرك والمعاصي والظلم. والفلاح: هو الفوز بالمطلوب من رضوان الله، والتمتع بكرامته وجنته، والنجاة من المرهوب من النار وغضب الله وسخطه. ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾: أي: اتصف بذكر الله؛ فأوجب له ذلك العملَ الصالح؛ وخصوصًا الصلاة التي هي أفرض الفرائض، وأوجب الواجبات؛ بعد توحيد الله تعالى. وقيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: أخرج زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾: أي: فصلَّى صلاة العيد، وهذا بعض ما تدل عليه الآية، والآية عامة؛ ولا شكَّ أن مَن كان هذا وصفه؛ فسيخرج زكاة الفطر وغيرها، وسيصلي صلاة العيد وغيرها.

١٦-١٧ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾: أي: تُقدِّمون الحياة الدنيا الزائلة على الآخرة الباقية، وتفضِّلونها عليها؛ لأن نعيمها عاجل، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾: أي: والآخرة خيرٌ من الدنيا، وأبقى ثوابًا؛ فهي دار الخلد الباقية، أما الدنيا ففانية.

١٨-١٩ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾: أي: أن مضمون ما ذكره الله في هذه السورة من أولها إلى آخرها موجود في الصحف الأولى. وقيل: إن المراد الأربع الآيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾. فهذه الآيات الأربع مذكورة في الصحف الأولى. ثم بيَّن الله هذه الصحف الأولى بقوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾؛ وصحف موسى غير التوراة التي أنزلت عليه. وخصَّ الله هذين النبيَّين بالذكر؛ لأنهما أفضل الأنبياء بعد نبيِّنا ﷺ؛ فإبراهيم ﷺ يلي نبينا محمدًا ﷺ في الشرف والفضل، ثم يليهما موسى ﷺ.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

١ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾: استفهام تقريري؛ معناه: قد أتاك يا محمد خبر الغاشية. و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ سمِّيت غاشية؛ لأنها تغشى الناس بأهوالها وتعمهم كلَّهم.

٢-٧ بيَّن الله في هذه الآيات: حال الأشقياء يوم القيامة فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾: أي: ذليلة مستكينة، ولكن لا ينفعها ذلُّها واستكانتها يومئذٍ؛ لأن عملها خبيث. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾: أي: في الآخرة؛ والمعنى: أنها متعَبة من العذاب الذي أصابها في النار. ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾: أي: شديدة الحَرِّ، وهي تصلاهم وتحيط بهم من جميع الجهات، ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾: أي: قد اشتدت حرارتها وغليانها؛ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾: جاء عن السلف أنه الشِّبرِق، وهو للتقريب؛ للقدر المشترَك في أصل المعنى؛ حتى يُعرف، وإلا فليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. والمقصود: أنه طعام إذا دخل في الحَلْق فلا يدخل ولا يخرج، ولا نفع فيه، وإنما هو عذاب لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾: أي: لا يدفع الجوع، ولا يستفيد منه صاحبه؛ لأن الطعام إما أن يراد به إزالة الجوع، وإما إزالة الهُزَال، والضريع لا يفيد في إزالة الجوع، ولا في إزالة الهزال.

٨-١٦ ثم ثنَّى الله بذكر حال السعداء فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾: أي: ذات نعمة، ولهذا يُعْرَف النَّعيمُ فيها. ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾: أي: راضية لعملها الذي قدَّمته في الدنيا، والذي بُني على الإخلاص لله، والمتابعة للنبي ﷺ. وهي راضية بثواب سعيها. ﴿فِى جَنَّةٍ﴾: اسم جنس؛ فهي جِنان، ﴿عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾: أي: حسًّا ومعنى؛ فهي عالية حسًّا؛ لأنها فوق السماء السابعة، وعالية معنىً؛ لما فيها أعلى درجات النعيم. ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾: أي: أنَّ مَن دخلها لا يسمع فيها كلامًا باطلًا لا فائدة فيه؛ فضلًا عن أن يسمع فيها كلامًا محرَّمًا. ﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾: اسم جنس؛ وهي عيون كثيرة؛ ﴿جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: أي: سارحة. ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾: جمع سرير؛ وهي المجالس الليِّنة الناعمة، ﴿مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾: في سَمْكِها وعلوِّها، وإذا أرادها العبد في الجنة تواضعت ونزلت إليه. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾: أي: أوانٍ مُعدَّة مهيأة لهم للشرب؛ قد وضعت بين أيديهم، وهي مملوءة بالأشربة اللذيذة على قدر شربهم. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾: أي: وسائد من الحرير والإستبرق، قد صُفَّت وأُعِدّت للجلوس والاتكاء عليها. ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾: هي: البُسُط الحسان مبثوثة في مجالسهم، وهي بُسُطٌ ليست كبسط الدنيا، فالكيفية والكُنْه -أي: الحقيقة- تختلف، وإنما الاتفاق في الأسماء وفي أصل المعنى.

١٧-٢٠ يلفت الله في هذه الآيات أنظار عباده إلى النظر في هذه المخلوقات العظيمة؛ لما فيها من بديع قدرته، والدلالة على وحدانيته، واستحقاقه للعبادة، فيقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾؛ فيتأمَّلون في عظيم خلقتها وتسخيرها، فقد أعطاها الله تعالى من الصفات ما ليس لغيرها؛ من الصبر على الجوع والعطش أيامًا، وكذلك سخَّرها الله لهم؛ فإن شاؤوا ركبوها، وإن شاؤوا أكلوها، وإن شاؤوا ساقوها، وإن شاؤوا حملوا عليها الأثقال، وإن شاؤوا سافروا بها، وهي مذلَّلة منقادة لهم؛ يقودها الإنسان الضعيف والطفل الصغير إلى حيث شاء. وبدأ بذكر الإبل؛ لأنهم يلابسونها ويشاهدونها. ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾: رفعًا عظيمًا، وجعل فيها الشمس والقمر والنجوم السيَّارة والثابتة، وزيَّن بها السماء. ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾: فجعلها منصوبة شامخة راسية، وثبَّت الله بها الأرض؛ لئلا تضطرب وتميل بهم. ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾: أي: بُسِطت؛ ليستقر عليها الخلائق، وينتفعوا بها في الزراعة والبناء والحفر إلى غير ذلك من المنافع العظيمة. والأرض مسطَّحة في نظر الرائي؛ أما شكلها فمستدير، والنصوص واضحة في ذلك.

٢١-٢٢ ﴿فَذَكِّرْ﴾: خطاب من الله لنبيِّه ﷺ؛ يأمره بتذكير الناس ما أوجب الله عليهم من التوحيد، والعمل الصالح، وهذا أمرٌ له، وللدعاة من بعده. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾: أي: أن مهمتك إنما هي التذكير والوعظ، والدلالة والإرشاد، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: لست عليهم بجبَّار؛ تجبرهم وتقهرهم على الإيمان.

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ
جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى
ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ
ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

(٢٣-٢٤) ﴿إِلَّا﴾: استثناء منقطع بمعنى: لكن، ﴿مَن تَوَلَّىٰ﴾: أي: عن العمل بجوارحه، ﴿وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: بقلبه ولسانه، ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾: في يوم القيامة ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: الشديد الدائم؛ وهو عذاب النار، والخلود فيها، ويدخل فيه عذاب القبر؛ فلابد أن يُعذَّب في قبره، أما العذاب الأصغر في الدنيا فقد يُعذَّب، وقد لا يُعذَّب.

(٢٥-٢٦) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾: الإياب بمعنى: الرجوع، والمعنى: أن رجوعهم إلى الله بالموت، ثم يبعثهم للحساب والجزاء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: أي: حسابهم ومجازاتهم على ما عملوا من خير أو شرٍّ.

سُورَةُ الفَجْرِ

(١-٥) افتتح الله تعالى هذه السورة بالقَسَم فقال: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾: وهو فجر كل يومٍ على الصحيح. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾: يحتمل أنها عشر ذي الحِجَّة؛ لأنها فاضلة؛ ففيها: يوم الحج الأكبر، ويوم عرفة الذي ما رُئِي الشيطان في يوم أحقر منه في ذلك اليوم. ويحتمل أنَّها العشر الأواخر من رمضان؛ لأن فيها ليلة القدر؛ والظاهر أنها عشر ذي الحجة، وهو قول الأكثرين. ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾: الخلق كله، منه شفع ومنه وتر. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾: أي: إقبال الليل أو إدباره؛ وإذا حُمِلَ على إقبال الليل كان في مقابل الفجر؛ وهذا حسنٌ. ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾: أي: لذي عقل ولبٍّ، ولا شك أن في هذه المذكورات عبرة وعظة لكل إنسان له عقل سليم. وجواب القسم محذوف؛ تقديره: ليبعثنَّ اللهُ الخلقَ يوم القيامة للحساب والجزاء.

(٦-١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي: ألم تعلم يا محمد، فالرؤية هنا بمعنى: العلم، ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾: أي: كيف أهلكها؟! وعادٌ هم قوم نبي الله هود، ﴿إِرَمَ﴾: قيل: اسم القبيلة، وقيل: اسم جدِّ عادٍ الذي ينتسبون إليه، ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾: أي: ذات القوة الشديدة، وهم طويلوا القامة. ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾: أي: مثل هذه القبيلة؛ فهي قبيلة شديدة قويَّة. ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾: أي: قطعوا الصخر في الوادي، فقد أعطاهم الله قوةً عظيمة؛ وهم قوم نبي الله صالح. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾: أي: الجنود الذين يتقوَّى بهم؛ وقيل: هي الأوتاد التي يربط بها الناس ويُعذِّبهم عليها. والآية تحتمل الأمرين جميعًا. ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾: هذا عائد على الجميع عادٍ وثمود وفرعون؛ فإنهم جميعًا قد طغوا وتجاوزا الحدَّ في الكفر والعناد، وعاثوا في الأرض فسادًا، وأعظم الفساد: الكفر بالله، وتكذيب الأنبياء، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾: أي: في الدنيا، فقد أهلك الله عادًا بالريح، وأهلك ثمود بالصيحة، وأهلك فرعون بالغرق، مع ما أعدَّ لهم من العذاب في الآخرة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾: أي: يرصد أعمال خلقه، ولا يفوته شيء منها، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها. وهذا وعيد وتهديد لمن سلك سبيلهم؛ أن يصيبه مثلما أصابهم.

(١٥-٢٠) ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي: جنس الإنسان، ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: أي: اختبره وامتحنه، ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ بأن أعطاه المال أو الجاه أو غير ذلك من نعم الدنيا، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾؛ فيظن أن ذلك لكرامته على الله، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾: أي: ضيَّق عليه رزقه؛ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾. والمعنى: أنَّ كثيرًا من الناس يعتقدون بأن الله تعالى إذا أكرم أحدًا ونعَّمه بما أعطاه في الدنيا من صحَّة في البدن، ووفرة في مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ؛ أن ذلك لإكرام الله له، وإذا ضيَّق على أحدٍ أن ذلك لإهانته، فنفى الله تعالى هذا الاعتقاد، وبيَّن أن توسيع الرزق وتضييقه إنما هو ابتلاء وامتحان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر، والمعنى: ليست التوسعة على الإنسان دليلًا على الإكرام، ولا التضييق عليه دليلًا على الإهانة، وإنما هو ابتلاء وامتحان: هل يشكر أم يكفر؟! كما قال تعالى عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما جاءه عرش بلقيس: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. وقوله: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾: فيه: بيان حال كثير من الناس؛ بأنهم يهينون اليتيم ولا يُكرمونه، مع ورود الفضل العظيم في إكرامه، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾: أي: لا يحُضُّ بعضهم بعضًا على إطعام المسكين وإكرامه؛ شُحًّا منهم وبخلًا. ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: أي: الميراث، ﴿أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾: أي: شديدًا؛ بأن يأكل الواحد نصيبه ونصيب غيره. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾: أي: كثيرًا شديدًا. وهذه حال كثير من الناس إلا مَن وفَّقه الله؛ فخرج عن هذه الصفة؛ فاكتسب المال من وجوهه المشروعة، وأنفقه في سبل الخيرات.

(٢١-٢٢) ﴿كَلَّآ﴾: أي: حقًّا، ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾؛ فصارت مستوية، وزال ما فيها من الجبال والمرتفعات. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: أي: لفصل القضاء؛ يجيء بنفسه مجيئًا يليق بجلاله وعظمته، ولا يعلم كيفية مجيئه إلا هو سبحانه، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾: أي: والملائكة بين يديه صفًّا صفًّا؛ يحيطون بالخلائق.

(٢٣-٢٦) ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ كما ثبت في الحديث الصحيح: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[(١)]. فتُظهر وتُبرز للناس يوم القيامة؛ ويرونها عيانًا؛ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي: يتذكَّر ما عمله من خيرٍ وشرٍّ، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾: أي: ومن أين التذكر والاتعاظ؛ فلا ينفع يومئذ؛ لأن الآخرة دار جزاء وحساب، لا دار تذكُّر، ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾؛ يتمنى متحسِّرًا لو قدَّم عملًا صالحًا. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرْضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٞ فِي يَوْمٖ ذِي مَسْغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينٗا ذَا مَتْرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾

أي: لا يأتي أحد بعذاب كعذاب الله؛ فلا أحد أشد عذابًا من عذاب الله، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾: أي: يشد ويأسر ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾؛ فلا أحد أشد وثاقًا من وثاق الله. وقرئ: ﴿يُعَذَّبُ﴾ و ﴿يُوثَقُ﴾ بالفتح أي: يُشدَّ ويُؤسر؛ يعود على الكافر المعذَّب نفسه.

٢٧-٣٠ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾: أي: الموقنة بوعد الله تعالى وجزائه؛ من الاطمئنان وهو السكون والاستقرار، قال الحسن: «المُطْمَئِنَّةُ إلى ما قالَ الله، والمُصَدِّقةُ بما قالَ». ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: أي: ارجعي إلى الله تعالى، فكل الأرواح سوف ترجع إلى الله. ﴿رَاضِيَةٗ مَّرْضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾: أي: راضيةً عن الله، مرضيًّا عنها، ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾: أي: في جملة عبادي الصالحين، فالعبودية هنا: العبودية الخاصة؛ وهي عبودية المؤمن الذي يعبد ربَّه باختياره عن إيمانٍ بالله، وتصديقٍ لموعوده، واتباعٍ لرُسله. ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾. وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة.

سُورَةُ البَلَدِ

١-٤ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾: ﴿لَآ﴾ للتأكيد، لا لنفي القسم، والمعنى: أقسم بهذا البلد؛ وهي مكة. وأقسم بها تشريفًا لها؛ فإنها أفضل البلدان على الإطلاق.

﴿وَأَنتَ﴾: الخطاب للنبي محمد ﷺ ﴿حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ قيل: وأنت أيها النبي حالٌّ بهذا البلد أي: ساكن فيها؛ وذلك لأن السورة نزلت بمكة قبل الهجرة. وقيل: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ أي: وهذا البلد حلال لك؛ أحلَّ الله لك القتال فيه ساعة من نهار؛ لإزالة الشرك منه، وليكون بلد إسلام، وكان ذلك في فتح مكة؛ وفي الحديث: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بَعْدِي، وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعةً مِن نَهارٍ»[1]. ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾: الـ ﴿وَالِدٖ﴾ هو آدم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: ذريته، فهو عام يشمل آدم وذريته. وجواب القَسم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أي: جنس الإنسان؛ ﴿فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾: قيل: الـ ﴿كَبَدٍ﴾: الاستواء والاستقامة. والمعنى: خلقناه سويًّا مستقيمًا في أحسن تقويم، وأقوم خِلْقة. وقيل: أي: خلقناه يكابد شدائد الدنيا ومشاقَّها منذ طفولته، ثم يكابد شدائد الآخرة من الموت وأهوال يوم القيامة، ثم إن كان مؤمنًا أبدله بهذه الشدائد فرحًا وسرورًا في الجنة، وإن كان كافرًا وعاصيًا فتستمر عليه الشدائد في النار.

٥-٧ ﴿أَيَحْسَبُ﴾: أي: أيظنُّ الإنسان لظلمه وجهله، ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾﴾؛ حينما يعتدُّ بنفسه وبماله؛ فلهذا يتجبَّر وينفق الأموال في الشهوات، و ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾: أي: مالًا كثيرًا. وسُمِّي الإنفاق في المعاصي: إهلاكًا؛ لأنه لا يُنتفع به، بخلاف المنفق في سبل الخيرات؛ فإنه ينتفع بها في الدنيا والآخرة ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾: أي: أيظن أنَّ الله لا يراه، ولا يعلم بحاله في إهلاكه لماله في الشهوات؟! وهذا وعيد له، والمعنى: أن الله يراه، ويعلم هل اكتسبها من حلال أم من حرام، ويعلم كيف أنفقها، وسيحاسبه على ذلك. وفيه: حثٌّ وترغيبٌ على كسب المال من وجوهه المباحة، وإنفاقِه في وجوهه المشروعة.

٨-١٠ ثم عدَّد الله نِعَمه على الإنسان؛ مُقرِّرًا له بها، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾: يبصر بهما، ﴿وَلِسَانٗا﴾: ينطق به، ويُعبِّر به عما في نفسه، ﴿وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾: تساعدانه على النُّطق والأكل، وفيهما جمال له، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: أي: بيَّنا له طريق الخير وطريق الشر. والهداية هنا: هداية الدلالة والإرشاد. وكلُّ هذه من النعم العظيمة على الإنسان التي تستوجب الشكر لله، وإنه لو حمِدَ اللهَ وأثنى عليه وعبده الليل والنهار؛ ما أدَّى حقَّ شكرِ نعمةٍ واحدة؛ فكيف بهذه النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، فعلى العبد أن يشكر الله على نعمه، وأن يستعملها في طاعته.

١١-١٨ في هذه الآيات: حثٌّ على اقتحام العقبة، وبيان الأعمال الصالحة التي يكون بها اقتحامها؛ فيقول تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾: أي: الأمر العظيم الشديد الذي يكون فيه اقتحام الأهوال العظيمة واقتحام النار وتجاوزها، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾: تفخيم لشأنها، ثم بيَّن تعالى ما يكون به اقتحام العقبة فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾: أي: عتقها من الرِّق أو إعانتها في ذلك، ويَقْرُب من عتق الرقاب: تخليص الأسرى من الكفار، وكذلك تخليص السجناء، والسعي في خلاصهم. ﴿أَوْ إِطْعَٰمٞ فِي يَوْمٖ ذِي مَسْغَبَةٖ ﴿١٤﴾﴾: أي: ذي مجاعة وفقر وحاجة، ثم بيَّن مَن يستحق الإطعام فقال تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾: أي: ذا قرابة، ﴿أَوْ مِسْكِينٗا ذَا مَتْرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾: أي: شديد الفقر حتى إنه لصق بالتراب من شدة فقره وحاجته. ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: لا بد أن يكون مع ذلك مؤمنًا بالله ورسوله؛ لأن هذه الأعمال لا تنفع ولا تقبل إلا مع الإيمان؛ فهو شرطٌ لقبول الأعمال. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: أي: حثَّ بعضهم بعضًا على الصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن محارم الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾: أي: حث بعضهم بعضًا على الرحمة بالخلق، ومن باب أولى الرحمة بالفقراء والأيتام والمساكين ومن ذلك الرحمة بالحيوانات، وقد جاء في الحديث: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاءِ»[2]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾: أي: هؤلاء هم أصحاب الميمنة؛ لأنهم أدَّوا ما أمرهم الله به من حقوقه وحقوق عباده، وهذا عنوان السعادة. وأصحاب الميمنة هنا: يشمل السابقين المقربين، ويشمل أصحاب اليمين؛ لأن هذه الأعمال من أعمالهم، ولأنه قابلهم بأصحاب المشأمة؛ فيكون أصحاب الميمنة شاملًا للصنفين: السابقين المقربين، وأصحاب اليمين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) وقال: حسن صحيح.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ
وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾

١٩-٢٠ ثم ثنَّى الله بذكر حال أصحاب المشأمة؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: كفروا بآيات الله؛ فجحدوا توحيده، ولم يؤمنوا برسله؛ ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾: أي: أصحاب الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾: أي: مطبَقة مغلَقة، لا يَخرجون منها أبد الآباد؛ وذلك بعد خروج عصاة الموحِّدين منها؛ فإذا خرج عصاة الموحِّدين منها أُطبقت النار عليهم؛ فلا يَخرجون منها أبدًا.

سُورَةُ الشَّمْسِ

١-١٠ هذه السورة العظيمة افتتحها الله بأحد عشر قَسَمًا، وهذا أكثر ما ورد في القرآن الكريم، وقد أقسم الله فيها بعَدَدٍ من مخلوقاته؛ وإقسامه بمخلوقاته يتضمَّن من ذكر آياته الدالَّة على كمال قدرته وحكمته، ووحدانيته واستحقاقه للعبادة؛ ما يَحْسُن معه إقسامه، بخلاف المخلوق فإن إقسامه بالمخلوقات شركٌ بخالقها. وابتدأ الله هذه الأقسام بقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾: أقسم الله بالشمس، وأقسم بضوئها وانتشاره. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾: أقسم بالقمر إذا تلا الشمس وتبعها في الضياء والنور؛ لأن الليل يتلو النهار. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾﴾: أي: أظهر ما على الأرض وجلاه وأوضحه. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾: أي: والليل إذا يغشى الأرض بظلامه؛ فالضمير في الآيتين راجع للأرض على الصحيح، وهي غير مذكورة؛ لكن دل على ذلك السياق. وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾: أي: والسماء وبنيانها وخَلْقها ورفعها من غير عَمَدٍ؛ وهذا باعتبار أن ﴿مَا﴾ مصدرية. ويحتمل أن ﴿مَا﴾ موصولة، والمعنى: والسماء والذي بناها؛ وهو الله تعالى؛ الذي قدَّرها على النحو الذي اقتضته مشيئته وحكمته. ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾﴾: أي: والأرض ومَدِّها وبَسْطِها؛ لتكون مُهيَّأة للعيش؛ وهذا اعتبار أن ﴿مَا﴾ مصدرية. ويحتمل أن ﴿مَا﴾ موصولة، والمعنى: والأرض والذي طحاها؛ وهو الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾: أي: والنَّفس وتسويتها؛ فقد سوَّى الله خَلْقَها وعدَّله، وركَّب فيها قواها الباطنة والظاهرة، وحدَّد لكل منها وظيفة تؤدِّيها. وقيل: المعنى: خَلَقَهَا سَوِيَّةً مستقيمة على الفطرة، ثم جاءت الشياطين فاجتالتها وصرفتها عن هذه الفطرة. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾: أي: فألهم كلَّ نَفْسٍ الفجور والتقوى، وعرَّفها حالهما؛ بحيث تُميِّزُ الرُّشْدَ من الغَيِّ، ويتبين لها الهدى من الضلال، وجعل ذلك معروفًا لأولي الألباب. ثم ذكر جواب الأقسام؛ فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾: أي: مَن زكَّى نفسه بطاعة الله، وطهَّرها من الرذائل والأخلاق الخبيثة والمعاصي. فأقسم تعالى على أن مَن زكَّى نفسه بطاعة الله؛ فقد تحقَّق له الفلاح؛ والفلاح هو الحصول على المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ وهو الحصول على رضا الله والتمتع بدار كرامته، والنجاة من غضب الله وسخطه والنار. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾: أي: خسر ﴿مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾: أي: أغواها وأوقعها ودنَّسها بالمعاصي؛ فصارت خفيَّة غير ظاهرة.

١١-١٥ في هذه الآيات ذكر الله قصة ثمود مختصرة، وقد ذكرها مبسوطة في مواضع من كتابه. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾: أي: كذَّبت نبيَّها صالحًا، ﴿بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾: أي: بسبب طغيانها وظلمها وتجبُّرها. ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾: أي: أشقى ثمود؛ وهو رجل عزيزٌ منيعٌ في قومه، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: وهو صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾: أي: اتركوا ناقة الله، واحذروا أن تمسوها بسوء، وإضافة الناقة إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه؛ للتشريف والتكريم. ﴿وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾: أي: واحذروا أن تمنعوها ماءها الذي تشرب منه؛ فإن لها نصيبًا من الماء في يوم، ولكم نصيب، فليس لهم في يومها أن يشربوا من الماء شيئًا، ولا لها أن تشرب في يومهم من الماء شيئًا، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾: أي: كذَّبوا نبيَّهم صالحًا، فقتلوها، ونسب العقر إليهم جميعًا؛ وإن كان الذي باشر ذلك واحد؛ لأنهم رضوا بفعله، وأقروه عليه، والراضي كالفاعل، فصاروا كلهم قتلة؛ فأصابهم الهلاك جميعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾: الدمدمة: الهلاك، أي: فأهلكهم الله جميعًا بالصيحة بسبب ذنبهم؛ ﴿فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾: أي: سوَّى بينهم في العقوبة؛ لأنهم تساووا في الذنب. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾: أي: ولا يخاف الله عاقبة وتَبِعَة ما فعل؛ لأنه تعالى ليس فوقه أحدٌ يخافه ويخشاه، وأما المخلوق فإنه يخاف العاقبة.

سُورَةُ اللَّيْلِ

١-٤ افتتح الله تعالى هذه السورة بعدة أقسام فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾: أي: يغشى الكون بظلامه؛ ليسكن الناس ويستريحوا، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾: أي: تجلَّى للخَلْق بنوره؛ لينتشر الناس في معايشهم. والليلُ والنهارُ آيتان عظيمتان من آيات الله الدالة على كمال قدرته، وحكمته، ووحدانيته واستحقاقه للعبادة. ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾﴾: أي: والذي خلق الذكر والأنثى؛ وهو الله تعالى؛ فيكون أقسم بنفسه سبحانه، وهذا باعتبار أن ﴿مَا﴾ موصولة، أما إذا كانت ﴿مَا﴾ مصدرية؛ فالمعنى: وخَلْقِ الذكر والأنثى؛ فيكون الله أقسم بفعله سبحانه؛ وأنه تعالى القادر الذي خلق الذكر والأنثى صنفين من كل نوع له توالد وتكاثر. وجواب الأقسام قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾: أي: إن عملكم لمختلف متباين؛ فمن الناس مَن عمله صالح؛ وهو المؤمن الذي يريد به الله والدار الآخرة. ومن الناس مَن عمله سيء؛ وهو الذي أشرك بالله وعصاه؛ فكان عمله مردودًا، ومنهم مَن خلط عملًا صالحًا وآخر سيِّئًا.

٥-٧ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾: أي: أنفق ماله فيما أوجب الله عليه من النفقات الواجبة؛ كالزكاة، أو النفقات المستحبة؛ كالصدقات والإنفاق في سُبل الخير المتنوِّعة. ﴿وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾: أي: اتقى الله وخافه، فدفعه هذا الخوف إلى أن يحذر مساخط الله، وأن يمتثل أمره. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾: أي: صدَّق بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وصدَّق بالجزاء والثواب على العمل في الدنيا بالثواب بالخَلَف للنفقة وحصول الحياة الطيبة، وفي الآخرة في جنة النعيم. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾: أي: نُسهِّل عليه أمره، ونيسِّرُ له فعل الخير، وترك الشر؛ جزاءً مُعجَّلًا له في الدنيا.

٨-٩ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أي: بخل بماله عن الإنفاق الواجب والمستحب، ﴿وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: عن الله تعالى؛ ولم ير نفسه مفتقرًا إليه غاية الافتقار، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي: كذَّب بكلمة التوحيد، وكذَّب بالجزاء؛

١٠-١١ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾: أي: فَسَيُيَسَّر لطريق أهل الشقاء، وتكون أموره عسيرة وشاقة، ولا يوفَّق للخير، وهذا جزاء مُعجَّل له في الدنيا. ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾: أي: لا ينفعه ماله الذي بخل به إذا مات وهلك وصار في النار.

١٢-١٣ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾: أي: بيان طريق الخير من طريق الشر، وطريق الهدى من طريق الضلال؛ فبَيَّن الله

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشَّرْح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾

طريق الهدى حتى يُتَّبع، وبَيَّن طريق الضلال حتى يُجتنب. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾: أي: والدنيا، فالله تعالى مالك الدارين؛ والمتصرِّف فيهما، وليس له فيهما مشارك. وهذا ترغيب من الله للمؤمنين؛ بأن يُنفقوا أموالهم في سُبُل الخيرات، ويَحْذَروا من الإمساك والبخل.

١٤-٢١ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: تتوهج وتتوقد وتتلهب؛ وهي نار جهنم، فحذَّر الله عباده من هذه النار؛ وذلك بالبعد عن أسباب دخولها؛ وهي الشرك والمعاصي. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾: أي: لا يدخل النار وتحيط به من جميع الجهات، ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾؛ وهو الكافر، ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾: أي: كذَّب الخبر بقلبه، وتولَّى عن الأمر بجوارحه؛ فالكفر تكذيب بالقلب، وإعراض بالجوارح؛ كما أن الإيمان تصديق بالقلب، وعمل بالجوارح. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: أي: سيكون بعيدًا عنها ﴿ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾؛ وهو المؤمن الذي اتقى الله وخافه؛ فآمن بالله وباليوم الآخر، وعمل صالحًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: أي: ينفق أمواله ليزكِّي نفسه وماله؛ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾: أي: ليس لأحد من الخلق عليه نعمة؛ حتى يجازيه عليها، ويكافئه بهذه النفقة؛ وإنما قصده ابتغاء وجه الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾. وفيه: دليل على وجوب الإخلاص، وأن الإخلاص هو أساس الأعمال. وفيه: إثبات الوجه لله على ما يليق بجلاله وعظمته. وفيه: أنَّ مَن اتصف بهذه الصفات؛ فإنَّ الله وعده بأن يريه وجهه الكريم، وهذا ثواب عظيم؛ فإن النظر إلى وجه الله الكريم أعظم نعيم يُعْطَاهُ أهل الجنة. وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾: هذا وَعْدٌ كريمٌ من ربنا سبحانه؛ بأنه سيرضيه بالثواب العظيم، والجزاء الكبير في الآخرة، وَوَعْدُه تعالى صدق وحق. وهذه الآيات وإن كانت نزلت في أبي بكر الصدِّيق إلا أنَّها عامَّة، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

سُورَةُ الضُّحَى

١-٣ سبب نزول هذه السورة ما ثبت في الصحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ اشتكى؛ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك؛ لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا. وهذا من جهل هذه المرأة وكُفرها وضَلالها. فأنزل الله هذه السورة؛ وفي أولها قَسَمان فقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾: وهو بعد ارتفاع الشمس وانتشار ضوئها، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾: أي: إذا سكن وغطَّى بظلامه الأرض. وجواب القَسَمين قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: أي: ما تركك وأهملك، ﴿وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾: أي: وما أبغضك؛ بل اعتنى بك وأحبَّك، فنفي الضِدِّ يُثْبِتُ ضِدَّه.

٤-٥ ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾: أي: من الدنيا؛ ولا شك أنَّه ﷺ أعظم الناس حظًّا في الآخرة، وأعلى الناس منزلةً في الجنة. وكذلك كلُّ حالٍ متأخرةٍ من أحوال النبي ﷺ فهي أفضل من الحال السابقة. وكما أن الآخرة خير للنبي ﷺ من الدنيا؛ فكذلك هي للمؤمن؛ لأن الآخرة باقية، والدنيا زائلة فانية. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾: هذا وعد من الله لنبيِّه ﷺ بأنه سَيُعطيه ويُرْضيه بأنواع الإكرام، ومن ذلك: أن يُرضيه في أمَّته في الشفاعة فيهم، وفيما أعد من الكرامة لهم.

٦-٨ ثم امتنَّ الله على نبيِّه ﷺ وذكَّره بنعمه عليه فيما مضى من عمره؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾؛ وذلك أن والده تُوفِّي وهو في بطن أمِّه، ﴿فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾: بأن كَفَلَه جَدُّه عبد المطلب إلى أن تُوفِّي وعمره ثمانُ سنين؛ ثم كَفَلَه عمُّه أبو طالب؛ فنصره وأحاطه، وكفَّ أذى قومه عنه، وكل ذلك بتقدير الله وتدبيره. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾: أي: وجدك غافلًا عما يُراد بك من أمر النبوة فهداك لها، كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَى:]؛ فالنبي ﷺ لم يكن يعلم القرآن الكريم، ولا ما أنزل الله عليه من تشريع حتى هداه الله وعلَّمه. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾: أي: وجدك فقيرًا فأغناك الله؛ بما فتح عليك من الفتوح في حياتك، وبما فتح على أمتك بعد وفاتك.

٩-١١ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾: أي: كما كنتَ يتيمًا فلا تقهر اليتيم؛ بأن تَرُدَّه أو تَنهره أو تُهينه؛ بل أكرمه، وعامله باللين والرفق، والكلام الطيب؛ وأعطه ما تيسَّر. وهذا خطاب للنبي ﷺ ولأمته. ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ فيه: عدم نهر السائل سواء السائل في العلم، أو السائل في المال؛ كلٌّ منهما لا يُنهر؛ بل يُعطى ما تَيسر، أو يُرَدُّ بمعروف وإحسان وكلام طيب. ويستثنى من هذا: سائل المال إذا عُرِف بأنه غير محتاج، وسائل العلم إذا عُرِفَ بأن قصده التعنت وأذى المسؤول. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾: أي: حدِّث بها على سبيل الاعتراف بها؛ فيكون ذلك داعيًا إلى شكر الله عليها بالقول والعمل؛ فإن التحدُّث بها ونسبتها إلى الله؛ نوعٌ من الشكر، ثم استعمالها في طاعة الله ومرضاته. هذا في النعم الدنيوية، ويشمل أيضا النعم الدينية لكن ليس على الإطلاق؛ لأنه قد يكون من الرياء؛ فإذا كان فيها مصلحة للتأسي والاقتداء فلا بأس.

سُورَةُ الشَّرْح

١ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾: الاستفهام للتقرير، والجواب: بلى، والمعنى: قد شرح الله لك صدرك أيها النبي. وشرحُ صدرِ النبيِّ ﷺ نوعان: النوع الأول: شرحٌ حسيٌّ؛ وقد وقع ذلك للنبي ﷺ مرتين: الأولى: حين كان صغيرًا يلعب مع الصبيان في بادية بني سعد، كما في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك: أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقالَ: هذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ[1]. الثانية: قبل الإسراء والمعراج. كما في الصحيحين أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: فُرِجَ سَقْفِي وأَنا بمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ، مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وإيمانًا، فأفْرَغَها في صَدْرِي ثُمَّ أُعِيدَ مَكانَهُ، ثُمَّ حُشِيَ إيمانًا وحِكْمَةً[2]. وهذا من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة.

النوع الثاني: شرحٌ معنويٌّ؛ بأن جعل صدره فسيحًا رحيبًا لشرائع الإسلام، والدعوة إلى الله؛ وجعله متحمِّلًا لكل أذى يأتيه من قومه، مقابلًا لهم بما يناسبهم من العفو والصفح. وكذلك جعل شريعته سهلة ميسرة، صالحة لكل زمان ومكان؛ ليس فيها ضيق ولا حرج. فالآية تشمل الأمرين جميعًا: الشرح الحسي، والشرح المعنوي، وقد نشأ من الشرحِ الحسي: الشرحُ المعنوي؛ وهو المطلوب والمهم.

٢ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾: أي: غفرنا لك ذنبك المتقدِّم والمتأخر؛ كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٤).

ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَلَقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

٣-٤ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾: أي: الذي أثقلك حملُه، وهذا قبل أن يغفره الله له؛ والمعنى: لولا أنَّ الله غفر لك ذنبك لكان حِمْلُه عليك ثقيلًا. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾: أي: أعلينا لك قَدْرَك، وجعلنا لك ثناء حسنًا لم يصل إليه أحد من الخلق؛ وذلك بأن قُرِنَ اسمُه باسم الله تعالى؛ كما في كلمة التوحيد، وفي الأذان، وفي الإقامة، وفي التشهد، وفي الخُطَب والرسائل والمكاتبات وغير ذلك من الأحوال؛ فلا يُذكر الله تعالى إلا وذُكر معه النبي ﷺ، وهذه منزلة عظيمة.

٥-٨ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾: ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ هو: الشدة والضِّيق، والـ﴿يُسْر﴾ هو: الفَرَج والسعة. فبيَّن تعالى أن العُسْر يقارنه اليسر؛ وهو وعد كريم منه سبحانه، ووَعْدُه حق. وقد قال العلماء: إذا أُعيدت النكرة نكرة أخرى؛ كانت غير الأولى، وإذا أُعيدت المعرفة معرفةً أخرى؛ كانت هي الأولى. كما في هاتين الآيتين؛ فقد ذكر العُسر معرَّفًا في الموضعين؛ فدل على أن الأول هو الثاني؛ فيكون العُسر واحدًا، وأما اليُسر فقد ذُكر منكَّرًا في الموضعين؛ فدل على أن الأول غير الثاني؛ فهما اثنان. فصح أن يقال في الآية ما ورد: «لن يَغْلِب عسرٌ يُسْرَين»[(١)]. ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾﴾: أمرٌ من الله لنبيِّه ﷺ بأنه إذا فرغ من أعماله وأشغاله الدنيوية؛ فعليه أن يَجِدَّ ويتعب في عبادة ربِّه، ويُقبل عليها، ويُفَرِّغ نفسه لها؛ بأن يُبعد الشواغل عن قلبه. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾: أي: ارغب إليه وحده في قبول عبادتك، وإجابة دعائك. وذلك يكون بالإخلاص. وهذا الإرشاد له ﷺ ولأمته؛ فكلُّ مسلم مأمور بأن يجتهد في العبادة، وأن يرغب إلى الله في قبول عبادته، وفي إجابة دعائه، فيخلص لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة.

سُورَةُ التِّينِ

١-٦ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾: ﴿وَ﴾ (الواو) للقسم؛ والتين والزيتون هما الشجرتان المعروفتان على الراجح؛ أقسم الله بهما لأن خيرهما كثير، ونفعهما عظيم؛ وإشارة إلى المكان الذي ينبتان فيه في الغالب؛ وهو بيت المقدس بفلسطين، وهو المكان الذي بُعِثَ فيه عيسى. ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾: الـ﴿طُورِ﴾: هو الجبل الذي كلَّم الله عَزَّوَجَلَّ عنده موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و﴿سِينِينَ﴾ قيل: بمعنى: المبارك، وقيل: لغة في سيناء، فهو اسمٌ للجبل. وهذا قسمٌ بمحل نبوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾: أي: مكة؛ وهو البلد الذي بُعِثَ فيه نبيُّنا محمد ﷺ؛ وهو أفضل بقاع الأرض؛ كما دلت على ذلك النصوص. فأقسم الله بهذه الأماكن الثلاثة التي كانت محلًّا لنبوة عيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. والمقسم عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾: أي: تام الخِلْقة، متناسق الأعضاء، منتصب القامة، في أحسن صورة وشكل واستقامة. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾: أي: إلى النار؛ لأنها في أسفل سافلين؛ والمعنى: أنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، لكن ذلك لا ينفعه؛ فإنه إن كان عمله سيئًا -بأن كفر بالله؛ ولم يعمل بطاعته- ردَّه الله إلى أسفل سافلين أي: إلى النار. أما مَن عصمه الله بالإيمان والعمل الصالح؛ فلا يردُّه الله إلى أسفل سافلين؛ ولهذا استثنى الله تعالى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: جمعوا بين الإيمان بالقلب، والعمل بالجوارح؛ فهؤلاء استثناهم الله ممن يَرُدُّه إلى أسفل سافلين؛ ولهذا وعدهم بالأجر العظيم فقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾: أي: غير منقطع؛ بل هو مستمر ودائم؛ لأن نعيم الجنة دائم مستمر، لا يزول ولا ينفد.

٧ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾: الخطاب للإنسان المكذِّب؛ توبيخًا له، وإنكارًا عليه، والمعنى: ما الذي يحملك على التكذيب بالبعث والجزاء والحساب؛ وقد عرفت كيف أوجدك الله من العدم، وخلقك في أحسن تقويم؛ فإن مَن قَدِر على بدء خلقك؛ قادرٌ على أن يعيدك مرةً أخرى.

٨ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾: الاستفهام إذا سبقه نفي يكون جوابه: (بلى). فالمعنى: بلى، فهو سبحانه أحكم الحاكمين؛ أي: أقضى القضاة؛ الذي لا يجور، ولا يظلم أحدًا من خلقه؛ وهذا باعتبار أن ﴿أَحْكَمِ﴾ مشتق من الحُكْم؛ وهذا قول كثير من المفسرين. وقيل: إنَّه مشتق من الحكمة؛ أي: هل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدًى؛ لا يُؤمرون ولا يُنهون في الدنيا، ولا يثابون ولا يعاقبون في الآخرة؟ وما ورد من قول: (بلى)؛ عند قراءة هذه الآية: في سنده مقال، وإنما الذي صح ما تقدم في آخر سورة القيامة.

سُورَةُ العَلَقِ

١-٥ هذه الآيات الكريمات: هي أول ما نزل من القرآن الكريم؛ أما بقية السورة فتأخر نزولها، وقد نزلت هذه الآيات على النبي ﷺ حين كان في غار حراء؛ يقول تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾: أي: اقرأ ما يوحيه الله إليك، متلبسا باسم ربك مستعينا به سبحانه، فهو عَزَّوَجَلَّ الذي أوجد الأشياء، ولا يُعجزه أن يَجعلك قارئًا بعد أن لم تكن تقرأ. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾: الـ ﴿عَلَقٍ﴾: جمع عَلَقَة؛ وهي الدم الجامد؛ وهي الطور الثاني من أطوار خلق الإنسان. ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾: أي: كثير الكرم والإحسان، واسع الجود؛ ومن كرمه وجوده: أنه علَّم الإنسان. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾: أي: بواسطة القلم؛ فالقلم وسيلة للتعلُّم؛ وبه تكون الكتابة، وفي الكتابة مصالح عظيمة لا يحصيها إلا الله. ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾: أي: علَّمه ما لم يكن يعلمه من المعارف والعلوم؛ لأنه خَرَج من بطن أمه لا يعلم شيئًا؛ وجعل له السمع والبصر والفؤاد؛ وهي وسائل التعلُّم.

٦-٨ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾: أي: أنَّ مِنْ طَبْع الإنسان أنه يتجاوز الحدَّ الذي يجب أن يكون عليه. ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾: أي: أن سبب طغيانه استغناؤه بماله، وأن لديه مالًا كثيرًا؛ ولهذا توعَّده الله بقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾: وهذا تهديد ووعيد بأنه سيرجع إلى الله، وسيجازيه ويحاسبه. والطغيان بسبب الاستغناء هو الغالب في الناس، إلا مَن وفَّقه الله وهداه؛ فاستعمل ما أغناه الله به من المال في طاعة الله.

٩-١٢ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾: نزلت في أبي جهل عمرو بن هشام؛ لأنه هو الذي كان ينهى النبي ﷺ؛ كما جاء ذلك في الحديث الصحيح؛ فالناهي هو: أبو جهل، والعبد المصلِّي هو: رسول الله ﷺ. ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ أي: أن المعنى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾: أي: أيها الناهي ﴿إِن كَانَ﴾: أي: العبد المنهي؛ وهو محمد ﷺ، ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾: أي: على الطريق المستقيمة، عالمًا بالحق، عاملًا به، ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾: أي: أمر غيره بتقوى الله

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣٦٤٣)، والطبري (٤٩٥/٢٤)، مرسلا عن الحسن، وجاء موقوفا على عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حسنه ابن حجر موقوفا كما في تغليق التعليق (٣٧٢/٤).

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

تعالى. فكيف تزجره وتنهاه عن الصلاة وهذا وصفه؟! وهل يحسن أن يُنهى مَن هذا وصفه؟ وقيل: المعنى: أرأيت أيها النبي ﷺ لو كان هذا الإنسان المتكبِّر الكافر على هدى وصراط مستقيم، مُتبعًا للحق، وداعيًا إلى التقوى، أَمَا يكون ذلك أفضل له من أن يُصِرَّ على الكفر، ومن أن ينهى عن الصلاة.

١٣-١٤ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾: أي: أرأيت أيها النبي إن كذَّب هذا الكافر بقلبه ما جئت به من الحق والهدى، وأعرض بجوارحه عما تدعو إليه من العمل والطاعة. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: أفلا أرشده عقله إلى أن الله يراه، ويرى فعله، وسيجازيه بما يستحقه من العذاب؟!

١٥-١٩ ثم توعَّده الله إن استمر على كفره وشقاقه وأذاه فقال تعالى: ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر، ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾: أي: عما هو عليه، ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾: أي: لنأخذن بناصيته أخذًا شديدًا؛ وهذا وعيد له بأنه سيُؤخذ ويُلقى في النار، ﴿نَاصِيَةٍ﴾؛ وهي ناصية أبي جهل، ﴿كَٰذِبَةٍ﴾: في مقالها، ﴿خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: في فعالها. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أي: أهل مجلسه وعشيرته ومَن كان معه؛ ليستنصر بهم، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾: أي: خزنة جهنم؛ لأخذه وعقوبته. وهذا وعيدٌ وتهديد له. ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾: أي: لا تطعه أيها النبي في نهيه لك عن الصلاة، ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾: أي: اقترب من الله بصلاتك وطاعتك. وفيه: دليل على أن القُرْب من الله يكون بطاعته. وفيه: أن الساجد يكون قريبًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»[١]. وقرب الله نوعان: قرب من السائلين بالإجابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة:]. وقرب من العابدين بالإثابة، كما في هذه الآية: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

سُورَةُ القَدْرِ

١-٢ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾: ضمير الجمع: للتعظيم، والـمُنزَل هو القرآن، فالله جَلَّوَعَلَا أنزل القرآن في ليلة القدر، أي: ابتدأ نزوله في ليلة القدر في رمضان إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل مُفرَّقًا على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية أن كون جبريل نزل به من الله على محمد ﷺ لا ينافي كونه تعالى كتبه قبل أن يرسل به، ولا كونه قد أُنزل مكتوبا إلى بيت العزة جملة واحدة. فالله تكلم به حقيقة، بحرف وصوت، خلافا للأشاعرة والمعتزلة. وسُمِّيت ليلة القَدْر بذلك؛ لِعظَم شأنها وفضلها وقَدْرها عند الله، ولأن الله يُقدِّر فيها ما يكون في تلك السَّنة من المقادير العامَّة؛ من سعادة وشقاوة، وعز وذلٍّ، وصحة ومرض، وحياة وموت، وفقر وغنى، وغير ذلك من المقادير التي تقع في تلك السَّنة. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾: أسلوبٌ يُراد به التفخيم والتعظيم من شأنها.

٣ ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾: أي: قيامها والعمل الصالح فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة قدر؛ وهي ما يعادل أكثر من ثلاثٍ وثمانين سنة. وهذا يدل على عِظَم فضلها؛ ويوجب على المؤمن أن يبذل وسْعَه في تحرِّيها.

٤-٥ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ. والمعنى: أنه يَكثُر نزول الملائكة إلى الأرض في ليلة القدر؛ وذلك لبركتها؛ والملائكة تتنزَّل مع البركة والرحمة. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾: أي: بكل أمر من الخير والبركة من عنده سبحانه، أو بكل أمر قدَّره الله تعالى وقضاه في تلك السَّنة. ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾: أي: ليلة القدر سالمة من الآفات والشرور، فهي خير كلها، لا شرَّ فيها، وهذا السلام مستمر ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾: أي: إلى طلوع الفجر. فمُبتَدأُ هذه الليلة المباركة: من غروب الشمس، ومنتهاها: طلوع الفجر. وليلة القدر من خصائص هذه الأمة؛ رحمهم الله تعالى بها؛ لِقِصَر أعمارهم. وقد اختلف العلماء في تعيين ليلة القدر اختلافًا واسعًا، والصواب والصحيح من أقوالهم: أنها باقية لم ترفع، وأنها تقع في كل سنة، وأنها في رمضان في العشر الأواخر منه، وأنها تكون في الأشفاع والأوتار، وأنها متنقلة؛ ولكن الأوتار أرجى من غيرها، وليلة سبع وعشرين أرجى من غيرها، والسبع الأواخر أرجى من غيرها؛ كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ لكن ليس هناك جزمٌ؛ فقد تكون في الأشفاع، وقد تكون في الأوتار. والحكمة من إخفائها: حتى يجتهد العباد في تحرِّيها وطلبها، كما أخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة؛ ليطلبها العباد في جميع اليوم. ولكن لليلة القدر علامات، ومن علاماتها: أنَّ الشمس تطلع صبيحتها ليس لها شعاع[٢].

سُورَةُ البَيِّنَةِ

١-٥ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: وهم اليهود والنصارى، سُمُّوا أهل كتاب؛ لنزول كتاب عليهم من الله؛ فاليهود كتابهم التوراة، والنصارى كتابهم الإنجيل. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: عَبَدَة الأوثان والأصنام. ﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: منتهين عن كفرهم وشركهم وضلالهم، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾: أي: الحُجَّة الواضحة التي يُميَّز بها الحقُّ عن الباطل، ثم فسَّرها بأنها: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: وهو محمد ﷺ، ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ أي: يتلو صحفا محفوظةً من الشياطين؛ وهي القرآن الكريم. ﴿فِيهَا﴾ أي: في هذه الصُّحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: مستقيمة؛ لا عوج فيها ولا اضطراب؛ لأنها من عند الله؛ فأخبارها صادقة، وأوامرها عادلة. وفي هذه الآيات: دليل على قيام الحُجَّة على أهل الكتاب والمشركين.

٤ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: في شأن النبوة والقرآن، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾: أي: البينات التي تدل على صدق النبي ﷺ. والمعنى: أنَّ اختلافهم إنما كان بعد مجيء البينة، وأما قبل ذلك فكانوا مجتمعين على الكفر، فلما جاءتهم البينة تفرَّقوا؛ فهدى الله مَن هدى، وبَقِيَ على الكفر مَن بقي. وهذا من العجائب: أنَّ أهل الكتاب ما تفرَّقوا إلا بعد مجيء البيِّنة التي تُوجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ومع ذلك تفرَّقوا؛ لرداءتهم ونذالتهم؛ وهذا وصفُ الكفار منهم، ويخرج منه من آمن كعبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٥ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾: أي: ما أُمِرُوا على ألسنة رسلهم إلا بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، والبراءة من الشرك وأهله. ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: نصَّ عليهما؛ لعظم شأنهما، ولأنهما أفضل وأجل الأعمال بعد توحيد الله تعالى. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: أي: ما أُمِرُوا به من عبادة الله وإخلاص الدِّين له، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾: أي: الدِّين القيِّم المستقيم، الذي لا عوج فيه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٦٢).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: فبيَّن تعالى أن الكفار سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين؛ كلهم مخلَّدون في النار، لا يخرجون منها، بل هم ماكثون فيها أبد الآباد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾: أي: شر الخليقة التي خلقها الله وذرأها؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

٧-٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: آمنوا بالله، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: من الواجبات والمستحبات، فجمعوا بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾: أي: خير الخليقة. ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي: ثوابهم عند الله بساتين، و ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة؛ فلا يرحلون منها، ولا يظعنون عنها، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: أي: ماكثين لا يحولون ولا ينتقلون، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: وهذا أعظم ثواب يعطاه المؤمنون بعد رؤية ربِّهم سبحانه؛ وهو أن يُحِلَّ الله تعالى عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا. وفيه: إثبات صفة الرضا لله على ما يليق بجلاله وعظمته. وفيه: الرد على المعتزلة الذين أنكروا صفة الرضا، والرد على الأشاعرة الذين تأوَّلوا صفة الرضا بتفسيرها بالثواب، أو بإرادة الثواب. ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: الثواب والأجر العظيم، ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾: أي: خافه مع علم وبصيرة؛ فقاده ذلك إلى توحيد الله، وإخلاص الدِّين له، وهذه هي الخشية الحقيقية، والخوف المحمود.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

١-٥ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرفٌ لما يُستقبل من الزمان، ﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: أي: تحرَّكت وارتجت ودُكَّت؛ حتى يسقط ما عليها من بناء ومَعْلَم، وتكون قاعًا صفصفًا مستوية، وتُمَدُّ مدَّ الأديم -أي: الجلد-. ﴿زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾: الذي أَذِنَ الله لها فيه؛ وهو مصدر للتأكيد. ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ أي: ما في بطنها من الموتى والكنوز، فتُلقيهم على ظهرها. ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾: أيُّ شيء حصل لها؟! يقول ذلك مستنكرًا لأمرها، ومستعظمًا له. و ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هنا: هو الكافر خاصَّة؛ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾: هذا جواب ﴿إِذَا﴾، والمعنى: إذا حصلت هذه الأمور؛ فيومئذٍ تُحدِّث أخبارها أي: تُحدِّث عن كلِّ عاملٍ بما عمل على ظهرها من خيرٍ أو شرٍّ، فتقول: عملت يا فلان كذا، يوم كذا وكذا. فالأرض تشهد على العباد يوم القيامة، كما تشهد عليهم جوارحهم، وتشهد عليهم الملائكة. ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾: أي: لأن الله أَذِنَ إليها بذلك، وأمرها به.

٦ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: ينصرفون من موقف القيامة فِرَقًا وأحزابًا، قسمٌ ينصرف إلى النار، وقسمٌ ينصرف إلى الجنة. ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي: ليُجازَوا بأعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

٧-٨ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾: أي: أن مَن عَمِلَ من الخير وزن نملة صغيرة أو وزن هباءة؛ فإنه يجد ثوابه، وما فوق ذلك من باب أولى. وهذا يوجب على العبد ألَّا يحتقر من المعروف شيئًا. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾: أي: ومَن عَمِلَ من الشرِّ وزن نملة صغيرة أو وزن هباءة؛ فإنه يجده أمامه. وهذا يوجب على العبد ألَّا يحتقر أيَّ ذنبٍ عمله؛ ولو كان من الذنوب الصغيرة؛ فإن لها من الله طالبًا؛ وقد تجتمع على العبد حتى تهلكه. وهذا يدل على أن الحساب يوم القيامة دقيق، وأن الميزان يزن كلَّ شيءٍ، وهاتان الآيتان شاملتان جامعتان للخير والشر كلِّه.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

١-٥ هذه السورة الكريمة أقسم الله فيها: بالخيل وبأوصافها؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾؛ وهي الخيل التي تعدو عدوًا قويًّا، وتجري جريًا سريعًا، والضَّبح: هو صوت نَفَسِها في صدرها عند اشتداد عَدْوِها. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾: أي: الخيل التي تَضْرِب بحوافرها الحجارة؛ فتقدح منها النار، ويتطاير منها الشَّرَر ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾: أي: الخيل التي تُغِير على العدو في وقت الصباح؛ وهذا في الأغلب، وإلا فقد تُغِير في المساء. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾: الـ ﴿نَقْعًا﴾ هو: الغُبار، والمعنى: أنها تثير بعَدْوِها وغارتها الغُبَارَ في الأرض التي تمشي عليها، أو في أرض المعركة. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾: أي: تتوسط جموع الكفار، فتُفرِّقُها وتُشتِّت شملها. ثم ذكر الله المقسَمَ عليه.

٦ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾: أي: جنس الإنسان، والمعنى: أن الإنسان بطبعه جحود لنعمة الله عليه، مُنكِرٌ لها. وهذا وصفٌ طُبِعَ عليه الإنسان، ولكنَّ الله يَمُنُّ على مَن يشاء من عباده بالخروج عن هذا الوصف، والاعتراف بنعمة الله، وإخلاص العبادة له سبحانه.

٧ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾: يُحتمل عود الضمير على الإنسان؛ والمعنى: أنَّ الإنسان شهيد على نفسه بأنه جحود، ومعترف بذلك بلسان حاله. ويُحتمل عود الضمير على الله تعالى؛ والمعنى: أن الله تعالى شهيد ومُطَّلع على الإنسان الجحود.

٨ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾: المراد بـ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾: المال، والمعنى: أن الإنسان بطبعه شديد الحُبِّ للمال، شديد الحرص على جمعه، ولهذا منع ما أوجب الله عليه، ويخرج من هذا

إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ (٦) وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ (٧) وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ (١١)

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡقَارِعَةُ (١) مَا ٱلۡقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ (٣) يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ (٧) وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ (٩) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ (١٠) نَارٌ حَامِيَةُۢ (١١)

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ (٨)

الوصف: مَن وفقه الله للإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يَكسِبُ المال من وجوهه المشروعة، ويُنفقه في وجوه الخير؛ وإن كان حب المال غريزة وطبيعة وجبلة في الإنسان.

(٩-١١) ثم قال الله تعالى تذكيرًا وتهديدًا لهذا الإنسان بما يكون في الآخرة: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩﴾: أي: أفلا يعلم ويتعظ هذا المغترُّ إذا أُخرِج ما في القبور من الموتى في يوم البعث، ووقفوا بين يدي الله للحساب والجزاء. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾: أي: ظَهَر وبَان ما تخفيه النفوس في صدورها، وتظهر الخفايا، وتتبيَّن الحقائق، وتنكشف المخبَّآت والسرائر. ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾: أي: خبيرٌ بأحوالهم، وبما عملوا من خير أو شرٍّ، وسوف يجازيهم على ذلك. وخصَّ يوم القيامة؛ لأن المراد: الحساب والجزاء؛ وإلا فهو سبحانه خبيرٌ بجميع أحوالهم في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ القَارِعَةِ

(١-٥) ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١﴾: اسم من أسماء يوم القيامة؛ سُمِّيت بالقارعة؛ لأنها تقرع القلوب بشدتها وأهوالها. ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢﴾: استفهام غرضه: التفخيم والتهويل من شأنها، وعِظَم خَطَرِها. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾: أي: أيُّ شيء يعرِّفك بها، فمهما تخيَّلت أمرها؛ فهي أعظم من تقديرك. ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤﴾: ﴿ٱلۡفَرَاشِ﴾: الطيور الصغيرة التي تكون في الليل، يموج بعضها في بعض، لا تدري وجهتها، فتراها تقع في النار والسُّرُج. والمعنى: أن الناس من هول ذلك اليوم: يكونون منتشرين هائمين على وجوههم، لا يدرون ما يفعلون، ولا ما يُراد بهم. ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ﴾: أي: أن هذه الجبال الصلبة القوية، التي لا يستطيع أحدٌ زحزحتها من شدتها وصلابتها، وكثافتها وغلظها، وثباتها على الأرض، تكون يوم القيامة: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥﴾: أي: كالصوف المنفوش الذي يكاد يتمزق، فتطير في الهواء؛ وهذا من شدة الهول يوم القيامة.

(٦-٧) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦﴾: أي: رجحت حسناته على سيئاته وهو المؤمن؛ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧﴾: أي: في حياة سعيدة طيبة، رضي بها، واطمئن إليها، وارتاح فيها، وهي جنة فيها من النعيم: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحدٍ من البشر.

(٨-١١) ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨﴾: أي: رجحت سيئاته على حسناته، أو لا حسنات له لكفره وعدم إيمانه، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾: أي: أنه يسقط ويهوي في النار على أمِّ رأسه أي: على دماغه، فلا يدخلها برجليه؛ بل على رأسه منتكسًا. وقيل: إن الهاوية اسم من أسماء النار؛ سميت بذلك؛ لأنَّه يأوي إليها، كما يأوي الطفل إلى أمِّه، فليس له مأوى غيرها، ولهذا فخَّم الله من شأنها فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠﴾: أي: أيُّ شيء يعلمك ويخبرك بما هي تلك الهاوية؟ ثم فسَّرها بعد إبهامها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾: أي: شديدة الحرارة، والنار قسمان: قسم حارٌّ، وقسم بارد؛ وهو الزمهرير.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

(١-٢) ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾: أي: شغلكم عمَّا خُلقتم له من عبادة الله وتوحيده وطاعته؛ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾: أي: على سبيل التفاخر، وحذف الشيء المتكاثر به؛ لإرادة العموم، فهو يشمل التكاثر في الأموال، والتكاثر في الأولاد، والتكاثر في التجارات، والتكاثر في الجنود، وغير ذلك من التكاثر في أمور الدنيا وزينتها، مما يكون على سبيل التفاخر، ثم استمرَّ انشغالكم بهذا التكاثر إلى أن جاءكم الموت وأنتم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢﴾: أي: حتى مِتم ودُفِنتم في المقابر، فانتهت أعماركم وأنتم على هذه الحال؛ وهذه حال كثير من الناس إلا مَن رحم الله تعالى.

(٣-٧) ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ وزجر، ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣﴾: وعيد وتهديد، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤﴾: وعيدٌ بعد وعيدٍ، وتهديد بعد تهديد؛ للتأكيد. ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥﴾: ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ هو العلم الذي يحصل بالخبر، وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف، والتقدير: لو علمتم علمًا يقينيًا، ووصل هذا العلم إلى قلوبكم؛ لما ألهاكم التكاثر، ولَعلِمْتُم حقيقة ما خُلقتم لأجله، وعملتم له، فكان عندكم استعداد ليوم القيامة. وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦﴾. هذه جملة مستقلة، وليست جواب ﴿لَوۡ﴾ في الآية السابقة، وفيها قسم، والمعنى: أقسم لترون الجحيم، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾: أي: بأعينكم، فهذه الرؤية رؤية بصرية. فـ ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾: هو الذي يحصل بالمشاهدة، و ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ هو العلم الذي يحصل بالخبر، و ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥﴾ [الوَاقِعَة:] هو الذي يحصل بالمباشرة.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾: أي: يُسأل الإنسان عما أعطاه الله من النعيم: هل استعمله في طاعة الله، أم استعمله في معصية الله؟! فإن استعمله في طاعة الله فقد شكر الله؛ فيجازيه جزاء الشاكرين، وإن استعمله في معصية الله؛ فقد كفر نعمة الله؛ فيجازيه جزاء الكافرين. والنعيم عامٌّ؛ فكل ما حصل للإنسان من لذة؛ فهو نعيم أنعم الله به عليه، من المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، والمال والولد، والصحة والأمن.. إلى غير ذلك من النِّعم التي لا تُعَدُّ ولا تحصى.

سُورَةُ العَصْرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢
يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩

سُورَةُ الفِيلِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ
كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣
تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥

سُورَةُ العَصْرِ

(١-٣) هذه السورة المباركة افتتحها الله بالقَسَم بالعصر؛ وهو: الزمان كلُّه. أقسم به؛ لأنه محلُّ أعمال العباد من خيرٍ وشرٍّ. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: أي: جنس الإنسان، ﴿لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾: أي: لفي خسار وهلاك. وقد أكَّد الله ذلك بثلاثة مؤكدات: القَسَم، وإنَّ، واللام ﴿لَفِي﴾. ثم استثنى الله من هذه الخسارة: الرابحين الذين اتصفوا بالصفات الأربع المذكورة في بقية السورة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: وحَّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، وكان إيمانهم عن علم وبصيرة؛ والإيمان إذا أُطْلِق دخلت فيه أعمال الجوارح، أما إذا قُرِنَ بالعمل - كما في هذه الآية فيفسَّر: بإيمان القلب؛ ويفُسّر العمل: بعمل الجوارح. ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: بجوارحهم؛ فأدَّوا الواجبات، وتركوا المحرمات. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: أوصى بعضهم بعضًا بالحق؛ وهو الإيمان، والعمل الصالح، ويدخل فيه: الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾: أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. وبالصفتين الأوليين وهما: الإيمان، والعمل الصالح؛ يُكمِّل الإنسان نفسه. وبالصفتين الأُخريين وهما: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ يُكمِّل الإنسان غيره. وهذه الصفات الأربع: مَن أقامها واستقام عليها وكملها؛ فهو الرابح الذي تمَّ ربحه، ومَن ضيعها جميعًا؛ فهو الخاسر الذي تمَّت خسارته، ومَن ضيَّع شيئًا منها؛ فقد فاته من الربح، وحصل على الخسارة؛ بقدر ما ضيَّع منها.

سُورَةُ الهُمَزَةِ

(١-٩) ﴿وَيۡلٞ﴾: أي: شدة العذاب والهلاك، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾: أي: كثير الهَمْز؛ وهو مَن يعيب الناس ويسخر منهم بفعله أو بإشارته بعينه، ﴿لُّمَزَةٍ ١﴾: أي: كثير اللَّمْز؛ وهو مَن يعيب الناس ويطعن فيهم بقوله، فالهمز يكون بالفعل والإشارة، واللَّمز يكون بالقول. ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾: أي: أنَّ من أوصاف هذا الهمَّاز اللمَّاز: أنه يجمع المال بعضه على بعض؛ سواء من حلال أو حرام، ويحصي عدده، ثم يمسكه ولا يؤدِّي حق الله فيه. وفوق هذا كلِّه يظن أنَّ هذا المال سيخلِّده في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣﴾؛ ولهذا كان سعيُه وكدُّه كلُّه في جمعه وتنميته. ولهذا توعَّده الله تعالى فقال: ﴿كَلَّاۖ﴾: ردع وزجر؛ ونفي لما توهمه من أن ماله سيخلِّده في الدنيا، ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: أي: لَيُطْرَحَنَّ ولَيُلْقَيَنَّ، ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾: أي: في النار؛ سمِّيت بـ ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾؛ لأنها تَحْطِم مَن يُلقى فيها، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾: تفخيم وتهويل لشأنها، ثم فسَّرها بقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾: أي: التي أُوقد عليها ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء مظلمة؛ كما جاء ذلك في الحديث[1]. ولهذا من شدَّة حرارتها وتوقُّدها: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾: أي: تنفذ من الأجساد إلى القلوب، فهي تتقد في الأجسام ثم تنفذ إلى القلوب. ﴿إِنَّهَا﴾: أي: النار، ﴿عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾: أي: مطبَقة مغلَقة؛ فهم محبوسون فيها، لا يخرجون منها أبد الآباد. ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾: الـ ﴿عَمَدٖ﴾: جمع عمود وهو: كلُّ مستطيل من خشب أو حديد، والمعنى: أنهم يُعذَّبون فيها بعَمَدٍ من حديد قد شُدَّت عليهم. وقيل: المعنى: أنَّ أبوابها مؤصدة بعمد ممددة. والوعيد في هذه الآيات للكافر؛ فهو الذي اتصف بهذه الصفات.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٩١)، وابن ماجه (٤٣٢٠)، قال الترمذي: «حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا مَوْقُوفٌ أَصَحُّ».

سُورَةُ الفِيلِ

(١-٥) ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: الرؤية هنا بمعنى: العلم؛ أي: ألم تعلم يا محمد؛ ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾: أي: الذين قدِموا لهدم الكعبة؛ بجيش كبير لا قِبَل للعرب بقتاله، يتقدَّمُه فيل عظيم؛ وذلك أن أبرهة الحبشي أراد أن يصرف العرب عن الحجِّ إليها، وإجبارهم على الحج إلى كنيسةٍ بناها بصنعاء، فأهلكهم الله تعالى. والاستفهام: للتقرير؛ لأن هذا الأمر قد وقع. ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢﴾: أي: جعلنا كيدهم ضائعًا باطلًا، ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾: أي: جماعات كثيرة متتابعة، تأتي من جهات مختلفة من كل جانب، والله أعلم بنوع هذه الطير، وصورتها. ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤﴾: قيل: بحجارة مُحْمَاة مطبوخة بالنار. وقيل: بحجارة قاسية شديدة قد صلبت بالريح التي أرسلت عليها. وقد ذكر المفسرون أن كل طائر كان يحمل ثلاثة

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

أحجار: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، وقد كانت مقدَّرة على كل أحدٍ لا تخطئه، فكانت إذا سقطت عليه تخرق رأسه وتخرج من دُبُره؛ أو تصيبه في جانب وتخرج من جانب آخر، حتى تُفتِّتَ جسده، ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾: أي: جعلهم كورق زرعٍ أكلته الدواب وداسته، فذهب أمرهم، وهلكوا جميعًا عن آخرهم، وتفتَّتت أجسادهم. وقصتهم مشهورة معروفة؛ وقد كانت توطئةً لِبِعْثة نبينا محمد ﷺ؛ فقد كانت هذه الحادثة في قول كثير من المؤرخين في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

١-٣ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾: اللّام متعلقة بشيء مُقدَّر، والمعنى: اعجبوا لنعمتي على قريش في إيلافهم وائتلافهم، وجمع كلمتهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام أحوالهم، ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾: إلى اليمن؛ لأنها بلاد دافئة، ﴿وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾: إلى الشام؛ لأنها بلاد باردة؛ فامتن الله عليهم بهاتين الرحلتين: يجلبون فيهما البضائع والتجارات؛ وهي من النِّعم العظيمة عليهم؛ ولهذا أرشدهم إلى شكرها فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾: أي: الكعبة المشرفة؛ وأضاف البيت إليه: إضافة تشريف وتكريم؛ والمعنى: فليعبدوه عبادة خالصة ليس فيها شرك؛ وذلك أن قريشًا كانوا أهل شركٍ؛ يعبدون الله، ويعبدون معه غيره من الأصنام والأوثان، فأمرهم تعالى بإخلاص العبادة له؛ لأنه تعالى الإله المستحق للعبادة؛ لما له من الصفات الجليلة، ولما له من النعم العظيمة على عباده.

٤ امتنَّ الله تعالى على قريش بنعمتين عظيمتين فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ ؛ وذلك بأن سهَّل الطُّرُق التي ترد فيها الأرزاق إلى سكّان هذا البيت؛ ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾؛ بأن أمر تعالى شرعًا بأن يُؤمَّن مَن دخل هذا البيت.

سُورَةُ المَاعُونِ

١-٣ ﴿أَرَءَيْتَ﴾: أي: هل رأيت أيها النبي، وهو خطاب له ﷺ ولكلِّ مَن يَصْلُح له الخطاب، ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾: أي: بالجزاء والحساب يوم القيامة؛ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾: أي: يدفعه دفعًا شديدًا، ويزجره وينهره، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾: أي: لا يعطيه حقَّه، ولا يحضّ غيره عليه. فجمع هذا المكذِّب بين الإساءة في عبادة ربِّه تعالى، والإساءة إلى عباد الله. وفيه: التحذير من هذا الوصف؛ وأنَّ الواجبَ الرحمةُ باليتيم، والحضُّ على إطعامِ المسكين والعطفِ عليه.

٤-٥ ﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: شدة العذاب والهلاك، ﴿لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾: أي: أنهم يتركونها بالكُلِّيَّة في السر ويصلونها في الظاهر رياء، أو يؤخِّرونها عن وقتها، أو يؤخِّرونها عن أول الوقت ويصلونها في آخر الوقت دائمًا، أو أنهم يتركون الأركان والواجبات فيها، أو يتركون الخشوع فيها. فكل هذا داخل في السهو عن الصلاة، وتشمله الآية.

٦ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: يراؤون الناس بأعمالهم، ولا يخلصونها لله عَزَّوَجَلَّ، والرياءُ شرك أصغر.

٧ ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ قيل: هو الزكاة، وقيل: هو ما يُستعار ويستعان به مع بقاء أصله؛ كالفأس والإناء ونحوه. وقيل: هو المعروف كله، فأعلاه: الزكاة، وآخره: العارية؛ وهو ما يستفاد منه ويُنتفع به، وهو باقٍ على حاله، ثم يرده لصاحبه، كإعارة الدلو والسكين والإناء والفأس، ونحو ذلك.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

١ امتن الله تعالى على نبيِّه محمد ﷺ بأنْ أعطاه الكوثر؛ قيل: هو النهر الذي أُعْطِيَه نبيُّنا ﷺ في الجنة، كما جاء في الحديث[1]. وقيل: إنه الخير الكثير. ولا منافاة بين القولين؛ فإن الكوثر هو الخير الكثير، يشمل النهر وغيرَه.

٢ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾: أي: أخلص صلاتك ونحرك لربِّك وحده؛ تعبدًا له وشكرًا على ما أعطاك من الخير الكثير. وفي هاتين العبادتين العظيمتين: جمعٌ بين الإحسانِ في عبادة الله بالصلاة، والإحسانِ إلى عباد الله بالنحر والصدقة.

٣ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: أي: مبغضَك وعدوَّك، ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾: أي: المقطوع من كل خيرٍ وذكرٍ في الدنيا والآخرة، وأما الرسول ﷺ فهو الموصول الذِّكْر في الدنيا والآخرة، فقد رفع الله ذكره، وأعلى شأنه، وله ﷺ من الكمال البشري أعلاه، فهو أكمل الناس وأعبدهم وأفضلهم في جميع الصفات.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨١)، ومسلم (٤٠٠).

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

سُورَةُ الكَافِرُونَ

(١-٦) جاء في سبب نزول هذه السورة المباركة: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: كُفَّ عن آلهتنا؛ فلا تمسها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، ويكون هذا صلحًا بيننا وبينك؛ فأنزل الله هذه السورة[1]، يأمر فيها النبي ﷺ بإعلان إخلاص التوحيد لله تعالى، والبراءة من المشركين وآلهتهم؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾: أي: يا نبي الله، ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾: و ﴿الْكَافِرُونَ﴾: لفظ عام يشمل جميع الكفرة من اليهود والنصارى والوثنيين، وإن كان المخاطبون: كفار قريش، ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾: أي: من الأصنام والأوثان، وهذا باعتبار الحال والاستقبال، ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾: أي: في الحال والاستقبال؛ لأنهم يعبدون مع الله غيره، ولا يعبدونه تعالى وحده. والنفي في الاستقبال هو في حق مَن علم الله أنه يموت على الكفر. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾: أي: في الماضي تأسيسًا، وفي الحال والاستقبال تأكيدًا، ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾: أي: في الماضي تأسيسًا، وفي الحال والاستقبال تأكيدًا. فاشتملت الآيات على نفي عبادة ما يعبدون في الأزمان كلها -الماضي والحاضر والمستقبل-؛ وذلك أن الكفار لهم معبودات شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾؛ وهو الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾؛ وهو الإسلام. وهذا فيه: إعلان البراءة والمفاصلة مع المشركين، وليس فيه دليل للقائلين بِحُرِّيَّة الأديان. وفيه: تَيْئِيسٌ لهم بعدم مشاركتهم وموافقتهم حالًا ومستقبلًا، كما كان في الماضي. وفيه: دليل على أنَّ ما عليه المشركون يسمى: دينًا، ولا يقال: ليس لهم دين؛ فالكفرة لهم دين؛ لكنه دين باطل، والدِّين الحق هو دين الإسلام.

سُورَةُ النَّصْرِ

(١-٣) هذه السورة المباركة هي آخر سورة نزلت من القرآن جملةً، وفيها بشارة وإشارة؛ فالبشارة هي: البشارة بالنصر، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ أي: فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ أي: جماعات كثيرة؛ بعد أن كانوا يدخلون أفرادًا؛ وذلك أنهم كانوا يقولون: دعوا هذا الرجل وقومه، فلما فُتحت مكة أيقنوا بأمر الإسلام وصحته؛ لأن الله نصر نبيَّه ﷺ على قريش؛ فلهذا تتابع الناس في الدخول إلى الإسلام. وأما الإشارة فهي الإشارة إلى قرب أجل النبي ﷺ ودنوّه، ولهذا أمره تعالى بالتسبيح والاستغفار؛ فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: فأكْثِر من التسبيح والاستغفار، واستعد للقائنا؛ فإن مهمتك قد انتهت من الدنيا؛ ولهذا كان النبي ﷺ بعد ذلك يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». قالت عائشة: يتأول القرآن[2]، أي: يعمل به. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ أي: كثير التوب على عباده؛ والتواب من أسماء الله تعالى. وهو من الأسماء المشتركة؛ فهو يُطلق على الله بمعنى: كثير التوب على العباد، ويطلق على العبد بمعنى: كثير التوبة من الذنب.

سُورَةُ المَسَدِ

(١-٣) هذه السورة المباركة ورد في سبب نزولها: أن النَّبِي ﷺ صَعِدَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ-حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ السورة[3]؛ فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: أي: خسِرت وضلَّت وضلَّ صاحبها، ﴿وَتَبَّ ۝١﴾: أي: تحقَّق ذلك، فالأولى: دعاء، والثانية: خبرٌ. واسم أبي لهب: عبد العزى ابن عبد المطلب؛ وكُنّي بأبي لهب لشدة حُمْرةِ وَجْنَتَيْه، وهو من أعمام النبي ﷺ؛ وممن اشتدت عداوته للنبي ﷺ، وهذا من الابتلاء العظيم على الداعية؛ أن يكون أحد أقاربه عدوًّا له، ينفِّر الناس عنه. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾: أي: لن يغني عنه من عذاب الله؛ ما جمعه من المال، ولا ما كسبه من الولد. ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾: أي: ستحيط به النار من كل جانب، وهي: نار جهنم الحامية، ﴿ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾: أي: ذات شررٍ، قد أعدَّها الله له ولمثله من الأشرارِ المعاندين.

(٤) ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾: وهي أروى بنت حرب؛ أخت أبي سفيان بن حرب، وتكنى أم جميل، وكانت امرأة شديدة العداوة للنبي ﷺ، تتعاون مع زوجها على الإثم والعدوان، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية النبي ﷺ. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤﴾: وصفها بـ ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ لأنها كانت تحمل الشوك والحطب، وتضعه

(١) أخرجه الطبري (٣٣١/٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٩٢)، ومسلم (٢٠٨).

سُورَةُ الإخْلَاصِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

في طريق النبي ﷺ. ﴿فِي جِيدِهَا﴾: أي: في عُنُقِها ورَقَبَتِها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾: أي: من ليف من النار. وفي هذه السورة: آية باهرة على صدق النبي ﷺ؛ وذلك لأن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولابد، ومن لازم ذلك: أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

سُورَةُ الإخْلَاصِ

(١) هذه السورة المباركة ورد فيها عدَّة فضائل؛ منها: أن حُبَّها من أسباب دخول الجنة، ونَيْلِ محبة الله، وأنها تعدل ثلث القرآن أي: في الأجر والفضيلة، وقد رُوِيَ في سبب نزولها: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربَّك، فنزلت هذه السورة[1]؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾: أي: قل قولاً جازمًا معتقدًا به، عارفًا بمعناه، ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: أي: لا نظير له، ولا شبيه، ولا مثيل، فهو المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدَّسة التي تفرَّد بها.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: من أسماء الله، وله ثلاثة معانٍ: الأول: أنه المصمت الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزَّه عن ذلك. والثاني: أنه الصمد الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، فكلهم مفتقرون إليه غاية الافتقار؛ يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم. والثالث: أنَّه الكامل في صفاته؛ فهو السيد الذي كَمُلَ في سؤدده، والشريفُ الذي كَمُلَ في شَرَفِه، والعظيمُ الذي كَمُلَ في عظمته، والعليمُ الذي كَمُلَ في علمه، والحليم الذي كَمُلَ في حلمه، وهكذا في سائر الصفات.

(٣-٤) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾: أي: لم يتفرع منه شيء، ولم يتفرع هو من شيء، فليس له أصل، وليس له فرع؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واجب الوجود لذاته -أي: لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم-، فهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: أي: ليس له مثيل، ولا شبيه، ولا مماثل؛ لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله.

سُورَةُ الفَلَقِ

(١) ﴿قُلْ﴾: أي: يا محمد، وهو أمر لأمته، ﴿أَعُوذُ﴾: أي: ألتجئ وأعتصم ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾: أي: الصبح. وفيه: الاستعاذة بالله تعالى، وهي عبادة لا تكون إلا لله تعالى؛ فمن استعاذ بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإن هذا يكون شركاً. أما مَن استعاذ بحي حاضر قادر معه أسباب ظاهرة؛ فاستعاذته به لا تكون شركاً.

(٢-٥) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾: أي: من شرِّ المخلوقات التي فيها شر. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾: أي: من شرِّ الليل إذا دخل وأظلم بغروب الشمس؛ واستعاذ من شرِّه؛ لأن أهل الشرور تظهر شرورهم في ظلام الليل. ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾: أي: السواحر اللاتي يعقدن وينفثن في عقدهن. وخص النفاثات للغالب، وإلا فيدخل في ذلك السحرة من الرجال. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾: فيه: الاستعاذة بالله من شرِّ الحاسد، والـ ﴿حَسَدَ﴾ هو: تمنِّي زوال النعمة عن الغير؛ فإن سعى في إزالة النعمة بالقول أو بالفعل كان بغيًا وعدوانًا، وإن لم يَسْعَ؛ فإن كان عاجزًا فهو مأزور، وإن منعه تقوى الله فلا شيء عليه إلا مجاهدة الخواطر النفسانية في ألَّا يعمل.

سُورَةُ النَّاسِ

(١-٣) هذه السورة المباركة فيها: الاستعاذة بربوبية الله تعالى، وملكه، وألوهيته، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ أي: مربيهم وخالقهم ومدبرهم، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾: أي: مالكهم، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾: أي: معبودهم. وقد وصف الله نفسه بهذه الأوصاف الثلاثة في هذه السورة؛ وهي آخر سورة في القرآن، كما وصف نفسه بها في سورة الفاتحة أول سورة في القرآن.

(٤-٦) ثم ذكر الله المستعاذ منه فقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾: أي: الذي يخنس ويتأخر ويختفي إذا ذكر العبدُ ربَّه، واستعان به على دفعه، فإذا غفل ظهر ووسوس. ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾؛ وذلك لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فهو جسم لطيف. وفيه: إثبات تلبس الجني بالإنسي ودخوله فيه، والرد على المعتزلة المنكرين لذلك. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: أي: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ نوعان: نوع من الجن، يوسوس بالوساوس التي تكون في الصدور، ونوع من الإنس؛ يوسوس بتزيين الباطل مثل الشُّبَه والأباطيل، وأيضا فالنفس توسوس كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق : ١٦]، فـ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: نفوسهم، وشياطين الجن، وشياطين الإنس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٢١٩)، والترمذي (٣٣٦٤).

مختصرٌ في التوحيد الحق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن العبادة حقُّ الله لا يشرَكُه فيها أحدٌ لا ملَكٌ مقرَّب ولا نبيٌ مرسَل، فكما أن اللهَ ربُّ الناس وملِكُ الناس لا يشرَكُه أحدٌ في الربوبية ولا في المُلْك فكذلك لا يشرَكُه أحدٌ في الأُلُوهية والعِبَادة، فهي حق الله الخالص، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣]، والرسل دعوا الناس إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبِيَاء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: ٣٦]، فالتوحيد حق الله على العبيد، وما خالفه وناقضه فهو توحيدٌ باطل، وبعض الناس يخلط بين التوحيد الحق والتوحيد الباطل، فيَدْخُلُ أحدَهما في الآخر، فأردت بيان ذلك مستعينا بالله:

التوحيد الحق: توحيد أهل الإيمان فهو أن توحد الله تعالى في ربوبيته، وأن توحد الله في أسمائه وصفاته وأفعاله، وأن توحد الله في ألوهيته وعبادته فتؤمن بالله ربا وخالقا ومالكا ومدبرا ومعبودا بالحق دون ما سواه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا من الإيمان بالغيب، فمن الإيمان بالغيب الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب المنزلة والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

والإيمان بالله يكون بالنطق بالشهادتين بأن يشهد العبد لله تعالى بالوحدانية، ويشهدُ لنبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالة بلسانه، ويعتقد معناهما بقلبه فيرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

ولا بد من الالتزام والإتيان بحقوق الإيمان والتوحيد ومقتضياته وملزوماته، وهي أداء الفرائض والواجبات، وترك المحرمات محبة لله وخوفًا ورجاء وتعبدا لله تعالى.

والعبادة لها أصلان لا تصح إلا بهما:

الأصل الأول: إخلاص العبادة لله تعالى وهو أن يريد بها وجه الله دون غيره هذا الأصل وهذا الركن هو مقتضى شهادة أن لا إلٰهَ إلا الله، وإذا تخلف هذا الأصل حلَّ محلَّه الشرك الأكبر.

الأصل الثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء به صلى الله عليه وسلم هذا الأصل وهذا الركن هو مقتضى شهادة أن محمدا رسول الله، وإذا تخلف هذا الأصل وهذا الركن حلَّ محلَّه البدع.

وهاتان الشهادتان شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله هما أصل الدين وأساس الملة بهما يدخل الإنسان في الإسلام وبهما يخرج من الإسلام، ومن كان آخر كلامه لا إلٰهَ إلا الله دخل الجنة، فهاتان الشهادتان سبب مقتضٍ لدخول الجنة وللنجاة من النار، وكل واحدة من الشهادتين شاملة للأخرى بالضرورة، ولا ينتفع العبد بواحدة منهما ما لم يضم إليها الشهادة المقارنة لها، فلا بد في الشهادتين من الانقياد والقبول، ولا يتأتى ذلك إلا بتحقيق شهادة أن محمدا رسول الله فمن لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما بُعِث به فليس بمؤمن ولا ينفعه قول لا إلٰهَ إلا الله، كاليهود والنصارى الذين يقولون لا إله إلا الله وهذا هو سبب الاكتفاء في كثير من النصوص بالتنصيص على شهادة أن لا إلٰهَ إلا الله فحسب، فإنها شاملة لشهادة أن محمدا رسول الله بالضرورة.

***

شروط شهادة أن لا إله إلا الله

الشرط الأول: العلم المنافي للجهل.

والمراد بهذا الشرط العلم بمعناها من النفي والإثبات، وتوضيح ذلك أنَّ (لا إلٰه إلا الله) جملة مكونة من جزئين يطلق عليهما أهل العلم الركنين وهما النفي والإثبات، فـ(لا إِلَٰهَ) نفيٌ، و(إلا الله) إثبات، والحق الذي لا ريب فيه أن معنى (لا إلٰه إلا الله): لا معبود حقٌّ إلا الله، والمراد: البراءة مما يعبد من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، ولا شك أن هذا العلم أعظم العلوم وأشرفها، وقد أمر الله سبحانه عباده به فقال: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [هُود: ١٤]، ومن الأدلة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات وهو يعلم أنه لا إلا الله دخل الجنة»[١] فهذا الحديث صريح في أن من نطق بكلمة التوحيد مع علمه بها فهو ناجٍ عند الله والشهادة لا تكون شهادة إلا بالعلم بالمشهود به.

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك وهو التصديق الجازم.

والمقصود بهذا الشرط أن يوقن القلب بمعناها يقينًا يزول معه الشك والريب، بأن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما، واليقين هو العلم الراسخ في القلب الثابت فيه، ولا يوصف به إلا من اطمأن قلبه علما وعملا، فهو أعلى درجات التصديق، ومن الأدلة على هذا الشرط قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحُجُرَات: ١٥]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم «أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاك فيها إلا دخل الجنة»[٢].

الشرط الثالث: الإخلاص المنافي للشرك.

وهذا الشرط أصل الشروط وأهمها والجامع لها، والمقصود باشتراط الإخلاص في هذا المقام هو إخلاص العبادة لله عز وجل وإفراده بها، ونفي الشرك، فهذا ما دلت عليه كلمة التوحيد مطابقة، والمقصود أيضا الإخلاص في قول لا إلٰه إلا الله على وجه الخصوص، فلا يقصد بقولها إلا وجه الله دون أدنى شائبة من الشرك، ولا شك أن هذا يستتبع ويستلزم إخلاص العبادة كلها لله عز وجل.

ومن الأدلة على هذا الشرط قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إلٰه إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه»[٣]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار»[٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يوافي عبد يوم القيامة لا إلٰه إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا حرمه الله على النار»[٥].

الشرط الرابع: الصدق المنافي للكذب.

والمقصود بهذا الشرط أن يكون صادقا في قولها، بحيث يواطئ قلبه لسانه، والصدق ينافي النفاق؛ لأن المنافقين يقولونها لكن لم يطابق ما قالوه ما يعتقدونه، فصار قولهم كذبا، فيُشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار: أن يقولها صدقا من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب.

ومن الأدلة على هذا الشرط قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[٦]، بخلاف حال المنافقين المكذبين بقلوبهم وإن كانوا يقولون بألسنتهم الشهادتين ويدّعون الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ [البَقَرَة: ٨].

والفرق بين الصدق والإخلاص أن بين هذين الشرطين تقاربًا، بل تلازمًا غير أن الإخلاصَ ينافي الشرك، والصدقَ ينافي الكذب، فمن لم يكن مخلصا فهو مشرك، ومن لم يكن صادقا فهو منافق.

والفرق بين الصدق واليقين أن أحدهما فرع عن الآخر، فمن استيقن قلبه صدق في قولها -أي: طابق لسانُه قلبَه-، والصدق يقابله الكذب، واليقين يقابله التكذيب والشك، وكلاهما من حال أهل النفاق.

الشرط الخامس: المحبة المنافية لعدمها.

والمقصود بهذا الشرط محبة ما دلت عليه من: الإخلاص لله تعالى، ونبذ الشرك، والمراد المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغضُ ما ناقض ذَٰلِكَ، وأصل هذه المحبة وأساسها دون شك: محبة الله سبحانه ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتفرع عن هذه المحبة محبة المؤمنين والولاء لهم وبغض الكافرين والبراءة منهم.

والدليل على هذا الشرط جملة من النصوص منها قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[٧]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن

(١) رواه مسلم (٢٦).
(٢) رواه مسلم (٢٧).
(٣) رواه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠).
(٤) رواه البخاري (١٢٣٨)، ومسلم (٩٢، ٩٣)، واللفظ له.
(٥) رواه البخاري (٦٤٢٢).
(٦) رواه البخاري (١٢٨).
(٧) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

الشرط السادس: القبول المنافي للرد -أي: لرد مدلولها-.

والمقصود بهذا الشرط في كلمة التوحيد: أن يقبل ما دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأن يلتزم بذلك ويرضى به.

فمِن شرط الاعتداد بكلمة الشهادة: أن تكون على سبيل الالتزام، وليس اشتراط القبول مؤقت بابتداء الدخول في الإسلام، بل لا تنفعه إلا بالتزام أن يعمل طول عمره بمضمون كلمة التوحيد ولا يخالفها.

وقبولُ كلمة التوحيد يقتضي بالضرورة: أن يقبل الإسلام كلَّه أخباراً وأحكاماً، فيقابل الأخبار بالتصديق، ويقابل الأحكام بالالتزام، ولهذا لم تُدْخِلْ في الإسلام شهادةُ كثير من أهل الكتاب والمشركين للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأنه صادق؛ لأن الإسلام أمر وراء ذلك فإن الإسلام ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط، بل الإسلام: المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا.

ومن الأدلة على هذا الشرط: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

الشرط السابع: الانقياد المنافي للترك.

والمقصود بهذا الشرط: الانقياد لما دلت عليه كلمة التوحيد من المعنى المنافي لترك العمل بمقتضاها، بأن يعبدَ الله وحده، وينقادَ للشريعة، ويؤمنَ بها، ويعتقدَ أنها الحق؛ فمَن لم يخلص العبادة لله تعالى ويتبرأ من الشرك فهذا لا تنفعه لا إلٰهَ إلا الله؛ لأنه ترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه بكبر أو هوى -وهؤلاء كثير-.

وعليه فهذا الشرط ينتقض بأحد أمرين: الوقوع في الشرك، وعدم الانقياد جملة لشرع الله.

وقد دل على هذا الشرط قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [النُّور: ٤٧] فنفى الله الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول.

والخلاصة أن الانقياد بالعمل بشرع الله في الجملة من شروط الانتفاع بكلمة التوحيد، ولا يتنافى هذا مع حصول التقصير بترك بعض الواجبات، وإنما يتنافى هذا بالترك الكامل، فيمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهرا لا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد صلى الله عليه وسلم، قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

والفرق بين القبول والانقياد: أن القبول أصلٌ ثمرتُه الانقياد، وذلك أن القبول هو الالتزام بالتوحيد، والانصياع لأحكامه، واعتقاد التكليف بها، والعهد على الدخول في الإسلام، والثبات عليه مع التسليم وترك الاعتراض، وأما الانقياد فهو أن يقوم بالفعل ما التزم به من الإخلاص ونفي الشرك والعمل بشرع الله في الجملة، والله أعلم.

الشرط الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله.

وإلى عد الشروط ثمانية ذهب إليه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في كتابه قرة عيون الموحدين[2]، وهذا أحد القولين له، وذهب إليه أيضاً الشيخ عبدالرحمن بن قاسم[3]، وسماحة شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز[4]، وعدُّه شرطا لأهميته وكثرة الغفلة عنه.

ودليل هذا الشرط قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إلٰه إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[5].

---

(١) رواه البخاري (١٦، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

(٢) انظر: قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (ص: ٣٨).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (ص: ٨٥).

(٤) انظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٣/ ٤٩)، والدروس المهمة (ص٦).

(٥) رواه مسلم (٢٣).

***

شروط شهادة أن محمدا رسول الله

اعلم أنه لا يكون من شهد أن لا إلٰه إلا الله مؤمنا حتى يشهد أن محمدا رسول الله، مع التزامه فيها جميع الشروط التي تقدمت مع أدلتها من الكتاب والسنة، وشروط شهادة أن محمدا رسول الله:

» **الشرط الأول**: العلم المنافي للجهل.

والمقصود بهذا الشرط بأن يعلم بقلبه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي المكي ثم المدني: نبيٌّ ورسول من عند الله إلى الناس.

ومن الأدلة على هذا الشرط قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٨٦﴾ [الزُّخرُف: ٨٦].

» **الشرط الثاني**: التصديق الجازم المنافي للشك والريب.

والمقصود بـهٰذا الشرط أن يوقن القلب بمعناها يقيناً يزول معه الشك والريب، بأن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما، مطمئنا بها قلبه علما وعملا، وهذا أعلى درجات التصديق.

ومن الأدلة على هذا الشرط قول النبي صلى الله عليه وسلم «أشهد أن لا إلا الله وأني رسول الله لا يلقى اللهَ بها عبدٌ غير شاكٍّ فيها إلا دخل الجنة»[١].

» **الشرط الثالث**: أن يؤمن بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الجن والإنس، والعرب والعجم.

فلا إيمان لمن زعم أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بالعرب دون العجم، أو بالإنس دون الجن. ودليل هذا الشرط قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعْراف: ١٥٨]، وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ٢﴾ [الجن: ١ - ٢]، ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٢]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[٣].

» **الشرط الرابع**: الإيمان بأنه صلى الله عليه وسلم بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وأكمل الله به الدين.

(١) رواه مسلم (٢٧).
(٢) رواه البخاري، (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٣) رواه مسلم (١٥٣).

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣]، فمن قال: إن الدين فيه نقص أو أن الدين فيه زيادة أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قصر في تبليغ الرسالة فليس بمؤمن، وقد شهد له الصحابة رضي الله عنهم شهدوا للنبي صلى الله عليه وسلم بالبلاغ في حجة الوداع وأشهد اللهَ عليهم، ونحن نشهد له عليه الصلاة والسلام بالبلاغ المبين وأنه ترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

» **الشرط الخامس**: الإيمان بأنه خاتم النبيين فلا نبي بعده.

فمن ادعى النبوة بعده عليه الصلاة والسلام فهو كاذب كافر، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[٤].

» **الشرط السادس**: الصدق المنافي للكذب المانع من النفاق.

والمقصود بهذا الشرط أن يكون صادقًا في قولها بحيث يواطئ قلبه لسانه، والصدق ينافي النفاق؛ لأن المنافقين يقولونها لكن لم يطابق ما قالوه لما يعتقدونه، فصار قولهم كذبا بمخالفة الظاهر للباطن، فلا ينفعه مجرد اللفظ بدون مواطأة القلب.

من الأدلة على هذا الشرط: قول الله تعالى عن المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾ [البَقَرة: ٨]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[٥].

» **الشرط السابع**: المحبة المنافية لعدمها، وبغضُ ما ناقض ذلك.

والمقصود بهذا الشرط المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، وأصل هذه المحبة وأساسها: محبة الله سبحانه، ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام تابعة لمحبة الله، ويتفرع عن هذه المحبة محبة المؤمنين والولاء لهم وبغض الكافرين والبراءة منهم.

والدليل على هذا الشرط: قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ

(٤) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٥) رواه البخاري (١٢٨) واللفظ له، ومسلم (٣٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التَّوْبَة : ٢٤]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[1].

» **الشرط الثامن**: القبول المنافي للرد -أي: لرد مدلول شهادة أن محمدا رسول الله-.

والمقصود بهذا الشرط أن يقبل ما دلت عليه الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة، من الالتزام بالإسلام كله أخبارا وأحكاما فيقابل الأخبار بالتصديق، ويقابل الأحكام بالالتزام.

ومن الأدلة على هذا الشرط ما سبق في شرط الشهادة الأولى، ومنها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير»[2] الحديث، والشاهد قبول طائفة للماء فتنبت الكلأ والعشب الكثير.

» **الشرط التاسع**: الانقياد المنافي للترك.

والمراد بذلك الانقياد لمعنى الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة المنافي لترك العمل بمقتضاها؛ لأن من ترك العمل بالشريعة فقد وقع في التولي وهو ضد الانقياد.

ومن الأدلة على هذا الشرط ما سبق في شرط الشهادة الأولى، ومنها: قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [النُّور : ٤٧] فهذا هو التولي الكفري المنافي للانقياد الذي نفى الله الإيمان عن أهله بأن تولى بالعمل وإن كان قد أتى بالقول.

والخلاصة أن الانقياد بالعمل شرط في صحة شهادة أن محمدا رسول الله، والانقياد بالعمل من حقوق شهادة أن لا إله إلا الله كما أنه من حقوق شهادة أن محمدا رسول الله ومقتضياتها، وهو يشمل أمورا أربعة:

» **الأول**: تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه.

» **الثاني**: طاعته بامتثال ما أمر به من شرائع الإسلام.

» **الثالث**: الكف والانتهاء والاجتناب لما نهى عنه من المحارم والآثام.

» **الرابع**: اتباع شريعته والتزام سنته فلا يعبد الله إلا بما شرعه، فينقاد للعمل بشرع الله في الجملة ولا يتنافى هذا مع حصول التقصير بترك بعض الواجبات وإنما يتنافى هذا بالترك الكامل فيمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهرا لا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد صلى الله عليه وسلم قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

***

(١) رواه مسلم (٤٤).
(٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

فالإيمان لا يصح إلا بالتوحيد لله في ربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله وألوهيته وعبادته.

ولا يصح الإيمان إلا بالإيمان بالملائكة، وأنهم أشخاص وذوات محسوسة تُرَى وتصعد وتنزل وتخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم وهم مخلوقون من نور كما ثبت ذلك في الحديث فنؤمن بهم إجمالا، ونؤمن بمن سمى الله منهم في الكتاب أو سُمِّي في السنة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك ورضوان ومنكر ونكير، ولا يعلم أسمائهم وعددهم إلا الله سبحانه وتعالى، والإيمان بفضائلهم وأعمالهم ووظائفهم ومكانتهم عند الله وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولا يصح الإيمان والتوحيد إلا بالإيمان بالكتب المنزلة، وأن الله أنزل كتبا على أنبيائه ورسله لهداية الناس لا يعلم أسماءها وعددها إلا الله، فنؤمن بها إجمالا ونؤمن تفصيلا بما سمى الله في كتابه بأعيانها وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسى.

ولا يصح التوحيد والإيمان إلا بالإيمان بالرسل، وأن الله تعالى أرسل رسلا إلى الناس لدعوتهم إلى التوحيد والإيمان وتبشير المؤمنين الموحدين بالجنة والكرامة وإنذار الكفار بالنار والعذاب والإهانة، فلا يكون للناس حجة على الله بعد ذلك، فنؤمن بهم إجمالا وأن الله أرسل رسلا إلى الناس لهدايتهم لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله، منهم من قصه الله علينا، ومنهم من لم يقصصه علينا، ونؤمن بمن سمى الله منهم أو سماهم رسوله صلى الله عليه وسلم بأعيانهم، كما قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النِّسَاء: ١٦٣ - ١٦٤]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأَنْعَام: ٨٣ - ٨٦]، ويضاف إليهم هود وصالح وشعيب وإدريس ونبينا محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، وذو الكفل على أحد القولين-.

ولا يصح التوحيد والإيمان إلا بالإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة، وسمي باليوم الآخر لأنه ليس بعده يوم، واليوم الأول هو الدنيا، ويشمل الإيمان باليوم الآخر ما يلي:

» **أولا**: الإيمان ببعث الأجساد ودخول الأرواح فيها، فتدخل كل روح في جسدها بعد أن يأمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الثانية نفخة البعث، وقبلها النفخة الأولى وهي نفخة الصعق والموت، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

» **ثانيا**: الإيمان بما أخبر الله به أو أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم مما يكون في آخر الزمان، من أشراط الساعة الكبرى التي آخرها النار التي تسوق الناس إلى المحشر، والريحُ التي تقبض أرواح المؤمنين والمؤمنات، ثم تقوم الساعة على الكفرة وذلك إذا أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الأولى وهي نفخة الصعق والموت، ثم بعدها النفخة الثانية وهي نفخة البعث.

» **ثالثا**: الإيمان بالبرزخ وما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه وتوسيع القبر وتضييقه وضمة القبر، وفتح باب إلى الجنة أو إلى النار، وسؤال الملكين الفتانين منكر ونكير، وتمثّل العمل بالرجل الحسن المنظر أو الرجل القبيح المنظر.

» **رابعا**: الإيمان بالحشر والنشر وأن الله تعالى يبعث الخلائق ويحشرهم ويجمعهم في صعيد واحد.

» **خامسا**: الإيمان بالحساب والوقوف بين يدي الله تعالى، وأن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد للحساب حينما يخرجون من قبورهم حفاة لا نعال لهم، عراة لا ثياب عليهم، غرلا غير مختونين، فيحاسبهم على أعمالهم في وقت واحد، لا يلهيه شأن عن شأن سبحانه وتعالى، ويفرغ من حسابهم قدر منتصف النهار، ويقيل أهل الجنة في الجنة كما قال الله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفُرْقَان: ٢٤].

» **سادسا**: الإيمان بالجزاء على الأعمال إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإعطاء الصحف بالأيمان أو بالشمائل، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غَافِر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزَّلْزَلَة: ٧ - ٨]، فالمؤمنون يُعطَون صحفهم بأيمانهم والكفار يعطون صحفهم بشمائلهم.

» **سابعا**: الإيمان بالشفاعة، وهي أنواع منها:

» **الأولى**: الشفاعة التي تكون في موقف القيامة وهي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي التي يغبطه فيها الأولون

والآخرون، وهي التي يتأخر عنها أولوا العزم، وهي لإراحة الناس من الموقف بالحساب.

» **الثانية**: الشفاعة في تخفيف العذاب عن أبي طالب، وهي خاص بنبينا صلى الله عليه وسلم وبعمّه أبي طالب.

» **الثالثة**: الشفاعة لأهل الجنة للإذن لهم في دخولها وهي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

» **الرابعة**: الشفاعة في رفع درجات قوم من أهل الجنة، وزيادة ثوابهم، وهذه مشتركة، فليست خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

» **الخامسة**: الشفاعة في قوم مؤمنين استحقوا دخول النار بكبائر ألا يدخلوها.

» **السادسة**: الشفاعة في قوم من المؤمنين من أهل الكبائر دخلوا أن يخرجوا منها.

وهاتان الشفاعتان الخامسة والسادسة- تواترت بهما الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأثبتهما أهل السنة والجماعة، وأنكرهما الخوارج والمعتزلة مع تواتر الأخبار فيهما.

هذه أنواع الشفاعة المثبتة التي دلت عليها النصوص، وهي لأهل التوحيد والإخلاص، ما عدا الشفاعة العظمى فإنها في موقف القيامة لإراحة الخلق من موقف القيامة ليحاسب الله الخلائق.

أما الشفاعة المنفية فهي التي تكون لأهل الشرك وقد نفاها القرآن قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المُدَّثِّر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البَقَرَة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝١٢٣﴾ [البَقَرَة: ١٢٣].

وأما الشفاعة المثبتة فإنها تكون لأهل التوحيد والإخلاص بشرطين:

» **الشرط الأول**: إذن الله للشافع كما قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

» **الشرط الثاني**: رضاه عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال تعالى في الشرطين: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النَّجم: ٢٦].

» **ثامنا**: الإيمان بالميزان وأنه ميزان حسي له كفتان الكفة أعظم من أطباق السماوات والأرض توزن فيهما الأعمال والأشخاص كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالرجل العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة»[١].

وهذا الميزان الحسي توزن فيه الأعمال والأشخاص فمن ثقلت موازينه نجا وفاز ومن خفت موازينه خسر وهلك، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ٦ - ١١].

» **تاسعا**: الإيمان بالحوض في موقف القيامة وهو حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طوله مسافة شهر وعرضه مسافة شهر وأوانيه عدد نجوم السماء يصب فيه ميزابان من نهر الكوثر في الجنة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب ريحا من المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا حتى يدخل الجنة.

» **عاشرا**: الإيمان بالصراط وأنه صراط حسي منصوب على متن جهنم يمر الناس عليه على قدر أعمالهم فأولهم كالبرق ثم كالريح ثم كأجاود الخيل والركاب، ثم الرجل يعدو عدوا ثم الرجل يمشي مشيا فناج مسلّم ومكردس على وجهه في النار، وعلى الصراط كلاليب تخطف من أُمرت بخطفه، ونبينا صلى الله عليه وسلم قائم على الصراط يقول: «اللّهُمَّ سلِّم سلِّم»[٢]، بهذا جاءت الأحاديث، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مَريَم: ٧١ - ٧٢].

» **الحادي عشر**: الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان الآن، لا تفنيان ولا تبيدان.

قال الله تعالى عن الجنة ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣]، وقال عن النار ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البَقَرَة: ٢٤]، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والنار ليلة المعراج ورأى من يعذب فرأى الزناة والزواني يعذبون[٣]، ورأى صلى الله عليه وسلم الجنة والنار في صلاة الكسوف[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما.
(٣) رواه البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (١٦٣).
(٤) رواه مسلم (٩٠٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فالجنة دار كرامة الله ورحمته أعدها لأهل التوحيد والإيمان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1]، وأعظم نعيم في الجنة يلقاه أهل الجنة هو رؤية الله تبارك وتعالى وحلول رضوان الله عليهم فلا يسخط عليهم أبدا، والجنة درجات كل درجة عليا أعظم نعيما من الدرجة التي تحتها والفردوس أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن[2] -جعلنا الله من أهلها بمنّه وكرمه-.

والنار دار عدل الله وحكمته، أعدها الله لأهل الشرك والكفر والجحود والنفاق فيها العذاب السرمدي وفيها الأغلال والسلاسل والحميم والغساق، وكل دركة سفلى أشد عذابا من الدركة التي فوقها؛ والمنافقون في الدرك الأسفل من النار قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النِّسَاء: ١٤٥].

ولا يصح التوحيد والإيمان إلا بالإيمان بالقدر خيره وشره

والإيمان بالقدر له أربع مراتب لا بد من الإيمان بها كلها، فمن لم يؤمن بواحدة منها لم يصح إيمانه:

المرتبة الأولى: مرتبة العلم.

وهي الإيمان بأن الله علم الأشياء قبل كونها في الأزل الذي لا بداية له، الذوات والصفات والأفعال والحركات والسكنات، وكل ما يسمى شيئا فإن الله قد أحاط به علمه في السماوات أو في الأرض أو في ظلمات البر أو في ظلمات البحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٩، الأَنْعَام: ١٠١، الحَدِيد: ٣].

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة.

وهي الإيمان بأن الله كتب كل شيء مما يكون من المقادير إلى يوم القيامة كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ من الذوات والصفات والأفعال والحركات والسكنات في البر أو البحر أو الجو كتب الله ذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»[3]، قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٢﴾ [يس: ١٢] وهو اللوح المحفوظ، وفي الحديث الصحيح: «وكتب في الذكر كل شيء»[4] الذكر هو اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة والإرادة.

وهي الإيمان بأن كل ما يقع في الكون وفي الوجود فقد سبقت به مشيئة الله وإرادته الكونية فلا يقع في ملك الله إلا ما شاءه وأراده وقضاه وقدره من خير أو شر، ومشيئة العبد وإرادته تابعة لمشيئة الله وإرادته قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التَّكْوِير: ٢٨ - ٢٩].

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد.

وهي الإيمان بأن الله أوجد هذه المخلوقات وخلقها من العدم وهو الخالق وغيره مخلوق كما أنه الرب وغيره مربوب كما أنه المالك وغيره مملوك كما أنه المدبِّر وغيره مدبَّر قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ٦٢﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ٢﴾ [الفُرْقَان: ٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).
(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣).
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٤) رواه البخاري (٣١٩١).

أهل التوحيد الحق ثلاثة أصناف

السابقون المقربون، والمقتصدون أصحاب اليمين، والظالمون لأنفسهم، وكلهم أورثهم الله الكتاب، وكلهم من أهل الجنة بشرط الموت على التوحيد.

الصنف الأول: السابقون المقربون.

وهم الذين وحدوا الله وتقربوا إلى الله بفعل الواجبات والمأمورات ثم تقربوا إلى الله بفعل المندوبات والمستحبات وتقربوا إلى الله بترك المحرمات والمنهيات ثم تقربوا إلى الله بترك المكروهات وبترك فضول المباحات.

الصنف الثاني: المقتصدون أصحاب اليمين.

وهم الذين وحدوا الله وتقربوا إلى الله بفعل الواجبات والمأمورات وتقربوا إلى الله بترك المحرمات والمنهيات، لكن لم يكن عندهم نشاط بفعل المندوبات والمستحبات فلم يفعلوها، ولم يكن عندهم نشاط بترك المكروهات، وفضول المباحات ففعلوها.

فهذان الصنفان وهما السابقون المقربون والمقتصدون أصحاب اليمين يدخلون الجنة ابتداء من أول وهلة من غير تأخير فضلا من الله تعالى وإحسانا إذا ماتوا على التوحيد والإيمان غير مغيرين ولا مبدلين، لأنهم أدوا ما أوجب الله عليهم وتركوا ما حرم الله عليهم.

الصنف الثالث: الظالمون لأنفسهم.

وهم الذين وحدوا الله وأخلصوا له العبادة وتقربوا إلى الله بفعل الواجبات والمأمورات وتقربوا إلى الله بترك المحرمات والمنهيات لكن قصروا فظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات وماتوا على ذلك من غير توبة، وهؤلاء من أهل الجنة ومآلهم إليها لكن قد يتأخر دخولهم الجنة بسبب تقصيرهم في فعل بعض المحرمات، أو بتركهم بعض الواجبات، وهؤلاء أقسام، وكلهم تحت مشيئة الله:

منهم من يعفو الله عنه ثم يدخله الجنة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨، النِّسَاء: ١١٦].

ومنهم من يعذب في قبره كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة الرجلين اللذين مر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين وغرز في كل قبر واحدة وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[١].

ومنهم من تصيبه أهوال وشدائد في موقف القيامة.

ومنهم من يستحق دخول النار فيُشفّع الله فيه الشفعاء فلا يدخل النار.

(١) رواه البخاري (٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢).

ومنهم من يدخل النار ويعذب في مدة.

ومنهم من يطول مكثه بسبب كثرة جرائمه ومعاصيه أو غلظها وفحشها، كالقاتل، أخبر الله تعالى أنه يخلد فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النِّسَاء: ٩٣]، والمراد بالخلود هنا: المكث الطويل، والخلود خلودان:

خلود لا نهاية له وهو خلود الكفرة.

وخلود له نهاية وهو خلود بعض العصاة الموحدين كالقاتل، وقد تواترت بذلك الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر الموحدين الذين أضعفوا توحيدهم بارتكاب الكبائر وماتوا على ذلك من غير توبة فيُشفّع الله فيهم الشفعاء من الأنبياء والصالحين والملائكة والأفراط فيقبل الله شفاعتهم ويخرجهم من النار، ويَشْفَعُ فيهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أربع شفاعات فيحد الله له حدا بالعلامة فيخرجهم من النار، وتبقى بقية لا تنالهم الشفاعة فيخرجهم رب العالمين برحمته فيقول الرب سبحانه كما ورد ذلك في الحديث: « شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ »[٢] يعني: زيادة على التوحيد والإيمان، وثبت في الأحاديث الصحيحة أن هؤلاء العصاة الموحدين يخرجون من النار ضبائر ضبائر قد امتحشوا وصاروا فحما، فيُلقون في نهر الحياة فإذا هُذبوا ونُقوا أُذِن لهم في دخول الجنة[٣]، وهؤلاء هم عتقاء الله من النار[٤]، فإذا تكامل خروج العصاة الموحدين من النار ولم يبق منهم أحد أُطبقت النار على الكفرة بجميع أصنافهم فلا يخرجون منها أبد الآباد، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار عياذا بالله من النار قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المَائـِدَة: ٣٧] -نسأل الله السلامة والعافية ونسأله أن يجيرنا من النار-.

(٢) رواه مسلم (١٨٣).

(٣) رواه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٥)، وهذا لفظ مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فضل كلمة التوحيد لا إله إلا الله

قد عُلم بالاضطرار أن شهادةَ التوحيد مفتاحُ الإسلام وأصلُ الدين وعمدةُ الملة، فلا إسلام لمن لم يأت بها اعتقادا وقولا وعملا، ولا شك أن هذا لا يتحقق إلا بعد العلم بمعناها فإن ترتب هذا على هذا ترتب البناء على الأساس والفرع على الأصل، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وعليه فمن لم يعلم معناها ويتصوره فهو كالهاذي أو النائم الذي لا يعقل ما يقول، وأما مجرد اللفظ فهذا لا يفيد العبد شيئًا، ولا يخلّصه من شعب الشرك وفروعه[1] .

إن فضل «لا إلٰه إلا الله» شيء لا يحيط به فكر، ولا يحصيه قلم، ومهما قيل عنها فهو غيظ من فيض، بل نقطة من بحر، فهي أصل الملة وأول الواجبات وأوجب المأمورات، وكيف لا تكون كذلك «وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ورسمت القبلة وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهي العمود الكامل للفرض والسنة، و«مَن كان آخر كلامه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة»[2]»[3] .

لا إله إلا الله هي الكلمة التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، ومن أجلها خلقت الدنيا والآخرة، والجنة والنار، وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمائل، ويثقل الميزان أو يخف، وعليها أخذ الله الميثاق، وعليها الجزاء والمحاسبة، وعنها السؤال يوم التلاق، «وهي كلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة، وهي أصل الدين وأساسه، ورأس أمره وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها، متشعبة، منها مكملة لها، مقيدة بالتزام معناها، والعمل بمقتضاها»[4] .

ويكفي أنها الشهادة العظمى، وأي شهادة أعظم من الشهادة التي شهد الله بها لنفسه، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عِمرَان : ١٨] [5] .

فضل كلمة التوحيد في القرآن:

» **أولا**: أنها كلمة الله العليا الواردة في قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ [التَّوْبَة : ٤٠].

» **ثانيا**: أنها دعوة الحق في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الرَّعْد : ١٤].

» **ثالثا**: أنها الكلمة الطيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبْرَاهِيم : ٢٤].

» **رابعا**: أنها القول الثابت في قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبْرَاهِيم : ٢٧].

» **خامسا**: أنها كلمة التقوى في قول الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفَتْح : ٢٦].

» **سادسا**: أنها الحسنة في قول الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النَّمْل : ٨٩].

» **سابعا**: أنها النعم الظاهرة والباطنة في قول الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ﴾ [لُقْمَان : ٢٠].

» **ثامنا**: أنها العروة الوثقى في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٦].

» **تاسعا**: أنها القول الأحسن في قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ [الإسْرَاء : ٥٣].

» **عاشرا**: أنها الحسنى في قول الله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ٦﴾ [اللَّيْل : ٦] قاله بعض السلف.

» **الحادي عشر**: أنها من الباقيات الصالحات في قول الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٤٦﴾ [الكَهْف : ٤٦].

» **الثاني عشر**: أنها الكلمة الباقية التي جعلها إبراهيم عليه الصلاة والسلام في عقبه في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨﴾ [الزُّخْرُف : ٢٨].

» **الثالث عشر**: أنها الحق في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٨٦﴾ [الزُّخْرُف : ٨٦].

» **الرابع عشر**: أنها المثل الأعلى في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الرُّوم : ٢٧].

---

(١) انظر مصباح الظلام (١٦١).
(٢) رواه أبو داود (٣١١٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.
(٣) الداء والدواء (ص: ٣٠١).
(٤) معارج القبول (٢/ ٤١١).
(٥) الدرر السنية (٢/ ٢١٢).

» **الخامس عشر**: أنها الكلمة التي هي أقوم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

» **السادس عشر**: أنها العدل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

» **السابع عشر**: أنها العهد في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾ [مريم: ٨٧].

» **الثامن عشر**: أنها الدين الخالص في قول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

» **التاسع عشر**: أنها القول الصواب في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ [النبأ: ٣٨].

» **العشرون**: أنها الكَلِم الطيب في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

» **الحادي والعشرون**: أنها الطيب من القول لقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

» **الثاني والعشرون**: أنها الكتاب الذي أورثه الله الذين اصطفى من عباده لقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

» **الثالث والعشرون**: أنها الصدق في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزمر: ٣٣].

» **الرابع والعشرون**: أنها الدين الواصب في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢].

» **الخامس والعشرون**: أنها الكلمة السواء أي: العدل، في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

» **السادس والعشرون**: أنها القول السديد، في قول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠].

فضل كلمة التوحيد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

» **أولا**: كلمة التوحيد أول أركان الإسلام، وأرفع مقامات الدين، وأصل أصوله، قال عليه الصلاة والسلام «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[1].

» **ثانيا**: أنها أعلى شعب الإيمان وأفضلها قال عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة فأعلاها أو أفضلها قول لا إله إلا الله»[2].

» **ثالثا**: أن صاحبها أسعد الناس بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه»[3].

» **رابعا**: أنها أول ما يؤمر به من الدين، قال عليه الصلاة والسلام» «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»[4]، وفي رواية: «فليكن أول ما تدعوهم به شهادة أن لا إله إلا الله»[5]، وفي رواية: «ليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل»[6].

» **خامسا**: أنها سبب الفلاح، قال عليه الصلاة والسلام: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[7].

» **سادسا**: أنها سبب عصمة الدم والمال، قال عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[8] وفي رواية «ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»[9].

» **سابعا**: أنها أفضل الذكر وخير الدعاء والقول، قال صلى الله عليه وسلم: «خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أو أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[10].

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٩٩).
(٤) رواه البخاري (٤٣٤٧، ٧٣٧١)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) رواه البخاري (لم أجده بهذا اللفظ عن البخاري)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٦) رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٧) رواه أحمد في المسند (١٦٦٠٣) من حديث ربيعة بن عباد الديل رضي الله عنه.
(٨) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).
(٩) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).
(١٠) رواه الترمذي (٣٥٨٥).

» **ثامنا**: أنها سبب مغفرة الذنوب قال عليه الصلاة والسلام: «ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقنٍ إلا غفر الله لها»[1].

» **تاسعا**: أنها سبب تثقيل الميزان كما في حديث البطاقة في الرجل الذي ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا سيئات، كل سجل مثل مد البصر، فتوضع السجلات في كفة، وبطاقة الشهادة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وإن قالها على وجه خلُص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأتِ بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات كما في حديث البطاقة)[3].

عاشرا: أنها سبب دخول الجنة قال عليه الصلاة والسلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة: «فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبُه فبشره بالجنة»[5]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»[6].

الحادي عشر: أنها سبب النجاة من النار قال عليه الصلاة والسلام: «لن يوافي عبد يوم القيامة لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا حرم الله عليه النار»[7]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[8].

***

مسألة مهمة في الجمع بين الأحاديث في أهل التوحيد والإخلاص

جاءت النصوص والأحاديث التي تدل على دخول أهل التوحيد أهل لا إله إلا الله الجنة ونجاتهم من النار، وجاءت نصوص أخرى تدل على أن من أهل التوحيد من عصاة المسلمين من يدخل النار، والجمع بينهما هو أن من أتى بكلمة الإخلاص لا إله إلا الله مع القيام بحقوقها ولوازمها، ولم يصر على كبيرة ومات على ذلك فهو من أهل الجنة الناجين من دخول النار برحمة الله، ومن قصَّر في أداء حقوقها بترك بعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات، أو أصر على كبيرة من غير توبة فهو تحت مشيئة الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨، النِّسَاء: ١١٦] فهو بين عفو الله وعقوبته، فإن شاء الله العفو عنه فهو من أهل الجنة ابتداء، وإن شاء الله تعذيبه بالنار على سيئاته فمآله إلى الجنة.

والخلاصة أن أهل التوحيد أهل لا إله إلا الله في الجنة قطعًا إما ابتداء وإما مآلا، وهم ناجون إما من دخول النار وإما من الخلود فيها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وتواترت الأحاديث بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكنها جاءت مقيدة بالإخلاص واليقين وبموت عليها وكلها مقيدة بهذه القيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه من أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها، فالذي قالها بيقين وصدق تام إما ألا يكون مصرًّا على سيئة أصلا، أو يكون توحيده متضمن لصدقه ويقينه رجَّح حسناته، والذين دخلوا النار قد فات فيهم أحد الشرطين:

إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافي للسيئات، أو لرجحانها على الحسنات.

أو قالوها واكتسبوا سيئاتٍ رجحت على حسناتهم، فضعف لذلك صدقهم ويقينهم فلم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين يمحوا سيئاتهم أو يرجح حسناتهم) [9].

***

المعنى الصحيح لكلمة التوحيد العظيمة: «لا إله إلا الله»

الحق الذي لا ريب فيه أن معنى هذه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله»: لا معبود حق إلا الله، هذا هو المعنى المتعين، والمراد: البراءة مما يُعبد من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وهذا النفي والإثبات هو حقيقة الكفر بالطاغوت والإيمانِ بالله الذي جاء في قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، فشطر كلمة التوحيد الأول هو الكفر بالطاغوت، وشطرها الثاني هو الإيمان بالله.

وهذا الفهم الصواب لـكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» مبني على حسن الفهم لأمرين:

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٩٦)، وأحمد (٢١٩٩٨).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤).
(٣) انظر: تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٦١).
(٤) رواه مسلم (٢٧).
(٥) رواه مسلم (٣١).
(٦) رواه مسلم (٢٦).
(٧) رواه البخاري (٦٤٢٢).
(٨) رواه البخاري (١٢٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٩) انظر: تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٦١).

» **الأول**: معنى الإله.

» **الثاني**: خبر لا المقدَّر.

وقد تجلى وظهر أن معنى الإله: المعبود، وأن خبر «لا» المقدر: حق، و«لا» هي النافية للجنس العاملة عمل إنَّ، ومعنى كونها نافية للجنس أنها تنفي الحكم عن كل فرد من أفراد جنس ما دخلت عليه على سبيل التنصيص[1]، وتسمى: «لا التبرئة»؛ لأنها تدل على تبرئة جنس اسمها كله من معنى غيرها.

واسم الله تعالى أعرف المعارف غنِيٌّ عن التعريف، قاله سيبويه[2].

فالصحيح أن خبر «لا» مقدَّر، تقديره: حق، أو بحق، فيكون معنى «لا إله إلا الله» لا معبود حق أو بحق إلا الله هذا هو التقدير الصواب الذي لا يصح غيره، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة.

وأما تقدير الخبر: موجود، أو في الوجود -لا إله موجود أو في الوجود إلا الله- فهذا باطل من وجهين:

» **أحدهما**: أنه يوهم معنًى باطلا وهو الاتحاد، فإن الإله هو المعبود، فإذا قيل: لا معبود موجود إلا الله، لزم منه أن كل معبود عُبِد بحق أو باطل هو الله، وهذا أعظم الكفر وأقبحه على الإطلاق.

» **الثاني**: أن هذا التقدير فيه مخالفةٌ للواقع، وإنكارُ حقيقةٍ لا تُجحَد، وهي وجود آلهة تُعبَدُ مع الله.

و«إلا» أداة استثناء وهي حرف باتفاق.

وأما اسم الجلالة الله بعد «إلا» فهو مرفوع ولم يأت في القرآن غير الرفع، بل لم تأت كلمة التوحيد في كتاب الله بنصب الاسم بعد «لا» حتى ولا في قراءة شاذة، فالصواب أنه مرفوع لا منصوب، والصحيح أنه بدل لا خبر، وهو المشهور الجاري على ألسنة المعربين، فهو بدل من الضمير المستكنِّ أي: المستتر في الخبر المحذوف، اختاره أبو حيان[3]، والشيخ ابن عثيمين[4].

ومعنى «أشهد أن لا إله إلا الله»: إخبار عما تعلمه النفس وتتيقنه قال أبو العباس القرطبي: (أي: أنطق بما أعلمه وأتحققه) [5]، وقال البعلي في المطلع: (بمعنى: أخبر بأني قاطع بالوحدانية) [6]، وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (معناها: أنطق بلساني معبرا عما يُكِنُّه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إله إلا الله) [7].

***

---

(١) انظر: شرح شذور الذهب لابن هشام (ص٢٧٢).
(٢) انظر: رسالة معنى لا إله إلا الله، لبدر الدين الزركشي (١٠٦/١).
(٣) انظر: البحر المحيط في التفسير (٧٥/٢)، والتذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٢٠٢/٨).
(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد (١٥٧/١).
(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٨٧/١).
(٦) المطلع على ألفاظ المقنع (ص١٠٢)، وانظر: الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي، لابن المِبْرَد (٢١١/٢)، والروض المربع، للبُهُوتي (٩٣/١)، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام، للسفاريني (٥٧٩/٢).
(٧) القول المفيد على كتاب التوحيد (١٥٩/١).

أخطاء مشهورة في تفسير كلمة التوحيد

مسألة مهمة: في ثلاثة أخطاء مشهورة في تفسير كلمة التوحيد لا إله إلا الله، والخطأ في تفسير الإله:

» **الخطأ الأول**: أن معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، وهذا تفسير كثير من المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم من الصوفية ومن وافقهم، قال عبد القاهر البغدادي: (واختلف أصحابنا في معنى الإله فمنهم من قال إنه مشتق من الإلهية وهي قدرته على اختراع الأعيان، وهو اختيار أبي الحسن الأشعري) [١]، ونقل الشهرستاني عن الأشعري أيضا أن أخصَّ وصفِ الإله هو القدرة على الاختراع فلا يَشْرَكُه فيه غيره، ومن أثبت فيه شِرْكَةً فقد أثبت إلاهين [٢]، وقال البيهقي: (الله معناه: من له الإلهية، وهي القدرة على اختراع الأعيان، وهذه صفة يستحقها بذاته) [٣].

» **الخطأ الثاني**: أن معنى لا إله إلا الله: لا مستغنيًا عن كل ما سواه ومفتقرا إليه من عداه إلا الله، جاء في متن أم البراهين السنوسية: (معنى الألوهية: استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه)، واستظهر السنوسي في شرحه على متنه أن هذا هو المعنى الأقرب للإله.

» **الخطأ الثالث**: أن معنى لا إله إلا الله إخراج اليقين الفاسد من القلب على الأشياء وإدخال اليقين الصحيح على ذات الله، أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ولا مدبر إلا الله، وهذا هو التفسير المشهور لدى جماعة الدعوة والتبليغ.

وهذه التفاسير الثلاثة لمعنى الإله في كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تتفق على جعل مدلول شهادة التوحيد توحيد الربوبية لا توحيد الألوهية، وهذا ما ذهب إليه كثير من المتكلمين من الأشعرية والصوفية ومن وافقهم، وهذا تفسير باطل من وجوه:

» **أحدها**: أن هذا قول مبتدَع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة.

» **الثاني**: أن هذا تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقًا قادرا على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإله حق وإن سمي إلهًا.

» **الثالث**: مخالفة القرآن الكريم وذلك أن الإله إنما ورد فيه بمعنى المعبود، لا بمعنى الخالق أو القادر أو الرازق أو المدبر، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢] ولقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وما أخبر الله أن كل نبي قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، المؤمنون: ٢٣] ولقول الله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] ولقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١] ولقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

» **الرابع**: لو كان معنى لا إله إلا الله لا خالق أو لا قادر أو لا رازق أو لا مدبر إلا الله لم يكن بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين نزاع؛ لأنهم يقرون بذلك.

» **الخامس**: أن هذا التفسير لا يتحقق به إلا توحيد الربوبية فقط، ومعلوم أن توحيد الربوبية وحده لا يُدخل الإنسان في الإسلام، ولو كان يُدخله في الإسلام ويعصم ماله ودمه لكان المشركون الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين لا تَحِلُّ دماؤهم ولا أموالهم ولا نساؤهم ولا ذراريهم ولا تُوْرَث أرضهم.

والواجب على من فسر كلمة التوحيد بأحد هذه التفاسير الثلاثة أن يتوب إلى الله تعالى من هذا التفسير الفاسد، وأن يرجع إلى التفسير الصحيح الذي اتفق عليه المسلمون وفهمه الناس من هذه الكلمة العظيمة، حتى المشركون الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يقر ويعترف بأن توحيد الربوبية شيء، وتوحيد الألوهية شيء آخر ولا يتم أحدهما بدون الآخر.

***

أسأل الله أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، والفهم الصحيح لكتابه ولسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، وأن يثبتنا على دينه القويم وصراطه المستقيم كتابَ الله وسنةَ نبيه صلى الله عليه وسلم-، وأن يتوفانا على التوحيد والإسلام والسنة غير مغيِّرين ولا مبدِّلين، وأن يجعلنا ممن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله بالصدق واليقين التام المنافي للسيئات، والإصرار على الكبائر والموبقات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أصول الدين (ص ١٢٣).
(٢) نهاية الإقدام (ص ٩١).
(٣) الاعتقاد (ص ٥٩).

(أذكار الصباح والمساء)

١. قراءة آية الكرسي. في الليل.

٢. قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة. في الليل.

٣. قراءة سور المعوِّذات: الإخلاص والفلق والناس. ثلاث مرات.

٤. (أَصْبَحْنا وَأَصْبَحَ المُلْكُ لله، لا إِلَهَ إلّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ ما في هذَا اليَوْمِ وَخَيْرَ ما بَعْدَه، وَأَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما في هذَا اليَوْمِ وَشَرِّ ما بَعْدَه، رَبِّ أَعُوذُ بكَ مِنَ الكَسَلِ وَسُوءِ الكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بكَ مِن عَذابٍ في النّارِ وَعَذابٍ في القَبْرِ) وإذا أمسى قاله وأبدل بالآتي: (أَمْسَيْنا وَأَمْسى) (هَذِه اللَّيْلَةِ) (ما بَعْدَها).

٥. (اللَّهُمَّ بكَ أصبَحْنا، وبكَ أَمْسَيْنا، وبكَ نَحْيا، وبكَ نَموتُ وإليكَ النشورُ) وإذا أمسى قال : (اللَّهمَّ بِكَ أمسَينا وبِكَ أصبَحنا وبِكَ نَحيا وبِكَ نموتُ، وإليكَ المصيرُ).

٦. (أَصبَحْنا على فِطرةِ الإسلامِ، وعلى كَلِمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نَبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفًا مُسلِمًا، وما كان مِنَ المُشرِكينَ) وإذا أمسى قاله وأبدل بـ: (أَمْسَيْنا) .

٧. (اللَّهمَّ إنِّي أصبحتُ أشْهِدُكَ وأشْهِدُ حملةَ عرشِكَ وملائِكتَكَ وجميعَ خلقِكَ أنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلهَ إلّا أنتَ وحدَكَ لا شريكَ لَكَ وأنَّ محمَّدًا عبدُكَ ورسولُكَ) أربع مرات.

٨. (اللَّهمَّ ما أصبَحَ بي مِن نعمةٍ، أو بأحَدٍ مِن خلقِكَ، فمِنْكَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، فلَكَ الحمدُ، ولكَ الشُّكرُ) .

٩. (اللَّهمَّ أنتَ ربِّي لا إلَهَ إلا أنتَ خلَقتني وأنا عبدُكَ وأنا على عَهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ أعوذُ بِكَ من شرِّ ما صنعتُ أبوءُ لَكَ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي فاغفر لي فإنَّهُ لا يغفرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ).

١٠. (اللَّهُمَّ عافِني في بَدَني، اللَّهُمَّ عافِني في سمعي، اللَّهُمَّ عافِني في بَصَري، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الكُفرِ والفَقرِ، اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك من عذابِ القبرِ، لا إلهَ إلّا أنت) ثلاث مرات.

١١. (اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ العافيةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ العَفوَ والعافيةَ في دِيني ودُنيايَ، وأهْلي ومالي، اللَّهُمَّ استُرْ عَوْراتي، وآمِنْ رَوْعاتي، اللَّهُمَّ احْفَظْني من بينِ يَدَيَّ، ومن خَلْفي، وعن يَميني، وعن شِمالي، ومن فَوْقي، وأعوذُ بعَظَمتِكَ أنْ أُغْتالَ من تَحْتي).

١٢. (اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ خَيْرَ هذا اليومِ؛ فَتْحَه ونَصْرَه ونُورَه وبرَكتَه وهُداهُ، وأعوذُ بكَ مِن شرِّ ما فيه، وشَرِّ ما بعدَه).

١٣. (اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ عِلمًا نافعًا ورزقًا طيِّبًا وعملًا متقبَّلًا) في الصباح.

١٤. (رضِيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دِينًا وبمُحمَّدٍ ﷺ نَبيًّا) ثلاث مرات.

١٥. (يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتِكَ أستغيثُ أصلِح لي شأني كلَّهُ ولا تَكلني إلى نفسي طرفةَ عينٍ).

١٦. (حسْبيَ اللهُ لا إلهَ إلّا هو عليه توكَّلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيمِ) سبع مرات .

١٧. (بسمِ اللهِ الذي لا يضرُّ مع اسمِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ وهو السميعُ العليمُ) ثلاث مرات .

١٨. (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامّاتِ مِن شرِّ ما خلَق) ثلاث مرات .

١٩. (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجرٌ من شرِّ ما خلق وذرأ وبرأ ومن شرِّ ما ينزلُ من السماءِ ومن شرِّ ما يعرجُ فيها ومن شرِّ ما ذرأ في الأرضِ وما يخرجُ منها ومن شرِّ فتنِ الليلِ والنهارِ ومن شرِّ كلِّ طارقٍ إلا طارقًا يطرقُ بخيرٍ يا رحمنُ).

٢٠. (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ)

٢١. (اللَّهمَّ عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ، أشهَدُ أن لا إلَهَ إلّا أنتَ، أعوذُ بِكَ من شرِّ نفسي، وشرِّ الشَّيطانِ وشِركِهِ، وأن أقترِفَ على نَفسي سوءًا أو أجُرَّهُ إلى مسلِمٍ).

٢٢. (لا إلهَ إلّا اللهُ، وحدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيْءٍ قديرٌ) مائة مرة.

٢٣. (سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه) مائة مرة .

٢٤. (سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه عَدَدَ خَلْقِه، ورِضا نَفْسِه، وزِنةَ عَرْشِه، ومِدادَ كَلِماتِه) ثلاث مرات.

٢٥. (أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ) ونحوها. مائة مرة.

٢٦. الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. عشر مرات فأكثر.

» اللَّهُمَّ إنِّي أصبَحْتُ منكَ في نِعمةٍ وعافيةٍ وسِترٍ، فأتْمِمْ عليَّ نِعمتَكَ وعافيتَكَ وسِترَكَ في الدُّنيا والآخِرةِ. ثلاث مرات.

» تحصَّنتُ بالذي لا إلهَ إلّا هو إلهي وإلهُ كلِّ شيءٍ واعتصمتُ بربِّي وبربِّ كلِّ شيءٍ وتوكلتُ على الحيِّ الذي لا يموتُ واستدفعتُ الشرَّ بلا حولَ ولا قوةَ إلّا باللهِ، حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ، حسبيَ الربُّ من العبادِ، حسبيَ الخالقُ من المخلوقِ، حسبيَ الرزاقُ من المرزوقِ، حسبيَ الذي هو حسبي، حسبيَ الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ، وهو يجيرُ ولا يجارُ عليه، حسبيَ اللهُ وكفى، سمِع اللهُ لمن دعا، ليس وراءَ اللهِ مَرمى، حسبيَ اللهُ لا إلهَ إلّا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيمِ.

» أعوذُ بوجه الله العظيم الذي ليس شيءٌ أعظمَ منه، وبكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنَّ بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى ما علمتُ منها وما لم أعلم، من شَرِّ ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شَرِّ كل ذي شر لا أطيقُ شَرَّه، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ، ربي أنت آخِذٌ بناصيتِه، إنَّ ربي على صراط مستقيم.

» اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بوجْهكَ الْكريمِ وَكلماتِكَ التّامّاتِ مِن شرِّ ما أنتَ آخذٌ بناصيتهِ اللّٰهُمَّ أنتَ تكشِفُ المغرَمَ والمأثَمَ اللّٰهُمَّ لا يُهزَمُ جندُكَ ولا يخلَفُ وعدُكَ ولا ينفعُ ذا الجدِّ منْكَ الجدُّ سبحانَكَ وبحمدِكَ.

- «أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» أخرجه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).
- «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي» أخرجه مسلم (٢٦٩٧).
- «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ» أخرجه البخاري (٦٣٠٦).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى». أخرجه مسلم (٢٧٢١).
- «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ» أخرجه مسلم (٢٧٢٠).
- «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي، وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» أخرجه البخاري (٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥).
- «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» أخرجه مسلم (٧٧١).
- «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ، وَسِرَّهُ» أخرجه مسلم (٤٨٢).
- «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» أخرجه مسلم (٤٨٦).
- «[اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك] مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ» أخرجه البخاري (٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ، وَشَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ» أخرجه مسلم (٢٧١٦).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ» أخرجه مسلم (٢٧٣٩).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ» «وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ»، (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ» أخرجه البخاري (٤٧٠٧)، (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» أخرجه البخاري (٦٣٧٠).
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» أخرجه البخاري (٦٣٦٨)، ومسلم (٥٨٩).
- «اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك مِنَ العَجْزِ، وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ، وَالبُخْلِ، وَالهَمِّ وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» أخرجه مسلم (٢٧٢٢).
- «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ- لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ- أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم، رقم: (٢٧١٧) واللفظ له.
- «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

الفهرس

أشرفُ الكلام، وأفضل الذِّكر، أنزله الله تبيانًا وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ، هدىً ورحمةً وموعظةً للمؤمنين، وشفاءً لما في الصُّدور، جعَلَه الله آيات بيّناتٍ في صُدور الذين أوتوا العلم...

أقبَلَ عليه الصحابةُ تلاوةً وتدبُّرًا وعملاً، فكانوا لا يتجاوَزون الآيات المعدودةَ إلا وقد تعلّموا ما فيها من العلم والعمل، ثم كان دَأْبُ مَن بعدَهم من العلماء والعبّاد، فكان القرآن أَنيْسَهم وجليسَهم، وكان مَحلّ نظرِهم تأمّلاً واستنباطًا وتفقُّهًا، تدارسوه فيما بينهم، وقيّدوا ما فتح الله عليهم في مئات الآلاف من الصفحات...

ثم إنّ المؤلِّف قد جَمع خُلاصةً مما تحرّر له من النَّظر في التفسير والتأمّل في كلام المتقدّمين، وسمّى ما جَمعه (فتحُ الرّبِّ الوهّاب ببيانِ معاني آي الكتاب)، فكانتْ تلك الخلاصةُ في التفسيرِ مشْتمِلةً على فوائدَ جَمّةً ممّا يتّصل بمعنى الآيةِ وآراءِ المفسِّرين فيها، وسببِ نُزُولها، مع الترجيح، وعلى هداياتٍ وفوائدَ قرآنيةٍ وفقهيةٍ وعقديةٍ، مع العناية بالتوفيق بين الآيات التي يُتوَهَّم فيها التعارض، وردّ المعاني الباطلة التي يُشوّش بها أهل الزيغ والابتداع.

ثمّ رأى المؤلِّف البَدْءَ بنشرِ ما يخُصُّ الفاتحة والعُشر الأخير، في جُزْءٍ مُخْتصَرٍ هو هذا الذي بين يديك؛ لِيكونَ أقربَ للوُصول لمعنى الآية، وما يلزِمُ تاليَها من علمٍ بما تضمَّنته من فوائد وهدايات.

جعَلَه الله خالصًا لوجهه الكريم، وسببًا للزُّلفَى بين يديه، ونفعَ به عبادَه، وأجْزَل المثوبةَ لكلِّ مَن أعان على جمْعِ أصلِه، وإعدادِه، وترتيبِه، ومُراجعتِه، واختصاره، وطباعته، ونَشره.

http://shrajhi.com.sa/
shrajhi
@AlSheikhAlRajhi
Abdulaziz- alrajhi
sh.azizcenter@gmail.com
0114455995 /FAX/ EXT.108